

لماذا نحتاج إلى صحبة القرآن؟

أ. محمد يحيى صالح



إهداء

❖ إلى حبيبي محمد المصطفى، ﷺ، الذي كان خُلِقَ القرآن،
فترجم هداياته سلوكًا، وآياته أخلاقًا، ونوره رحمةً
للعالمين.

❖ إلى من علّم الأمة كيف تعيش بالقرآن، وكيف تجعل من
هداياته نورًا للقلوب، ومن تعاليمه منهجًا للحياة.
❖ إليك يا رسول الله، نهدي هذا العمل المتواضع، محبةً
ووفاءً، ورجاءً أن يكون خطوةً في طريق الاهتداء بهديك،
والاقتداء بأخلاقك، وصحبة كتاب الله الذي أنزل عليك
هدايةً ونورًا.

❖ صلى الله عليك وسلم يا معلّم البشرية، ورحمة الله
المهداة، ما تلا تال كتاب الله، وما اهتدى قلبٌ بنوره.

محبك / محمد صالح

مقدمة الكتاب:

ليس القرآن الكريم كتابًا يُتلى فحسب، ولا نصًّا يُستحضر في مواسم العبادة والمناسبات، ولا مصدرًا للمعرفة الدينية يُكتفى بفهم معانيه وتحصيل مسأله؛ بل هو كتاب هداية، ومنهج حياة، وخطاب رباني يتوجه إلى الإنسان ليعيد تشكيل وعيه، ويهذب وجدانه، ويقوم سلوكه، ويوجه اختياراته نحو ما يحقق عبوديته لله تعالى وصلاح حياته. ومن هنا، فإن العلاقة بالقرآن لا تستقيم في مقاصدها بمجرد حضور ألفاظه على اللسان، ما لم يمتد هذا الحضور إلى القلب، والعقل والإرادة والعمل. فالغاية ليست أن يكون القرآن حاضرًا في مجالسنا فحسب، بل أن يكون حاضرًا في تصوراتنا ومواقفنا وقراراتنا، وأن تتحول هداياته من معانٍ نقرأها إلى حقائق نعيش بها ونحتكم إليها.

وتنبع الحاجة إلى صحبة القرآن من طبيعة العلاقة التي أرادها الله تعالى بين كتابه والإنسان؛ فهي علاقة هداية وتركية وبناء، وليست مجرد علاقة قراءة واستماع. وقد وصف الله تعالى القرآن بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فجعل الهداية من أبرز وظائفه، ويبيّن أنه يرشد إلى الطريق الأقوم في الاعتقاد والعبادة والأخلاق وشؤون الحياة. والهداية بهذا المعنى أوسع من تحصيل المعرفة؛ إذ تقتضي أن يتفاعل الإنسان مع الخطاب القرآني، وأن يعيد النظر في نفسه ومواقفه على ضوء ما يتلقاه منه، وأن يترجم ما تبين له من الحق إلى عمل بحسب استطاعته وما يقتضيه التكليف الشرعي.

غير أن التأمل في طبيعة العلاقة التي يقيمها بعض الناس مع القرآن يكشف عن مسافة قد تنشأ بين كثرة التلاوة وقوة الأثر، وبين معرفة الأحكام واستحضار مقتضياتها في السلوك، وبين التأثير العابر بالآيات والثبات على هداياتها في مواقف الحياة. ولا يعني ذلك التقليل من شأن التلاوة أو إنكار فضلها؛ فالتلاوة عبادة عظيمة، ولها منزلتها في بناء الصلة بكتاب الله تعالى، وإنما المقصود التنبيه إلى أن التلاوة، مع عظيم فضلها، ليست بديلًا عن التدبر، كما أن التدبر لا يستغني عن التلاوة، وكلاهما لا يكتمل أثره التربوي إلا بالسعي إلى العمل بما يقتضيه القرآن في حدود العلم والاستطاعة.

وتتأكد أهمية هذه المسألة حين ندرك أن الإنسان قد يعرف الحق ولا يلتزم به في جميع أحواله، وقد يتأثر بالموعة ثم يضعف أثرها عند مواجهة الشهوة أو الغضب أو ضغط المصالح أو العادات الاجتماعية. فالمشكلة لا تكمن دائمًا في

غياب المعرفة، بل قد تكون في ضعف الصلة المستمرة بالهداية، أو في عدم انتقال المعرفة من مستوى الإدراك إلى مستوى المراقبة والمحاسبة واتخاذ القرار. ومن ثم، فإن السؤال التربوي الذي ينبغي أن يتقدم على مجرد السؤال عن مقدار ما نقرأ هو: ما الذي تصنعه قراءتنا في نفوسنا؟ وكيف تؤثر في فهمنا لأنفسنا وللعالم من حولنا؟ وإلى أي مدى تسهم في تقويم سلوكنا وتوجيه علاقاتنا واختياراتنا؟ إن هذه الأسئلة لا تنتقص من قيمة الحفظ أو التلاوة أو دراسة علوم القرآن، وإنما تضع كلاً منها في موضعه ضمن منظومة متكاملة غايتها الاهتداء بكلام الله تعالى. فالمعرفة بالقرآن مطلوبة، والتلاوة مطلوبة، والتدبر مطلوب، والعمل بمقتضى الهداية مطلوب؛ ولا يصح أن تُجعل هذه المقاصد متنافسة أو متعارضة، بل ينبغي فهمها بوصفها مسارات متكاملة تتساند في بناء الصلة الراشدة بالوحي. ومن هنا يأتي مفهوم **صحبة القرآن** ليعبر عن علاقة ممتدة تتجاوز اللقاء العابر بالنص إلى الملازمة الواعية له، والتلقي المتجدد من هداياته، واستصحاب معانيه في مختلف أحوال الحياة.

أولاً: التلاوة والتدبر والعمل؛ علاقة تكامل لا تعارض

تحتل التلاوة منزلة أصيلة في صلة المسلم بالقرآن الكريم؛ فهي عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، ووسيلة لتجديد العهد بكتابه، ومدخل لتلقي خطابه واستحضار معانيه. وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]. وتدل الآية على شرف التلاوة وفضلها، كما تضعها في سياق إيماني وعملي يتصل بإقامة الصلاة والإنفاق ابتغاء مرضاة الله. وهذا السياق يلفت النظر إلى أن صلة المؤمن بالقرآن لا تنفصل عن سائر أعماله التعبدية، وأن التلاوة تقع ضمن بناء إيماني يتجلى أثره في العبادة والبذل وسائر وجوه الطاعة.

ولا يصح، مع ذلك، اختزال التلاوة في مجرد حركة اللسان، أو جعل قيمتها مرهونة دائماً بما يتحقق للقارئ من فهم تفصيلي لكل آية؛ فالتلاوة عبادة مشروعة في ذاتها، ولها فضلها ولو تفاوتت درجات القراءة في الفهم والتدبر. لكن الإقرار بهذه الحقيقة لا يسوغ تحويل التلاوة إلى ممارسة معزولة عن المقصد الذي أنزل القرآن من أجله، وهو الهداية. فثمة فرق بين إثبات فضل الفعل التعبدي، وبين البحث في تمام أثره التربوي؛ إذ يمكن أن يكون الفعل مشروعاً فاضلاً، مع بقاء الحاجة إلى استكمال آثاره في الوعي والسلوك.

ومن هنا تأتي منزلة التدبر، الذي يفتح أمام القارئ مجالاً أعمق لفهم الخطاب القرآني، والنظر في دلالاته ومقاصده، وربط معانيه بواقع النفس والحياة. وقد ورد الأمر بالتدبر في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. فالآية لا تدعو إلى مجرد مرور الألفاظ على السمع، وإنما تستثير النظر في المعاني، وتلفت إلى ما قد يحول بين القلب وبين الانتفاع بالخطاب الإلهي. والتدبر، بهذا الاعتبار، ليس ترفاً ذهنياً، ولا محاولة لإنتاج خواطر شخصية منفصلة عن دلالة النص، بل هو نظر منضبط في معاني القرآن، يراعي اللغة والسياق وسائر ما يعين على الفهم الصحيح، ويقصد إلى إدراك ما تتضمنه الآيات من هداية وعبرة وتوجيه.

ويقتضي هذا الفهم التمييز بين التدبر والتفسير، من غير إقامة حاجز قاطع بينهما. فالتفسير يعني ببيان معاني الآيات ودلالاتها وفق مناهج العلم وأصوله، مستعيناً باللغة والسياق وأقوال المفسرين وسائر أدوات الفهم المعتمدة. أما التدبر فيتجه، انطلاقاً من الفهم الصحيح، إلى التأمل في دلالات الخطاب ومقاصده وآثاره، والنظر في صلة الهدايات القرآنية بحال الإنسان وواقعه. وقد يجتمع التفسير والتدبر في عملية واحدة؛ إذ يهيئ التفسير سبيل الفهم، ويفتح الفهم المنضبط آفاق التدبر والاعتبار. ولا يستقيم التدبر إذا بني على معنى غير ثابت أو اقتطع الآية من سياقها، كما لا تتحقق غايته التربوية بمجرد معرفة المعنى دون مساءلة النفس عن مقتضاه.

ومع ذلك، لا تنتهي العلاقة بالقرآن عند الفهم والتأمل؛ لأن الهداية التي يتضمنها الوحي تستدعي استجابة عملية. فالإنسان قد يفهم قيمة الصدق، ويدرك مكانة العدل، ويتأمل آيات الرحمة والصبر والعفو، لكن الأثر المقصود يظل ناقصاً إذا لم يسع إلى تجسيد هذه المعاني في معاملاته ومواقفه. وقد جمع القرآن بين التلاوة والتزكية والتعليم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. وتكشف الآية عن منظومة مترابطة في بناء الإنسان؛ فتلاوة الآيات ليست منفصلة عن التزكية والتعليم، وإنما تقع ضمن مشروع هداية يتناول المعرفة والقلب والسلوك.

والعمل بالقرآن لا يعني أن يحول القارئ كل خاطر يمر به أثناء القراءة إلى حكم شرعي، أو أن يستنبط من الآيات أحكاماً دون امتلاك أدوات الاستنباط، أو أن يتعامل مع كل معنى وعظي على أنه تكليف محدد. وإنما يعني أن يستجيب للهداية القرآنية وفق دلالتها الصحيحة، وأن يلتزم ما ثبت من أحكامها، وأن يتخلق بما

تدعو إليه من فضائل في مواضعها، وأن يراجع مواقفه في ضوء ما يتعلمه من الحق. كما يقتضي التمييز بين الأحكام الملزمة، والآداب والمندوبات، والمعاني الإيمانية والتربوية التي توسع أفق الإنسان في فهم نفسه ومسؤوليته؛ حتى لا تختلط مراتب الخطاب، ولا تتحول التجربة الشخصية إلى مصدر مستقل للتشريع.

وعلى هذا الأساس، يمكن النظر إلى التلاوة والتدبر والعمل بوصفها حلقات متكاملة في مسار الانتفاع بالقرآن. فالتلاوة تجدد الصلة بالنص، والتدبر يعمق إدراك معانيه وهداياته، والعمل ينقل ما استقر من الفهم إلى مجال الممارسة والاختيار. وهذه العلاقة ليست آلية أو خطية بالضرورة؛ فقد يقود العمل الإنسان إلى اكتشاف حاجته إلى فهم أعمق، وقد يعيده التدبر إلى مراجعة طريقته في التلاوة، وقد تدفعه مواقف الحياة إلى الرجوع للقرآن بحثاً عن هداية تضبط موقفه. وبذلك تصبح الصلة بالقرآن حركة متجددة يتفاعل فيها العلم والإيمان والعمل.

وتظهر أهمية هذا التكامل في تجنب اختلالات متعددة؛ منها تلاوة تنشغل بالكم وحده، وتدبر ينفصل عن أصول الفهم، ومعرفة لا تتحول إلى التزام، وحماس عملي لا يستند إلى فهم صحيح. فالمطلوب ليس تفضيل أحد هذه الجوانب على الآخر بإطلاق، وإنما إقامة التوازن بينها بحسب ما يقتضيه المقام وحال المتلقي. ومن هنا، فإن صحبة القرآن لا تقاس بعدد الصفحات المقروءة وحده، ولا بكثرة الخواطر المستنبطة، ولا بمظاهر الالتزام المنفصلة عن المعرفة، بل ينظر في مجموع الصلة: ثباتها، وصحة الفهم فيها، وصدق الاستجابة لهدايات الوحي، مع الإقرار بأن أثر القرآن في النفوس يتفاوت، وأن تركية الإنسان مسار مستمر لا يتحقق دفعة واحدة.

ثانياً: مفهوم صحبة القرآن ومقاصدها

تستدعي عبارة «صحبة القرآن» قدرًا من التأمل في دلالتها؛ فالصحبة في الاستعمال اللغوي تفيد الملازمة والمعاشرة، وما ينشأ عنهما من اتصال متكرر وتأثر متبادل في الخبرة الإنسانية. وعند إضافة الصحبة إلى القرآن الكريم، ينتقل التعبير من مجرد وصف كثرة القراءة إلى الدلالة على علاقة واعية ومستمرة بكتاب الله تعالى، يتجدد فيها التلقي، ويتعمق الفهم، وتُستحضر الهداية في مواقف الحياة. وهذا التعبير لا يراد به إنشاء عبادة مستقلة ذات هيئة مخصوصة لم يرد بها دليل، وإنما يراد به وصف منهج في التعامل مع القرآن، تتكامل فيه التلاوة والتعلم والتدبر والعمل والمراجعة.

ويمكن تعريف صحبة القرآن، في إطار هذا الكتاب، بأنها: ملازمة واعية ومتجددة لكتاب الله تعالى، تقوم على تلاوته وتعلم معانيه وتدبر هداياته، والاستجابة لما يقتضيه من اعتقاد وعبادة وأخلاق وعمل، وفق الفهم الصحيح للخطاب القرآني وأحكامه ومقاصده. ويجمع هذا التعريف بين عنصر الاستمرار، وعنصر الوعي، وعنصر الاستجابة؛ فالاستمرار يميز الصحبة من اللقاء العابر، والوعي يميزها من الممارسة التي لا يصاحبها اهتمام بالمعنى، والاستجابة تربط المعرفة بغاية الهداية والعمل.

ولا تعني الملازمة أن يكون الإنسان في كل لحظة منشغلاً بالقراءة المباشرة، أو أن يستحضر جميع الآيات في كل موقف، فهذا غير متصور في حدود الطاقة البشرية. وإنما تعني أن تصبح العلاقة بالقرآن جزءاً ثابتاً من بناء حياته الإيمانية والفكرية، وأن يرجع إليه في التعلم والتزكية وفهم التكليف، وأن تتشكل لديه مع مرور الزمن مرجعية واعية تستحضر هدايات الوحي عند النظر في المواقف والاختيارات. فصحبة القرآن ليست إلغاءً للعقل أو تعطيلًا للخبرة الإنسانية، بل هي توجيه للعقل والوجدان والعمل في ضوء الوحي، مع مراعاة المجالات التي تحتاج إلى اجتهاد بشري ومعرفة بالواقع.

ويؤيد هذا المعنى ما جاء في وصف القرآن بأنه كتاب مبارك أنزله الله تعالى للتدبر والتذكر، قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. فالآية تربط إنزال الكتاب بالتدبر والتذكر، وتلفت إلى أن الانتفاع به يتجاوز مجرد وجوده أو تلاوته إلى أعمال الفكر واستحضار ما يقتضيه خطابه. ولا يلزم من ذلك أن يكون كل قارئ قادراً على استنباط جميع المعاني بنفسه، بل إن التدبر الرشيد يقتضي التعلم، والرجوع إلى أهل الاختصاص فيما يشكل، والتمييز بين ما يدل عليه النص وما قد يتوهمه المتأمل من غير دليل. ولصحبة القرآن مقاصد متعددة، تتساند ولا تنفصل، ويمكن إبراز أهمها في خمسة مقاصد مترابطة:

المقصد الأول: تحقيق الهداية وتصحيح التصور. فالقرآن يقدم للإنسان ميزاناً لفهم علاقته بربه، وحقيقة وجوده، ومسؤوليته في الحياة، ومآله بعد الموت. ومن خلال ملازمته وتعلمه، تتضح معالم التوحيد والعبودية، وترسخ المفاهيم التي تضبط نظر الإنسان إلى نفسه والعالم والآخرين. ولا يتحقق هذا المقصد بمجرد جمع المعلومات، بل يتطلب استيعاب المعاني في سياقاتها، وفهم ما تصححه من تصورات، وما تدعو إليه من مواقف.

المقصد الثاني: تزكية النفس وإصلاح القلب. فالإنسان لا يتشكل بالمعرفة وحدها، وإنما تؤثر في سلوكه دوافعه ومشاعره وعاداته ومخاوفه ورغباته. وتتيح صحبة القرآن مجالاً مستمراً لمراجعة هذه الجوانب على ضوء ما يقرره الوحي من معاني الإخلاص والتقوى والصبر والرجاء والخشية والتوكل. غير أن التزكية ليست نتيجة تلقائية لمجرد القراءة؛ إذ تتطلب صدق المجاهدة، ومحاسبة النفس، والتوبة من التقصير، والاستمرار في طلب الهداية.

المقصد الثالث: بناء السلوك والأخلاق. فالهداية القرآنية لا تنحصر في المجال التعبدية الخاص، بل تتناول الصدق والأمانة والعدل والوفاء والرحمة وضبط اللسان وحفظ الحقوق. ومن ثم، فإن أثر الصحبة يظهر في طريقة تعامل الإنسان مع أسرته ومجتمعه، وفي موقفه من الخلاف والمصلحة والسلطة والمال، وفي قدرته على مقاومة الظلم والتزام الإنصاف. ويقتضي ذلك نقل المعاني من مستوى الإعجاب الأخلاقي إلى مستوى الممارسة، مع إدراك أن تطبيق القيم يحتاج أحياناً إلى فقه بالواقع، وموازنة بين المصالح والمفاسد، ومعرفة بمراتب الأحكام.

المقصد الرابع: تنمية الوعي والمراجعة الذاتية. فالصحبة المتجددة تجعل الإنسان أكثر قدرة على مساءلة تصرفاته، ومراجعة دوافعه، واكتشاف التناقض بين ما يؤمن به وما يمارسه. وحين يقرأ آيات العدل، مثلاً، لا يقف عند بيان فضل العدل في ذاته، بل يسأل عن أثره في أحكامه على الآخرين. وحين يتأمل آيات الصبر، ينظر في حدود صبره عند الشدة، وفي علاقته بالاستعجال والجزع. وليس المقصود تحويل كل قراءة إلى محاكمة نفسية مرهقة، وإنما بناء عادة متوازنة من التذكر والمراجعة والإصلاح.

المقصد الخامس: ترسيخ الاستقامة والاستمرار في الهداية. فالتغير الأخلاقي والإيماني لا يتحقق غالباً بموقف وجداني واحد، بل يحتاج إلى تربية ممتدة تتجدد فيها المعرفة والدافعية والمحاسبة. وتمنح صحبة القرآن الإنسان مورداً دائماً للرجوع إلى الهداية، وتجديد العزم، وتصحيح المسار عند الخطأ. وهي بهذا المعنى ليست مشروعاً مؤقتاً مرتباً بموسم أو ظرف، بل علاقة ممتدة ترافق مراحل الحياة، وتستجيب لتغير أحوال الإنسان ومسؤولياته.

وتتكامل هذه المقاصد في بناء شخصية قرآنية متوازنة، لا تختزل الدين في المعرفة المجردة، ولا تجعل المشاعر بديلاً عن العمل، ولا تفصل الأخلاق عن الاعتقاد والعبادة. كما أن تحقيقها متفاوت بين الناس، ويتأثر بمستوى المعرفة، وظروف الحياة، وصدق المجاهدة، والبيئة المحيطة، وغيرها من العوامل. ولذلك لا يصح

الحكم على أثر الصلحة بمقياس واحد أو بنتيجة فورية، وإنما ينظر إليها بوصفها مسارًا تربويًا تراكم ثماره من خلال الاستمرار والتصحيح والتعلم. ومن الضروري كذلك التمييز بين مفهوم صلحة القرآن بوصفه إطارًا تربويًا جامعًا، وبين المصطلحات الشرعية التي تدل على أعمال محددة لها أحكامها وشروطها. فالصلحة، في استعمال هذا الكتاب، ليست بديلًا عن التلاوة أو التدبر أو التعلم أو العمل، ولا تمنح كل ممارسة شخصية وصفًا شرعيًا خاصًا؛ بل تجمع هذه المكونات في تصور واحد يهدف إلى إحسان الصلة بالقرآن. وبذلك يصبح المفهوم أداة لفهم العلاقة بالوحي وتنظيم مسار الانتفاع به، لا شعارًا وعظيًا فضفاضة يصعب ضبط دلالاته أو تقويم آثاره.

ثالثًا: إشكالية الكتاب؛ كيف تتحول التلاوة إلى هداية حاضرة في الحياة؟

تتمثل الإشكالية المركزية لهذا الكتاب في السؤال عن الكيفية التي تنتقل بها العلاقة بالقرآن الكريم من ممارسة التلاوة إلى تحقق الهداية في الوعي والسلوك. وهذا السؤال لا ينطلق من افتراض أن التلاوة لا تؤثر، أو أن قارئ القرآن لا ينتفع به، بل من ملاحظة تربوية مفادها أن صور الانتفاع بالقرآن تتفاوت، وأن الانتقال من سماع الخطاب أو قراءته إلى استيعاب دلالاته واستحضارها في الحياة يحتاج إلى فهم للعمليات التي يتشكل من خلالها هذا الأثر.

فقد يعتاد الإنسان التلاوة، لكنه لا يخصص وقتًا كافيًا لفهم المعاني، وقد يفهم المعاني دون أن يربطها بمواقفه اليومية، وقد يتأثر بها في لحظة القراءة ثم يضعف استحضاره لها عند التعرض لمواقف تتطلب ضبط النفس أو مقاومة المصلحة العاجلة. وهذه الصور، حين تقع، لا تدل بالضرورة على انعدام الانتفاع، ولا يجوز تعميمها على القراء أو اتخاذها حكمًا على بواطن الناس؛ لكنها تكشف عن أهمية دراسة المسافة بين تلقي النص واستجابة الإنسان له، وعن الحاجة إلى بيان الوسائل التي تعين على تقليص هذه المسافة.

وتتصل الإشكالية أيضًا بطبيعة المعرفة القرآنية التي يحتاج إليها المسلم. فليس كل ما يتصل بالقرآن من جنس واحد؛ إذ يختلف تعلم التلاوة وأحكامها عن تعلم التفسير، ويختلف التدبر عن الاستنباط الفقهي، كما تختلف الاستفادة الوعظية والتربوية عن إصدار الأحكام الشرعية. وإذا لم تُضبط هذه المستويات، فقد ينشأ خلل في فهم النص أو في تنزيله على الواقع؛ فقد يتوسع القارئ في معنى لا يحتمله السياق، أو يستخرج حكمًا من آية دون جمع النصوص ذات الصلة، أو يكتفي بموعظة عامة في موضع يحتاج إلى معرفة بحكم شرعي محدد. ومن ثم، فإن

تحويل التلاوة إلى هداية لا يتحقق بمجرد تعميق التأثير، بل يتطلب تأثراً يستند إلى فهم صحيح، واستجابة تراعي دلالة النص ومراتب الأحكام.

كما ترتبط الإشكالية بعلاقة القرآن بالواقع المعاصر، بما يشتمل عليه من تسارع في إيقاع الحياة، وتعدد مصادر المعرفة والتأثير، وتزاحم المطالب المهنية والأسرية والاجتماعية، وتعرض الإنسان المستمر لرسائل قد تؤثر في قيمه واختياراته. وفي مثل هذه الظروف، لا تكفي الدعوة المجردة إلى زيادة القراءة ما لم تقترن بتصور عملي يساعد على بناء صلة مستمرة بالقرآن، ويبين كيفية تنظيم التلاوة والتعلم والتدبر، وكيفية وصل الهدايات القرآنية بالمواقف اليومية من غير تكلف أو تعسف في الاستنباط.

وتحدد الإشكالية الرئيسة في السؤال الآتي:

كيف يمكن بناء صحبة واعية ومستدامة للقرآن الكريم، تنتقل بالمسلم من مجرد التلاوة إلى الفهم والتدبر، ثم إلى استحضار الهداية القرآنية في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والسلوك، مع الالتزام بضوابط الفهم الصحيح للنص؟

ويتفرع عن هذا السؤال عدد من الأسئلة التي توجه معالجة الكتاب:

١. ما المقصود بصحبة القرآن، وما الفروق بينها وبين الاختصار على التلاوة

العابرة أو التعامل الموسمي مع القرآن؟

٢. ما طبيعة العلاقة بين التلاوة والتفسير والتدبر والعمل، وكيف يمكن تحقيق

التكامل بينها دون إلغاء خصوصية كل مجال؟

٣. ما الضوابط العلمية والشرعية التي تعين على تدبر القرآن، وتحول دون

إسقاط الأهواء أو التجارب الشخصية على النص؟

٤. ما العوامل الإيمانية والمعرفية والتربوية التي تساعد على انتقال الهدايات

القرآنية من مستوى الفهم إلى مستوى السلوك؟

٥. كيف يمكن الإفادة من الآيات والأحاديث والتأملات التربوية في بناء منهج

عملي لصحبة القرآن، مع التمييز بين الدليل الشرعي والتطبيق التربوي

والاجتهاد الشخصي؟

٦. ما الوسائل التي تعين على استدامة الصلة بالقرآن في ظل مشاغل الحياة

وتغير أحوال الإنسان، وكيف يمكن تقويم هذه الصلة دون اختزالها في

مؤشرات كمية؟

٧. كيف تنعكس صحبة القرآن على علاقة الإنسان بنفسه وبربه وبالآخرين،

وعلى اختياراته الأخلاقية والاجتماعية؟

ولا يقصد الكتاب إلى تقديم وصفة واحدة تضمن تغيرًا فورًا لكل قارئ؛ فاستجابة الإنسان للهداية تتفاوت، والتربية الإيمانية لا تخضع لقوانين آلية تفضي إلى نتائج متماثلة. وإنما يسعى إلى بناء تصور علمي وتربوي يوضح عناصر الصحبة الراشدة، ويكشف مواطن الخلل المحتملة في العلاقة بالقرآن، ويقترح وسائل عملية تساعد على تعميق الانتفاع به. كما لا يهدف إلى المفاضلة بين أشكال العبادة على نحو يلغي بعضها، ولا إلى تحميل الآيات دلالات لا يثبتها التفسير المعتبر، بل إلى استكشاف السبل التي تجعل الممارسة التعبدية أكثر اتصالًا بمقصد الهداية، من غير إخلال بأحكامها أو تجاوز لحدود الفهم العلمي.

وتنبع قيمة هذه الإشكالية من أنها تصل بين سؤالين كثيرًا ما يُعالجان منفصلين: كيف نقرأ القرآن قراءة صحيحة؟ وكيف نعيش في ضوء ما يهديننا إليه؟ فالسؤال الأول يتصل بأداء التلاوة وضبطها، والثاني يتصل ببناء العلاقة المستمرة بالوحي واستحضار مقتضياته في الحياة. ولا يغني أحدهما عن الآخر؛ إذ لا يستقيم العمل بالقرآن مع الجهل بدلالته، كما أن المعرفة بدلالته لا تحقق جميع مقاصدها إذا بقيت منفصلة عن الاستجابة. ومن هنا، فإن معالجة الكتاب تتجه إلى وصل العلم بالتربية، والتدبر بالعمل، والتأثر بالممارسة، ضمن منهج يحفظ للنص القرآني مرجعيته، وللإنسان مسؤوليته في التعلم والمجاهدة والتطبيق.

رابعًا: منهج الكتاب في تناول الآيات والأحاديث والتأملات التربوية

يقوم هذا الكتاب على منهج يجمع بين التأصيل الشرعي والتحليل الموضوعي والتوجيه التربوي، مع مراعاة الفروق بين النصوص المؤسسة للأحكام، والنصوص التي تبين فضائل الأعمال ومقاصدها، والتأملات التي تستخلص منها معاني تربوية قابلة للتطبيق. والغاية من هذا الجمع ليست ضم الآيات والأحاديث إلى خواطر وعظمية متتابعة، بل بناء مسار استدلالي يوضح كيف تسهم النصوص الشرعية في تأسيس مفهوم صحبة القرآن، وكيف يمكن الاستفادة من دلالاتها في توجيه السلوك دون تجاوز حدودها.

١ الاستدلال بالقرآن الكريم

يمثل القرآن الكريم الأصل الأول في بناء التصور الذي يعرضه الكتاب؛ ولذلك سنُتناول الآيات في سياقاتها، مع مراعاة دلالة الألفاظ، والارتباط بين الآية وما قبلها وما بعدها، والموضوع الذي وردت فيه، وما يتصل به من آيات أخرى. ولن يُكتفى باقتطاع آية تتضمن لفظًا مناسبًا للموضوع ثم تحميلها جميع المعاني التربوية

المراد تقريرها، بل سُرّاعى الفرق بين دلالة النص المباشرة، وما يستفاد منه في ضوء السياق، وما يمكن أن يُستنبط منه على سبيل الاعتبار والتوجيه.

وسُيُستعان بتفاسير العلماء المعتبرة بحسب طبيعة المسألة، مع الإفادة من تنوع مناهجها في بيان اللغة والسياق وأسباب النزول والأحكام والهدايات. وعند اختلاف الأقوال، لن يُعرض الاختلاف لمجرد الاستيعاب، بل سيُذكر بقدر ما يؤثر في فهم المسألة محل البحث، مع التمييز بين القول المنقول والاجتهاد التحليلي الذي يقدمه الكتاب. وإذا تعذر التحقق من نسبة قول أو من دلالة استشهاد معين، فلن يُقدّم على أنه ثابت، بل يُترك أو يُصرح بحدود التحقق منه.

٢ الاستدلال بالسنة النبوية

تأتي السنة النبوية بياناً للقرآن وتطبيقاً عملياً له، ومصدرًا مهمًا في معرفة هدي النبي صلى الله عليه وسلم في التلاوة والتعلم والتدبر والعمل. ولذلك سُرّاعى في الاستشهاد بالأحاديث التحقق من ألفاظها ومصادرها ودرجاتها الحديثية بالرجوع إلى كتب السنة وشروحاتها ومصادر التخريج المناسبة. ولن يُكتفى بشيوع الحديث في الكتب الوعظية أو تداوله بين الناس دليلاً على ثبوته، كما لن تُنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم عبارة لم تثبت نسبتها إليه.

وسُرّاعى كذلك أن دلالة الحديث لا تُفهم دائماً بمعزل عن سياقه أو عن بقية النصوص ذات الصلة. فقد يرد الحديث في بيان فضيلة عمل، أو في توجيه تربوي، أو في تقرير حكم؛ ولكل مجال مقتضياته في الفهم والاستدلال. ومن ثم، سُميّز بين ما يدل عليه الحديث مباشرة، وما يستفاد منه استثنائاً أو اعتباراً، وما يحتاج إلى جمعه مع نصوص أخرى قبل تقرير نتيجة شرعية.

٣ الإفادة من أقوال العلماء والمصادر التراثية

سيستفيد الكتاب من جهود العلماء في التفسير وعلوم القرآن والحديث والتربية والسلوك، مع مراعاة اختصاص كل مصدر. فكتب التفسير يُرجع إليها في بيان معاني الآيات وأوجه دلالتها، وكتب الحديث وشروحه في تخريج الروايات وفهمها، وكتب علوم القرآن في المسائل المتعلقة بالتلاوة والتدبر وخصائص الخطاب القرآني، وكتب التربية والسلوك في تحليل العادات والآفات وسبل تزكية النفس، على ألا يُحمّل أي مصدر ما ليس من اختصاصه.

وعند نقل قول لعالم، سَيُفصل بين النص المنقول وبين تفسير الكتاب له أو تطبيقه على موضوع الصحبة. فليس كل ما يقوله المؤلف في التحليل رأياً منقولاً عن عالم، كما أن موافقة معنى تربوي لأصل شرعي لا تعني بالضرورة أن العالم الذي

قرر ذلك الأصل قد نص على التطبيق نفسه. وهذه التفرقة ضرورية لحفظ الأمانة العلمية، وتمكين القارئ من التمييز بين الدليل، وشرح الدليل، والاجتهاد في تنزيهه على واقع الإنسان.

4 التأمّلات التربوية وضوابطها

يمنح الكتاب التأمّلات التربوية مساحة معتبرة؛ لأنها تساعد على الانتقال من بيان المعنى إلى استحضار أثره في النفس والحياة. غير أن التأمل التربوي، مهما بلغت قيمته الوجدانية، لا يُجعل دليلاً مستقلاً على حكم شرعي، ولا يُقدّم بوصفه تفسيراً ملزماً للآية، ولا يُنسب إلى الوحي لمجرد أنه مستوحى من قراءته. بل سيُعرض باعتباره اجتهداً في الانتفاع بالهداية، يخضع للتقويم في ضوء المعنى الصحيح للنص، ومقاصده، والقواعد الشرعية العامة.

وعند تناول قيمة أخلاقية، مثل الصبر أو العفو أو الأمانة، لن يقتصر التحليل على الثناء عليها، بل سينظر في مقتضياتها العملية، والعوائق التي تحول دون تحقيقها، والتمييز بين صورها الصحيحة وما قد يلتبس بها. فالصبر، مثلاً، لا يعني الرضا بالظلم في جميع الأحوال، والعفو لا يقتضي إسقاط الحقوق في كل سياق، والتوكل لا يعني ترك الأسباب المشروعة. ومثل هذه الأمثلة تبين أن الانتفاع التربوي بالنص يحتاج إلى فهم يوازن بين دلالاته، ويراعي مجموع الأحكام والاعتبارات الشرعية، بدل تحويل القيمة إلى شعار منفصل عن شروط تطبيقها.

5 الربط بين النص والواقع

لن يُكتفى بعرض المعاني القرآنية في مستوى التجريد، بل سيُسعى إلى بيان صلتها بالمواقف اليومية، مثل إدارة الغضب، والتعامل مع الخلاف، والوفاء بالعهود، وضبط اللسان، وتحمل المسؤولية، ومراجعة النية، وأداء الحقوق. وستُستخدم الأمثلة التوضيحية بقدر ما يخدم الفكرة، مع تمييز المثال الافتراضي من الواقعة الحقيقية، وعدم بناء أحكام عامة على حالات جزئية لا تكفي لإثباتها. كما سيُراعى أن تطبيق الهدايات القرآنية على الواقع يتطلب معرفة بطبيعة الموقف وملابساته. فليس كل تشابه ظاهري بين حالتين يقتضي الحكم نفسه، ولا يصح نقل حكم خاص بسياق معين إلى جميع السياقات دون نظر. ولذلك سيُفصل، ما أمكن، بين الدلالة الشرعية الثابتة، والمبدأ الأخلاقي العام، والتقدير الاجتهادي الذي يتوقف على معرفة الوقائع. وإذا كانت المسألة تتطلب فتوى خاصة أو تخصصاً فقهياً دقيقاً، فلن يُستعاض عن ذلك بخاطرة تربوية عامة.

6. التوثيق والتحقق والمراجعة

سيراعى في الكتاب توثيق النصوص والاقتباسات والإحالات وفق نظام موحد، باستخدام الأرقام المتسلسلة في المتن، ومطابقتها للهوامش وقائمة المراجع. وستذكر بيانات المصادر بما يتناسب مع طبيعة كل مرجع، مع تجنب إثبات أرقام صفحات أو طبعات لم يتم التحقق منها. وعند تكرار المصدر، ستستخدم الإحالة المناسبة وفق نظام التوثيق المعتمد، مع عدم تكرار مدخله في قائمة المراجع النهائية.

وسيتضمن التوثيق المصادر المستخدمة فعلاً في بناء المادة العلمية، لا قائمة شكلية من الكتب التي لم يُرجع إليها. كما سيُفصل بين الاقتباس الحرفي والتلخيص بالمعنى، وتوضع النصوص المنقولة حرفياً بين علامتي التنصيص عند الاقتضاء، مع الإشارة إلى مصدرها. وستُراجع كل وحدة موضوعية للتأكد من سلامة الاستدلال، ودقة نسبة الأقوال، وعدم التناقض بين النتائج والأدلة، ومن أن التوصيات التربوية نابعة من المشكلات التي كشفها التحليل.

وبهذا المنهج، يسعى الكتاب إلى الجمع بين الوفاء للنص الشرعي، وعمق النظر في دلالاته، وواقعية التوجيه التربوي، دون أن يطغى جانب على آخر. فالتأصيل الذي لا يفضي إلى فهم واضح قد يبقى بعيداً عن حاجة القارئ، والتأمل الذي لا يستند إلى علم قد يضل أكثر مما يرشد، والتوجيه الذي لا يراعي طبيعة الحياة قد يصعب استمراره. والمطلوب هو بناء معرفة تعين على الفهم، وفهم يفتح باب التدبر، وتدبر يحفز على الاستجابة، في إطار منضبط يحفظ للقرآن مرجعيته ومكانته.

خامساً: خريطة الرحلة؛ من الاستعداد للتلقي إلى العمل بالقرآن

تقوم الرحلة التي يقترحها هذا الكتاب على تصور تدريجي لصحبة القرآن، يبدأ بتهيئة الإنسان للتلقي، ويمر ببناء الفهم والتدبر، ثم ينتقل إلى استحضار الهداية وممارستها في الحياة. وليس المقصود بهذا التدرج أن هذه المراحل منفصلة تماماً أو أن كل قارئ لا بد أن يمر بها وفق ترتيب جامد؛ بل هو ترتيب منهجي يساعد على تنظيم موضوعات الكتاب، وإظهار الصلات بينها، وتحديد وظيفة كل مرحلة في بناء العلاقة بالوحي.

المرحلة الأولى: الاستعداد للتلقي. تبدأ الصحبة من إدراك منزلة القرآن ومقصده، وتجديد النية، وتهيئة الوقت والقلب والذهن للقراءة والتعلم. ولا يعني الاستعداد اشتراط بلوغ حالة وجدانية مثالية قبل فتح المصحف، وإنما يعني الدخول إلى التلاوة بوعي بمكانة كلام الله تعالى، واستعداد للإنصات والتعلم والمراجعة. كما يشمل التعرف إلى الآداب التي تعين على الانتفاع، وتنظيم ورد مناسب، والحد من

المشتتات التي تضعف حضور الذهن. فالاستمرار في الصلة بالقرآن لا يقوم على الحماسة وحدها، بل يحتاج إلى ترتيب عملي يتناسب مع ظروف الإنسان وقدرته.

المرحلة الثانية: بناء الصلة بالتلاوة. في هذه المرحلة تتأكد قيمة التلاوة الصحيحة المنتظمة بوصفها أساسًا للملازمة. ويُعنى القارئ بتحسين أدائه وفق ما يتعلمه من أحكام القراءة، والمحافظة على نصيب مستمر من التلاوة، مع مراعاة التوازن بين الكم والكيف. ولا يراد بذلك فرض مقدار واحد على جميع القراء؛ فالقدرات والأوقات متفاوتة، والأصل بناء عادة يمكن الاستمرار عليها، مع تعظيم شأن التلاوة ذاتها بوصفها عبادة، لا مجرد وسيلة تمهيدية لما بعدها.

المرحلة الثالثة: الانتقال إلى الفهم. لا يمكن بناء تدبر راسخ على معانٍ مجهولة أو مفهومة على غير وجهها؛ لذلك يتجه القارئ إلى التعرف إلى معاني الآيات، والاستعانة بالتفسير الموثوق، والنظر في السياق والموضوع العام للسورة. وفي هذه المرحلة يتعلم التمييز بين المعنى الظاهر الذي تدل عليه الآية، والأقوال التفسيرية التي يذكرها العلماء، والمعاني التي تحتاج إلى مزيد من البحث. كما يتعلم أن السؤال عن معنى الآية ليس نقصًا في الصلة بالقرآن، بل هو من مقتضيات طلب العلم الذي يعين على حسن التلقي.

المرحلة الرابعة: ممارسة التدبر المنضبط. بعد تحصيل قدر مناسب من الفهم، ينتقل القارئ إلى التأمل في هدايات الآيات ومقاصدها، والنظر في صلتها بإيمانه وأخلاقه ومواقفه. ويساعده ذلك على طرح أسئلة تربوية منضبطة: ما الحقيقة التي تقررها الآية؟ وما السلوك الذي توجه إليه أو تنهى عنه؟ وما التصور الذي تصححه؟ وما الذي تكشفه لي عن نفسي ومسؤوليتي؟ ولا ينبغي أن تتحول هذه الأسئلة إلى قالب آلي يُفرض على كل آية؛ فبعض الآيات تتعلق بأحكام تفصيلية، وبعضها يعرض قصصًا وأمثالًا، وبعضها يقرر أصول الاعتقاد أو يذكر أحوال الآخرة، ولكل نوع منها ما يناسبه من وجوه النظر.

المرحلة الخامسة: تحويل الهداية إلى عمل. هنا ينتقل القارئ من إدراك المعنى إلى تحديد مقتضاه العملي، بحسب ما يدل عليه النص. وقد يكون العمل امتثال أمر، أو اجتناب نهى، أو أداء حق، أو تصحيح تصور، أو اكتساب خلق، أو مراجعة عادة. وتبرز أهمية هذه المرحلة في ربط التدبر بمسؤولية واضحة، دون تكلف في استخراج تطبيقات لا يدل عليها النص. كما تتطلب التمييز بين ما يجب على المسلم، وما يستحب له، وما يدخل في باب التوجيه العام؛ حتى تكون الاستجابة متفقة مع مراتب الخطاب الشرعي.

المرحلة السادسة: المراجعة والمحاسبة. لا يكفي أن يحدد الإنسان أثرًا عمليًا للآية ثم يتركه دون متابعة؛ إذ تحتاج العادات إلى مراجعة، والتغير إلى صبر، والاستجابة إلى تجديد. لذلك تتضمن الصحبة النظر في مدى التقدم نحو العمل المقصود، وتحديد العوائق التي حالت دون تحقيقه، والعودة إلى التعلم عند ظهور إشكال، والتوبة عند التقصير. ولا يراد بالمحاسبة تحويل الصلة بالقرآن إلى عبء نفسي قائم على الشعور الدائم بالفشل، بل بناء وعي متوازن يعترف بالتقصير، ويستثمره في الإصلاح، ولا يقطع الرجاء في رحمة الله تعالى.

المرحلة السابعة: الاستدامة وتوسيع أثر الصحبة. تنمو الصحبة حين تتحول من برنامج مؤقت إلى جزء مستقر من الحياة، يتكيف مع تغير الظروف دون أن يفقد أصله. كما يتسع أثرها حين تنعكس هدايات القرآن على العلاقات الأسرية والاجتماعية، وعلى الأمانة في العمل، والعدل في الحكم على الآخرين، والرحمة في التعامل، والوفاء بالمسؤوليات. ويقتضي ذلك أن يراجع الإنسان صلته بالقرآن على المدى الطويل، لا من حيث مقدار ما يقرأ فحسب، بل من حيث جودة فهمه، وصدقه في الاستجابة، وقدرته على استحضار الهداية في مواقف متنوعة.

وتتصل هذه المراحل بعضها ببعض في حركة متجددة؛ فالاستعداد يعين على التلاوة، والتلاوة تفتح باب الفهم، والفهم يؤسس للتدبر، والتدبر يوجه إلى العمل، والعمل يكشف عن مواطن تحتاج إلى مزيد من التعلم والمراجعة. وقد يعود القارئ إلى مرحلة سابقة كلما واجه معنى جديدًا أو موقفًا يحتاج إلى نظر أعمق، وهذا الرجوع ليس إخفاقًا في الرحلة، بل علامة على أن العلاقة بالقرآن تتطور مع اتساع المعرفة وتغير الخبرة.

ولكي تبقى هذه الخريطة ذات قيمة عملية، لا بد من الحذر من تحويلها إلى مؤشرات كمية جامدة. فعدد الصفحات المقروءة لا يكشف وحده عن جودة الفهم، وعدد الخواطر المكتوبة لا يثبت سلامة التدبر، وملاحظة تغير سلوكي واحد لا تكفي للحكم على اكتمال التزكية. وفي المقابل، لا يصح إهمال المؤشرات العملية تمامًا؛ إذ يمكن للقارئ أن يستفيد من متابعة انتظام التلاوة، واستكمال ما يحتاج إليه من تعلم، وتدوين بعض المعاني، واختيار تطبيقات واقعية مناسبة، ومراجعة أثرها من وقت إلى آخر. والمطلوب هو استخدام هذه الوسائل لخدمة الصحبة، لا تحويلها إلى غاية مستقلة عنها.

إن هذه الرحلة لا تنتهي عند بلوغ مرحلة محددة؛ لأن القرآن يظل مصدرًا متجددًا للهداية، ولأن حاجات الإنسان تتغير، ومعرفته تتسع، ومواقف الحياة تستدعي منه

وجوهًا متعددة من الفهم والاستجابة. فالمسلم الذي تعلم معنى من معاني الصبر قد يحتاج إلى استحضاره عند الشدة، والذي فهم قيمة العدل قد يختبر صدق فهمه عند تعارض العدل مع مصلحته الخاصة، والذي تدبر آيات التوبة قد يجد فيها ما يعينه على العودة بعد الخطأ. وهكذا تتجدد معاني الصحبة بحسب أحوال الإنسان، مع ثبات مرجعية الوحي وضوابط فهمه.

ومن ثم، فإن الغاية التي يتجه إليها الكتاب ليست صناعة قارئ يكثر من الحديث عن أثر القرآن بقدر ما يسعى إلى بناء علاقة صادقة به، يظهر فيها التلازم بين التعلم والتدبر والاستجابة. فليس كل تأثر عابر دليلاً على تغير مستقر، ولا كل تقصير عارض دليلاً على غياب الانتفاع، وإنما العبرة بمسار يتجدد فيه التلقي، ويصح فيه الفهم، وتراجع فيه النفس، ويجتهد الإنسان في العمل بما علمه الله من الهدى. وبذلك تصبح صحبة القرآن ممارسة إيمانية وتربوية ممتدة، يتعلم فيها الإنسان كيف يقرأ كتاب ربه، وكيف يفهم خطابه، وكيف يستنير به في قراراته وعلاقاته ومسؤولياته.

وإذا كان القرآن قد نزل هداية للناس، فإن صحبته الحققة تقتضي ألا تبقى الهداية معنى نتحدث عنه، بل أن تصبح مقصداً نسعى إليه، وميزاناً نراجع به أنفسنا، ومنهجاً نستعين به على إصلاح حياتنا. وهذا لا يتحقق بادعاء بلوغ الكمال، وإنما بالصدق في الطلب، والتواضع في التعلم، والاستمرار في التلاوة، والتثبت في الفهم، والمجاهدة في العمل، والرجوع إلى الله تعالى كلما ظهر التقصير. عندئذ تتجاوز العلاقة بالقرآن حدود اللقاء العابر، لتصبح صحبة متجددة يتعلم فيها القلب كيف يصغي، والعقل كيف يفهم، والإرادة كيف تستجيب، والحياة كيف تتجه نحو الهداية.

المبحث الأول: ما معنى أن تصحب القرآن؟

أولاً: الفرق بين الاختصار على التلاوة والتلقي الواعي

تحتل تلاوة القرآن الكريم منزلة عظيمة في حياة المسلم؛ فهي عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، وبها تتجدد الصلة بكلامه، وتأنس النفس بذكره، ويتصل القلب بمصدر هدايته. غير أن النظر في المقاصد الكبرى لنزول القرآن يكشف أن التلاوة، على عظيم قدرها، ليست الغاية الوحيدة من العلاقة بالكتاب العزيز، وإنما هي مدخل أصيل إلى فهمه وتدبره والاستجابة له. ومن هنا تبرز أهمية التمييز بين الاختصار على أداء ألفاظ القرآن، وبين تلقيه بوصفه خطاباً إلهياً يراد منه أن يهدي الإنسان في اعتقاده وعبادته وأخلاقه وسلوكه.

ولا يعني هذا التمييز التقليل من شأن التلاوة المجردة عن الفهم التفصيلي؛ إذ للتلاوة أجرها وفضلها، ولا يُشترط في كل قارئ أن يكون مفسراً أو متخصصاً في علوم الشريعة حتى ينتفع بالقرآن. وإنما المقصود أن تُستكمل فضيلة التلاوة بالسعي إلى فهم المعاني بحسب الاستطاعة، واستحضار مقاصد الخطاب، والنظر في مقتضياته العملية. فالخلل لا يكمن في أن يقرأ المسلم ما تيسر له من القرآن دون أن يحيط بجميع معانيه، وإنما يكمن في أن تتحول القراءة، مع مرور الزمن، إلى ممارسة منفصلة عن غايات الهداية والتغيير.

ويؤسس القرآن لهذا المعنى حين يربط نزوله بالتدبر والتذكر، فيقول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. فالآية لا تعرض التدبر باعتباره نشاطاً ذهنياً زائداً على صلة الإنسان بالقرآن، بل تربط به الانتفاع بآيات الكتاب والتذكر بما فيها من هداية. والتدبر هنا ليس مجرد التأثير العاطفي بالآيات، وإن كان التأثير الصادق من ثمراته، ولا هو استنباط معانٍ جديدة دون ضوابط علمية، وإنما هو إعمال الفكر في دلالات الآيات، والنظر في هداياتها، واستحضار ما تقتضيه من اعتقاد أو عبادة أو خلق أو موقف.

ويؤكد هذا المقصد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. فالاستفهام في الآية يثير سؤالاً يتجاوز مجرد وقوع القراءة إلى طبيعة الاستجابة للخطاب القرآني. وقد نبهت الآية إلى أن حجب القلب عن الانتفاع بالقرآن قد يكون مرتبطاً بإغلاق منافذ الاعتبار والفهم، لا بمجرد غياب الصوت الذي يتلو الآيات. وهذا لا يجيز الحكم على القلوب بمجرد ملاحظة سلوك أصحابها، ولكنه يدعو كل مسلم إلى مراجعة علاقته بالقرآن، والتساؤل عما إذا

كانت تلاوته تفتح له أبواب الفهم والاستجابة أم بقيت ممارسة لا يظهر أثرها في قراراته ومواقفه.

ومن هذا المنطلق، يمكن التمييز بين مستويين متكاملين في التعامل مع القرآن: المستوى الأول هو **التلاوة التعبدية**، التي يتحقق بها أداء عبادة القراءة، مع مراعاة أحكام التلاوة وآدابها، والحرص على الإخلاص والتعظيم. وهي أصل لا ينبغي الاستهانة به، ولا تعليق فضلها على تحقق فهم تفصيلي لكل آية.

أما المستوى الثاني فهو **التلقي الواعي**، الذي يتجاوز مجرد المرور على الألفاظ إلى محاولة فهم الخطاب القرآني في حدود المعرفة المتاحة، وربط دلالاته بأحوال النفس والواقع، ثم الاستجابة لما يقتضيه من عمل. وهذا المستوى لا ينفصل عن التلاوة، بل ينمو من خلالها ويتكامل معها.

وتظهر أهمية هذا التفريق في أن التلاوة والتدبر والعمل ليست مسارات متنافسة، وإنما حلقات متكاملة في علاقة المسلم بالقرآن. فالتلاوة تفتح باب الاتصال بالنص، والتدبر يعين على إدراك دلالاته ومقاصده، والعمل يجسد الاستجابة لما ثبتت دلالاته من هداياته. ومع ذلك، لا يلزم أن تتحقق هذه المراحل في كل جلسة قراءة على صورة مكتملة؛ فقد يقرأ المسلم للتعبد، وقد يخصص وقتًا للتفسير والتأمل، وقد يستحضر في موقف عملي آية سبق له أن فهم معناها. والعبرة باستمرار الصلة وتكامل وظائفها، لا بافتراض صورة واحدة جامدة للانتفاع.

ويكشف هذا التصور عن إشكال تربوي مهم: فقد يعتني المرء بمقدار ما يقرأ، ويحرص على انتظام ورده، لكنه لا يمنح نفسه وقتًا لفهم المعاني أو مراجعة السلوك في ضوءها. وفي المقابل، قد ينشغل آخر بالبحث عن المعاني والتأملات، لكنه لا يحافظ على أصل التلاوة والارتباط اليومي بالقرآن. وكلا المسلكين يفوت جانبًا من كمال العلاقة بالكتاب العزيز، وإن اختلف موضع النقص في كل منهما.

ولا يصح، في هذا السياق، اتخاذ الأثر السلوكي الفوري معيارًا وحيدًا للحكم على قيمة التلاوة؛ فالهداية قد تتراكم آثارها بمرور الزمن، وقد يحتاج الإنسان إلى تكرار القراءة والتعلم والمجاهدة حتى يستقر المعنى في قلبه ويظهر في سلوكه. كما أن تفاوت الناس في الفهم والاستعداد والظروف يجعل آثار الانتفاع متفاوتة. لكن هذا التفاوت لا يبرر فصل التلاوة عن مقصد العمل، بل يدعو إلى اعتماد منهج تربوي واقعي، يربط كلاً من القراءة والفهم والممارسة بالآخر، ويقيس التقدم بصدق السعي واستمرار المراجعة، لا بادعاء بلوغ الكمال.

وعليه، فإن الانتقال من الاقتصار على التلاوة إلى التلقي الواعي لا يعني الانتقال من عبادة إلى أخرى، ولا استبدال القراءة بالتأمل، وإنما يعني ترقية العلاقة بالقرآن من أداء منفصل عن بقية جوانب الحياة إلى صلة متكاملة تتفاعل فيها العبادة والمعرفة والتزكية والعمل. وهذه هي الخطوة الأولى في بناء مفهوم صحبة القرآن؛ لأن الصحبة، في معناها التربوي، لا تتحقق بمجرد اللقاء العابر، بل تنمو بالاستمرار وحسن التلقي والاستجابة.

ثانيًا: القرآن كتاب هداية وتذكير وتربية

إن فهم معنى صحبة القرآن يقتضي النظر في طبيعة الكتاب الذي تصحبه النفس، وفي الغايات التي أعلنها الوحي لنزوله. فالقرآن الكريم ليس كتابًا للتلاوة التعبدية فحسب، ولا مادة معرفية يُكتفى بجمع المعلومات المتعلقة بها، وإنما هو وحي من الله تعالى يرشد الإنسان إلى الحق، ويذكره بمسؤوليته ومصيره، ويربي فيه معاني الإيمان والاستقامة ومحاسن الأخلاق.

وقد صرح القرآن بمقصد الهداية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وتدل الآية على أن من وظائف القرآن الدلالة على الطريق الأقوم، بما يحقق صلاح الإنسان في علاقته بربه ونفسه والآخرين. والهداية هنا ليست مجرد تقديم معلومات عن الخير والشر، وإنما بيان الطريق الذي ينبغي سلوكه، وتأسيس الموازين التي يميز بها الإنسان بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والصلاح والفساد.

ويترتب على ذلك أن صحبة القرآن تستلزم إعادة النظر في مصادر التوجيه التي يعتمدها الإنسان عند اتخاذ قراراته. فالمرء قد يعرف بعض الأحكام الشرعية، لكنه حين يواجه ضغط المصلحة أو العادة أو الرغبة يحتاج إلى مرجعية تضبط اختياراته وتعينه على تقديم الحق على الهوى. وتأتي الهداية القرآنية لتؤسس هذا الميزان، لا بإلغاء العقل أو تعطيل النظر في الواقع، وإنما بتوجيههما ضمن منظومة من القيم والمبادئ المستمدة من الوحي.

ويظهر هذا المعنى كذلك في وصف القرآن بأنه هدى للمتقين، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. ولا ينبغي أن يفهم تخصيص المتقين بالهداية على أن القرآن لا يخاطب غيرهم أو أن الانتفاع به محصور في فئة بلغت كمال التقوى؛ فالقرآن كتاب هداية للناس، كما في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وإنما تشير الآيات إلى أن الانتفاع بالهداية يتصل

باستعداد الإنسان للقبول والاستجابة، وأن التقوى ليست مجرد نتيجة نهائية للصحة، بل هي أيضًا استعداد عملي يساعد على حسن تلقي الوحي. فالقرآن يعرض الطريق، ويقيم الحجة، ويوقظ الفطرة، ويكشف للإنسان مواقع الخلل في اعتقاده وسلوكه؛ لكن الانتفاع بهذه الوظائف يتطلب من المتلقي صدق الطلب، والاستعداد لمراجعة نفسه، وعدم جعل الرغبات السابقة حاكمًا على دلالات النصوص. ومن هنا، فإن صحة القرآن ليست مجرد ملازمة زمنية للقراءة، بل هي علاقة تتضمن قدرًا من الانفتاح على الهداية والاستعداد لتغيير المواقف حين يظهر الحق.

وإلى جانب الهداية، يؤدي القرآن وظيفة التذكير، وهي وظيفة تتصل بطبيعة الإنسان الذي يعتريه النسيان والغفلة، وتضعف همته، وتتنازع مشاغل الحياة. قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. والتذكير القرآني لا يقتصر على إعادة المعلومات المعروفة، بل يعيد ترتيب حضورها في الوعي، وينقلها من المعرفة البعيدة إلى المعنى الحاضر الذي يؤثر في الاختيار. فالإنسان قد يعلم أن الدنيا زائلة، لكنه يتصرف أحيانًا تحت تأثير شعور مبالغ فيه بالخلود أو التعلق بالمكاسب العاجلة. وقد يعرف وجوب العدل، لكنه يميل عند الخصومة إلى نصره نفسه أو جماعته. وقد يدرك أهمية الصبر، لكنه يستسلم للجزع عند الشدائد. وفي هذه المواضع تظهر قيمة التذكير القرآني؛ إذ يعيد المعاني الكبرى إلى مركز الوعي، ويكشف التناقض بين ما يؤمن به الإنسان وما يمارسه فعليًا.

غير أن التذكير لا يحقق غايته بمجرد سماع الموعظة أو التأثر اللحظي بها؛ فالتأثر الذي لا يتبعه استحضار مستمر أو مراجعة للسلوك قد يضعف سريعًا تحت ضغط العادات والظروف. ولذلك تحتاج صحة القرآن إلى انتظام يعيد المعاني إلى الوعي، وإلى ممارسات تساعد على تثبيتها، مثل مراجعة النفس، واستحضار الآيات المناسبة للمواقف، ومحاسبة السلوك في ضوء المبادئ التي قررها الوحي.

أما الوظيفة التربوية للقرآن فتتجلى في بنائه المتدرج للإنسان، من خلال تصحيح التصورات، وتقويم الإرادة، وتهذيب الأخلاق، وتوجيه السلوك. فالتربية القرآنية لا تختزل في تقديم أوامر ونواهٍ منفصلة، بل تشمل بناء الإيمان، وتعميق الشعور بالمسؤولية، وتنمية فضائل الصبر والشكر والرحمة والصدق والأمانة، والتحذير من آفات الكبر والحسد والظلم والرياء.

ويكشف تنوع الخطاب القرآني عن هذا البعد التربوي؛ ففيه القصص التي تعرض مواقف البشر وعواقب أفعالهم، والأمثال التي تقرب المعاني، والأوامر والنواهي التي تضبط العمل، والوعد والوعيد اللذان يوقظان الرجاء والخوف، والحوار الذي يواجه الشبهات ويقيم الحجة، والتوجيهات التي تعالج أحوال الفرد والأسرة والمجتمع. وهذا التنوع ليس مجرد تنوع أسلوب، بل يتيح معالجة جوانب مختلفة من تكوين الإنسان، بما يجعل صحبة القرآن مشروعًا متكاملًا للتربية والتوجيه.

ومن النماذج الدالة على ذلك قوله تعالى في سياق الحديث عن الوصايا الأخلاقية والاجتماعية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. فالآية لا تقدم نهائيًا مجردًا عن سلوك ظاهر، بل تربط التوجيه الأخلاقي بتصحيح التصور الذي يغذي الكبر والغرور، وتذكر الإنسان بحدود قدرته. وهكذا يجتمع في الخطاب القرآني تقويم السلوك وإصلاح ما وراءه من تصورات ودوافع.

ويتأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (سورة الشمس: ٩-١٠). فالآيتان تبرزان مركزية تركية النفس في الفلاح الإنساني، وتدعوان إلى النظر في الأعمال التي تنمي الخير في النفس، وفي العوامل التي تطمس استعدادها للاستقامة. ومن هذا المنطلق، تصبح صحبة القرآن مجالًا لمراجعة البواعث الداخلية، لا مجرد مراقبة المظاهر الخارجية؛ إذ لا يكفي أن يتجنب المرء بعض الأفعال المحرمة إذا ظل يغذي في نفسه دوافع الظلم أو الاستعلاء أو الحسد، كما لا يصح اختزال صلاح القلب في دعوى باطنية لا تظهر آثارها في العمل.

ومع ذلك، فإن وصف القرآن بأنه كتاب تربية لا يعني أن كل تأمل شخصي فيه يصلح أن يكون حكمًا شرعيًا، أو أن كل معنى يستحضره القارئ يمثل تفسيرًا معتبرًا للآية. فالتربية المستندة إلى القرآن تحتاج إلى فهم صحيح لدلالاته، وتمييز بين المعنى التفسيري الذي تدل عليه الآية، والاستنباط الذي يقوم على قواعد معتبرة، والتأمل الشخصي الذي يستفيد من النص دون أن يدعي أنه المعنى الحصري أو المراد القطعي منه. وهذا التمييز يحفظ للقرآن مكانته، ويمنع تحويله إلى مساحة لإسقاط الأفكار المسبقة أو تسويق الرغبات الشخصية.

وبذلك تتكامل وظائف الهداية والتذكير والتربية: فالهداية تحدد الوجهة، والتذكير يجدد حضورها في الوعي، والتربية تنقل معانيها إلى بناء الإنسان وتكوين عاداته ومواقفه. ولا تنفصل هذه الوظائف بعضها عن بعض؛ لأن الهداية التي لا تستقر في

الوعي معرضة للغياب، والتذكير الذي لا يثمر تزكية قد يبقى أثره مؤقتًا، والتربية التي تنفصل عن هداية الوحي تفقد مرجعيتها الشرعية. ومن هنا، فإن صحبة القرآن هي سعي مستمر إلى الانتفاع بهذه الوظائف مجتمعة، بحسب الاستطاعة، وفي ضوء الفهم الصحيح للنص.

ثالثًا: الصحبة بوصفها علاقة مستمرة بالتلاوة والفهم والعمل

يُستخدم مفهوم الصحبة في اللغة للدلالة على المعاشرة والملازمة، وما ينشأ عنهما من اتصال يتجاوز اللقاء العابر. وعندما يُستخدم هذا المفهوم في الحديث عن القرآن، فإنه يعبر عن علاقة متجددة بالكتاب العزيز، تقوم على الاستمرار في تلاوته، وطلب فهمه، والتفاعل مع هداياته، والعمل بما يقتضيه العلم الصحيح بدلالاته.

ومع ذلك، ينبغي التمييز بين المعنى اللغوي للصحبة وبين استعمالها بوصفها مفهومًا تربويًا. فعبارة «صحبة القرآن» ليست مصطلحًا شرعيًا محددًا بحد جامع مانع في نص واحد، وإنما هي تعبير تربوي يُستعمل للدلالة على جملة من المعاني التي تؤيدها نصوص الوحي في شأن التلاوة والتدبر والتذكر والعمل. ومن ثم، فإن ضبط هذا المفهوم ينبغي أن يكون من خلال مقاصده ومكوناته، لا بمجرد تحميل لفظ الصحبة دلالات اصطلاحية لم يثبت ورودها على هذا النحو في النصوص.

وتتأسس صحبة القرآن، في هذا التصور، على أربعة مكونات مترابطة:

المكون الأول: الملازمة التعبدية. وتتمثل في المحافظة على نصيب منتظم من تلاوة القرآن، مع مراعاة أحكام القراءة وآدابها. وتكمن أهميتها في إبقاء الصلة بالنص حاضرة في الحياة اليومية، بحيث لا يصبح القرآن كتابًا يُفتح في المناسبات فحسب، وإنما رفيقًا دائم الحضور في أوقات العبادة والتأمل. ولا تتوقف قيمة هذه الملازمة على كثرة المقدار وحدها؛ إذ قد يكون الورد القليل المنتظم أنفع في بناء العادة والاستمرار من مقدار كبير ينقطع بعد فترة قصيرة.

ويشهد لأصل المداومة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» (١). والحديث في صحيح مسلم، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، حديث رقم ٧٨٣ بحسب الترتيم المشهور. وهو وإن ورد في سياق الأعمال عمومًا، فإن معناه يفيد في بناء العادات التعبدية، ومنها تنظيم الصلة بالقرآن، دون أن يعني أن القليل أفضل في كل حال من الكثير، أو أن المقدار لا أهمية له مطلقًا؛ بل المقصود إبراز قيمة الاستمرار وعدم الانقطاع.

المكون الثاني: الفهم والتدبر. فلا تكتمل صورة الصحبة التربوية بمجرد تكرار الألفاظ دون عناية بالمعاني. ويتحقق هذا المكون بالرجوع إلى كتب التفسير الموثوقة، والتعرف على سياق الآيات ودلالاتها، والنظر في وجوه الهداية التي تتضمنها. ولا يشترط أن يحيط القارئ بكل ما يتعلق بالآية من مباحث لغوية أو فقهية أو عقدية؛ وإنما المطلوب أن يتعلم ما يحتاج إليه لفهم الخطاب على وجه صحيح، وأن يميز بين ما يعلمه وما يجهله، وأن يرجع إلى أهل العلم فيما أشكل عليه.

ويقتضي هذا المكون كذلك التحرر من تصور يجعل التدبر مرادفًا للتفسير المستقل. فالتدبر أوسع من الاستنباط المتخصص من جهة إمكان مشاركة عموم القراء في الاعتبار والانتفاع، لكنه ليس منفصلًا عن التفسير الصحيح ولا مستغنيًا عنه. وقد يتدبر القارئ آية فيجد فيها تذكيرًا بالصبر أو الأمانة أو التوبة، غير أن ذلك لا يبيح له أن ينسب إلى الآية حكمًا لم تدل عليه، أو أن يجزم بمعنى شرعي يحتاج إلى أدوات علمية لا يملكها.

المكون الثالث: الاستجابة العملية. وهو المكون الذي تظهر فيه آثار الصحبة في حياة الإنسان؛ إذ تتحول المعاني التي فهمها إلى قرارات وسلوكيات ومواقف. فمن قرأ آيات العدل، كان من مقتضى انتفاعه بها أن يراجع طريقته في الحكم بين الناس، ومن تدبر آيات حفظ اللسان، سعى إلى ضبط كلامه، ومن قرأ في فضل العفو والإحسان، نظر في علاقاته وخصوماته، ومن استحضر آيات الأمانة، راجع أداءه لمسؤولياته وحقوق الآخرين.

ولا تعني الاستجابة العملية أن تتحول كل جلسة قراءة إلى قائمة إلزامية من الأعمال، أو أن يختزل القرآن في برنامج لتطوير الذات منفصل عن مقاصده التعبدية والإيمانية. وإنما تعني أن يبقى العمل حاضرًا ضمن الغاية العامة من التلقي، وأن يسعى المسلم إلى تطبيق ما فهمه على وجه صحيح، مع مراعاة مراتب الأحكام الشرعية، والتميز بين الواجب والمندوب، وبين الحكم العام والحالات التي تحتاج إلى تفصيل.

وتظهر أهمية هذا الضبط في أن بعض التأملات قد تدفع القارئ إلى استنتاجات متعجلة، فيحمل نفسه أو غيره ما لم يوجبه الشرع، أو يتعامل مع كل معنى مؤثر باعتباره تكليفًا مباشرًا. والصحيح أن الاستجابة للقرآن لا تكون بالاندفاع غير المنضبط، بل بالعلم والبصيرة، وبالرجوع إلى الأحكام الشرعية الثابتة، وفهم حدود التكليف، ومراعاة القدرة والاستطاعة.

المكون الرابع: المراجعة والمحاسبة. فالصحبة المستمرة تقتضي أن يعود الإنسان إلى نفسه، وأن ينظر في مدى اقتراب سلوكه من الهدايات التي تعلمها. وهذه المراجعة ليست حكمًا نهائيًا على صلاح النفس أو فسادها، بل وسيلة تربوية لكشف مواضع التقصير، وتجديد التوبة، وتصحيح المسار. وقد يكتشف المرء أنه يفهم قيمة الصبر لكنه يضعف عند الغضب، أو يعرف فضل الصدق لكنه يتساهل في بعض المواقف، أو يقرأ في حقوق الآخرين لكنه يغفل عنها حين تتعارض مع مصلحته. وتتيح المحاسبة تحويل هذه الملاحظات من شعور عابر بالذنب إلى خطوات عملية للتحسن.

ومن الخطأ أن تُفهم المحاسبة على أنها مطالبة بالكمال أو وسيلة لإثقال النفس باللوم المستمر؛ فالتربية القرآنية تجمع بين المسؤولية والرجاء، وبين الاعتراف بالتقصير والعمل على إصلاحه. والمقصود أن يصبح القرآن مرجعًا يراجع الإنسان في ضوئه نفسه، لا أداة يتخذها لإدانة الآخرين أو تصنيفهم، ولا وسيلة لتبرير أخطائه بتأويلات لا يسندها النص.

وتتضح وحدة هذه المكونات عند النظر إليها في سياق واحد. فالملازمة تحفظ استمرار الاتصال، والفهم يضبط إدراك المعاني، والعمل يجسد الاستجابة، والمحاسبة تتابع أثرها وتصحح مسارها. وإذا اختل أحد هذه المكونات، أمكن أن تظهر فجوة في العلاقة بالقرآن: فقد تستمر التلاوة دون تقدم في الفهم، أو يتسع الاطلاع على المعاني دون تغير في السلوك، أو يتحمس الإنسان للتطبيق دون تحقق من صحة فهمه، أو ينجز أعمالًا صالحة ثم يغفل عن مراجعة النية والاستمرار.

ومن هنا، لا تُقاس صحبة القرآن بمؤشر واحد؛ فلا عدد الصفحات وحده يكفي للحكم على عمق الانتفاع، ولا كثرة المعلومات وحدها، ولا المشاعر التي ترافق القراءة، ولا ادعاء الالتزام العملي. وإنما ينظر إلى تكامل هذه الجوانب، مع مراعاة تفاوت الأحوال والقدرات، وإدراك أن بناء الإنسان عملية ممتدة لا تتحقق دفعة واحدة.

كما أن الصحبة لا تعني أن القارئ سيشعر دائمًا بالخشوع نفسه، أو سيجد في كل جلسة معنى جديدًا، أو ستظهر آثار القراءة في سلوكه على الفور. فالمشاعر تتقلب، والفهم ينمو بالتعلم، والعادات تحتاج إلى زمن حتى تتغير. ولذلك تقوم الصحبة الراسخة على الوفاء للعلاقة بالقرآن في أوقات النشاط والفتور، وعلى مواصلة التعلم والعمل، بدل ربط الاستمرار بحالة وجدانية مؤقتة.

ويمكن، بناء على ذلك، تعريف صحبة القرآن بأنها: علاقة إيمانية وتربوية مستمرة بكلام الله تعالى، تقوم على تلاوته وتعظيمه، وطلب فهمه وتدبره وفق أصول العلم، والاستجابة له بالعمل، ومراجعة النفس في ضوء هداياته.

ويجمع هذا التعريف بين الجانب التعبدي والجانب المعرفي والجانب العملي، دون أن يجعل أحدها بديلاً عن الآخر، أو يدعي أن الصحبة مفهوم شرعي اصطلاحي مستقل عن النصوص التي تؤصل لمكوناته. وهو تعريف إجرائي يخدم موضوع الكتاب، ويتيح الانتقال من الحديث العام عن فضل القرآن إلى البحث في الوسائل التي تجعل العلاقة به أكثر وعياً واستمراراً وأثراً.

رابعاً: الصحابة والاقتداء بهديهم في تلقي القرآن والعمل به

يمثل الجيل الأول الذي تلقى القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً مهماً في دراسة العلاقة بين الوحي والتكوين الإنساني؛ فقد عاش الصحابة رضي الله عنهم نزول القرآن في سياقات متجددة، وشهدوا بيان النبي صلى الله عليه وسلم لمعانيه، وتعلموا منه كيفية الاستجابة لأحكامه وتوجيهاته. ولذلك فإن النظر في منهجهم لا ينبغي أن يقتصر على نقل أخبار فضائلهم، بل يتجه إلى استكشاف الملامح المنهجية التي تكشفها النصوص الصحيحة عن تلقيهم القرآن وتعلمهم إياه والعمل به.

ويقتضي هذا النظر قدرًا من الاحتراز العلمي؛ فلا يصح تعميم وصف واحد على جميع الصحابة في كل مراحل حياتهم، ولا افتراض أنهم كانوا متساوين في مقدار الحفظ والفهم أو في ظروف التعلم والعمل. فقد تفاوتت أحوالهم، وتنوعت مسؤولياتهم، واختلفت مواقعهم من الوقائع التي نزلت فيها الآيات. غير أن النصوص الواردة في فضلهم، وفي طريقة تعليمهم القرآن وتلقيه، تكشف عن أصول يمكن الاستفادة منها في بناء منهج تربوي معاصر، مع مراعاة اختلاف السياقات والظروف.

ومن أبرز هذه الأصول ارتباط التعلم بالعمل. فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن الصحابة كانوا يتعلمون من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات، فلا يتجاوزونها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قال: «فتعلمنا العلم والعمل جميعاً» (٢). أخرجه أحمد في المسند ضمن روايات أصحاب عبد الله بن مسعود، وروي معناه في مصادر أخرى. وينبغي عند إعداد طبعة موثقة نهائياً مراجعة موضع الرواية ولفظها وإسنادها في الطبعة المعتمدة من المسند، وعدم الاكتفاء بتداولها في كتب الوعظ دون تحقيق.

وتكشف دلالة هذا الأثر، على فرض ثبوت لفظه وإسناده وفق التحقيق الحديثي المعتمد، عن منهج تعليمي يرفض الفصل التام بين المعرفة والسلوك. فالتعلم لم يكن مجرد حفظ لمعلومات منفصلة عن مقتضياتها، بل اقترن بما تقتضيه الآيات من فهم وعمل. وهذا لا يعني أن الصحابة كانوا لا ينتقلون إلى آيات أخرى حتى يحقق كل واحد منهم جميع ما تتضمنه الآيات السابقة من أعمال على الوجه الأكمل؛ فمثل هذا التعميم يحتاج إلى دليل مستقل. وإنما يفيد الأثر أن الجمع بين العلم والعمل كان مبدأً معتبراً في طريقة التلقي، وأن فهم النص لم يكن غاية منفصلة عن الاستجابة له.

ومن الناحية التربوية، يبرز هذا المبدأ أهمية تقليل الفجوة بين التعلم والممارسة. فقد يتلقى الإنسان قدرًا كبيرًا من المعلومات الدينية، لكنه يؤجل العمل بها إلى وقت غير محدد، فتتراكم المعرفة دون أن تتحول إلى سلوك. أما المنهج الذي يربط التعلم بالعمل، فيدعو إلى أن يصاحب اكتساب المعنى سؤالٌ عن مقتضاه العملي، مع مراعاة أن بعض المعاني يحتاج إلى زمن طويل حتى يظهر أثرها، وأن بعض الأحكام لا يتبين وجه تطبيقها إلا بالرجوع إلى العلم المتخصص.

ومن الأصول المهمة كذلك تلقي القرآن من خلال البيان النبوي. فالقرآن نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان هو المبلغ له والمبين لمعانيه، وقد أمر الله تعالى بطاعته واتباعه. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. وتؤسس الآية لأهمية البيان النبوي في فهم الوحي؛ إذ لا يستقل القارئ عن السنة الصحيحة في المواضيع التي تبين فيها السنة مجمل القرآن، أو تخصص عامه، أو تقيده مطلقه، أو توضح كيفية امتثال أحكامه.

ويترتب على ذلك أن الاقتداء بالصحابة في تلقي القرآن لا يعني الاكتفاء بالقراءة الفردية للآيات بمعزل عن علوم التفسير والسنة، بل يقتضي استحضار المنهج الذي تلقوا به الوحي من النبي صلى الله عليه وسلم. وفي واقعنا المعاصر، يمكن تحقيق هذا المعنى بالرجوع إلى التفاسير المعتمدة، والتحقق من صحة الأحاديث، وسؤال أهل العلم عند الإشكال، والتمييز بين المعنى الذي يقرره النص وبين الخواطر التي تثيرها القراءة في نفس القارئ.

ويظهر أصل ثالث في الاستجابة العملية للقرآن بحسب ما يقتضيه من أحكام ومواقف. فقد وصف القرآن المؤمنين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. وتقرر الآية مبدأ الاستجابة لحكم الله ورسوله، وتكشف عن أن الإيمان لا ينفصل عن

موقف الإنسان من الحق حين يتبين له. غير أن الاستجابة الشرعية لا تعني إلغاء النظر في دلالات الأدلة أو تعطيل الاجتهاد في المسائل التي تحتمل الاجتهاد؛ بل تعني التسليم للوحي الثابت، مع بذل الوسع في فهمه وتنزيله على الوقائع وفق القواعد المعتمدة.

ومن ثم، فإن الاقتداء بهدي الصحابة لا يتحقق باستحضار صورتهم التاريخية فحسب، وإنما باستلهاهم أصول منهجهم في التعامل مع الوحي: التعلم عن مصدره الصحيح، والجمع بين المعرفة والعمل، وتعظيم النص، والرجوع إلى البيان النبوي، والاستعداد للاستجابة لما يظهر من الحق. وهذه الأصول أقدر على الانتقال إلى الواقع المعاصر من محاكاة صور جزئية من حياة الصحابة دون مراعاة اختلاف الأحوال أو فهم السياق الذي وردت فيه الروايات.

ويبرز في هذا المقام أيضًا أثر التدرج في بناء المعرفة والالتزام. فقد نزل القرآن منجمًا على مدى سنوات، يعالج الوقائع، ويثبت المؤمنين، ويصحح التصورات، ويشعر الأحكام وفق الحكمة الإلهية. ويكشف هذا التدرج عن أهمية مراعاة أحوال المتلقي ومراحل تكوينه، دون أن يعني ذلك أن كل فرد يستطيع أن يختار من الأحكام ما يشاء أو يؤجل ما وجب عليه بلا عذر. فالتدرج التربوي يتعلق بطريقة التعلم وبناء العادات والاستعدادات، أما الالتزام بالأحكام الشرعية فيخضع لما تقرره الأدلة من تكليف وقدرة وأعذار معتبرة.

ويمكن الإفادة من هذا الأصل في تنظيم برامج تعليم القرآن؛ بحيث لا يقتصر التعليم على الحفظ أو شرح المفردات، بل يضم قدرًا مناسبًا من فهم المعاني، وربطها بالمقاصد الشرعية، والتدريب على الاستجابة العملية. كما ينبغي أن تتناسب المادة المقدمة مع مستوى المتعلم، وأن تتدرج من المعاني الواضحة إلى المسائل الأكثر تعقيدًا، مع إحالة المسائل العلمية المتخصصة إلى أهلها.

ولا ينبغي أن يؤدي استحضار تجربة الصحابة إلى بناء صورة مثالية مجردة تُستخدم للمقارنة المحبطة مع واقع المسلمين اليوم. فالمقصود من الاقتداء هو التعلم من الأصول التي دل عليها الوحي والسنة الصحيحة والسيرة الثابتة، ثم تحويلها إلى ممارسات ممكنة في واقع الناس. وإذا كانت البيئة المعاصرة تختلف في كثافة المعلومات، وتسارع الأحداث، وتعدد مصادر التوجيه، فإن الحاجة إلى المنهج المنضبط في التلقي تزداد، ولا تنتفي.

ومن هنا، تتحدد القيمة العملية للاقتداء بالصحابة في الانتقال من تمجيد النموذج إلى الإفادة المنهجية منه: أن يتعلم المسلم القرآن على بصيرة، وألا يفصل المعرفة

عن العمل، وأن يرجع إلى السنة الصحيحة في فهم الوحي، وأن يجعل الاستجابة للحق معيارًا في مراجعة نفسه، وأن يدرك أن التغيير التربوي يحتاج إلى استمرار وصبر ومحاسبة.

الهوامش

(1) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، حديث رقم ٧٨٣ بحسب الترتيب المشهور. ينبغي اعتماد رقم الحديث وبيانات الطبعة عند إعداد النسخة النهائية وفق الطبعة التي ستُعتمد في قائمة المراجع.

(2) أحمد بن حنبل، المسند، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. يُراجع موضع الرواية ولفظها وإسنادها في الطبعة المعتمدة من المسند قبل تثبيت الإحالة النهائية؛ إذ لا يصح الجزم ببيانات الجزء والصفحة أو الحكم على الإسناد دون مقابلة المصدر.

المبحث الثاني: تهيئة القلب للتلقي

المطلب الأول: النية والإخلاص في قراءة القرآن

لا تبدأ صحبة القرآن من حركة اللسان فحسب، وإنما تبدأ من الوجهة التي يتجه بها القلب إلى كلام الله تعالى، والغاية التي يقصدها القارئ من تلاوته. فالقراءة، وإن كانت في صورتها الظاهرة فعلاً تعبدياً تؤجر عليه النفس، تتفاوت آثارها في حياة الإنسان بحسب ما يصحبها من إخلاص وصدق في الطلب واستعداد للانتفاع بالهداية. ومن هنا، فإن النية ليست عنصراً ثانوياً يضاف إلى التلاوة بعد تحققها، بل هي أساس يحدد وجهتها، ويضبط مقصدها، ويوجه أثرها في الاعتقاد والسلوك والعمل.

وقد قرر القرآن الكريم أن العبادة لا تستقيم على وجهها الكامل إلا بإخلاص القصد لله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (البينة: ٥). ويدخل في عموم هذا الأصل التعبدية قراءة القرآن؛ إذ لا تنفصل التلاوة عن كونها عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه، ويطلب من خلالها رضاه وهدايته. ويؤكد ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» (١). فالنية هي التي تكشف عن حقيقة الوجهة الباطنة للعمل، وتمنحه معناه المقصود، مع بقاء الحكم على العمل الظاهر مرتبطاً بشروطه وأحكامه الشرعية.

ولا يعني ذلك أن كل تفاوت في أثر القراءة مردّه إلى النية وحدها؛ إذ يتأثر الانتفاع بالقرآن كذلك بمقدار الفهم، ودرجة الانتباه، والاستعداد النفسي، ومدى تحويل المعاني إلى مواقف عملية. وإنما المقصود أن الإخلاص يؤسس العلاقة الصحيحة بالقرآن، ويحول دون اختزالها في أغراض لا تتصل بمقصود التعبد والهداية. وتظهر أهمية الإخلاص بوضوح حين تتعدد الدوافع التي قد تصاحب قراءة القرآن. فقد يقرأ الإنسان طلباً للأجر والثواب، أو رجاءً للشفاء والسكينة، أو رغبة في تعلم الأحكام وفهم الدين، أو استعداداً للعمل بما يتعلمه. وهذه المقاصد لا تتعارض في أصلها إذا انتظمت في إطار التعبد لله تعالى وطلب مرضاته. غير أن الخلل يظهر حين تصبح التلاوة وسيلة إلى تحصيل المكانة الاجتماعية، أو إظهار التفوق على الآخرين، أو اكتساب السمعة الدينية دون عناية بإصلاح النفس. فحينئذ قد تنفصل الصورة الظاهرة للعمل عن غايته التعبدية، ويصبح الاهتمام منصباً على ما يراه الناس أكثر من انصبابه على ما يريده الله تعالى من عباده.

وفي هذا السياق، ينبغي التمييز بين العناية بحسن الأداء والتجويد وضبط التلاوة، وهي أمور معتبرة في تعلم القرآن وتعظيمه، وبين اتخاذ الإتقان الصوتي غاية مستقلة تنفصل عن مقاصد القراءة. فحسن الصوت وضبط المخارج وتحسين الأداء وسائل مشروعة للتلاوة الصحيحة، لكن كمال الصلة بالقرآن لا يقاس بهذه الجوانب وحدها؛ لأن القرآن لم ينزل ليكون موضوعاً للإتقان اللفظي المجرد، بل ليكون كتاب هداية يتلقاه الإنسان فهماً واعتقاداً وامثالاً. ومن ثم، فإن المطلوب ليس المفاضلة بين جمال التلاوة وحضور القلب، وإنما الجمع بين صحة الأداء وإخلاص القصد وحسن التلقي.

وتزداد قيمة النية حين ينتقل القارئ من مجرد الرغبة في تحصيل الثواب إلى استحضار مسؤوليته تجاه ما يقرأ. فهو لا يفتح المصحف ليضيف مقداراً من القراءة إلى رصيده اليومي فحسب، بل ليعرض اعتقاده ومواقفه وأخلاقه وأعماله على ميزان الوحي، ويتعرف إلى ما ينبغي أن يصححه أو يثبتته أو يتخلى عنه. وهذا المعنى ينسجم مع وصف القرآن نفسه بأنه كتاب هداية، قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨). فالهداية لا تتحقق بمجرد مرور الألفاظ على السمع، وإنما يكون الانتفاع بها أعمق حين يقصد القارئ فهم مراد الله في حدود ما تدل عليه النصوص، ثم يستجيب لما تقتضيه من إيمان وعمل.

وتتطلب هذه النية مراجعة متجددة؛ لأن الإخلاص ليس حالة نفسية يضمن الإنسان بقاءها بمجرد استحضارها في بداية القراءة، بل هو مقصد يحتاج إلى تجديد ومجاهدة. فقد يبدأ القارئ مخلصاً، ثم تتسلل إليه الرغبة في الثناء أو المنافسة أو إظهار التفوق. ولذلك كان من مقتضيات صحبة القرآن أن يسأل الإنسان نفسه عن حقيقة قصده، وأن يصحح وجهته كلما شعر بانحرافها، من غير أن يستسلم للوسوسة أو يجعل محاسبة النية سبباً لترك العمل.

وعليه، فإن النية الصالحة في صحبة القرآن تقوم على ثلاثة معانٍ متكاملة: إخلاص العبادة لله تعالى، وقصد الانتفاع بالهداية، والاستعداد للاستجابة العملية لما يظهر للقارئ من حق. وبهذا تصبح النية مبدأً ناظماً لمسار الصحبة كله؛ لأنها تصل بين لحظة فتح المصحف والغاية التي ينبغي أن تنتهي إليها القراءة، وهي زيادة الإيمان، وتصحيح الفهم، واستقامة السلوك، والقيام بما يقتضيه الخطاب القرآني من مسؤوليات.

المطلب الثاني: التوبة ومجاهدة الغفلة

لا يتهيأ القلب لتلقي القرآن على الوجه الأكمل بمجرد الرغبة في القراءة، بل يحتاج كذلك إلى مراجعة ما تراكم فيه من آثار الذنوب، وما استقر في النفس من عادات الغفلة والإعراض. فالتوبة ليست مرحلة منفصلة عن صحبة القرآن، وإنما هي من أهم المسارات التي تتجدد بها أهلية الإنسان للانتفاع بالهداية؛ إذ تعيد توجيه الإرادة نحو الله تعالى، وتدفع القارئ إلى الاعتراف بمواضع الخلل في حياته بدل الاكتفاء بتلقي المعاني التي توافق رغباته.

ويؤسس القرآن لهذا المعنى من خلال دعوته المتكررة إلى التوبة والإنابة، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١). فالتوبة خطاب عام للمؤمنين، وليست شأنًا مقصورًا على أصحاب المعاصي الظاهرة أو من انقطعوا عن العبادة. وكلما ازداد الإنسان وعيًا بمقتضيات العبودية، اتسعت قدرته على اكتشاف وجوه التقصير في نفسه، سواء تعلق ذلك بترك واجب، أو ارتكاب محرم، أو الإصرار على عادة تضعف صلته بالله تعالى، أو الغفلة عن حقوق الآخرين.

ومن الناحية التربوية، تكتسب التوبة أهميتها في صحبة القرآن لأنها تنقل القارئ من موقع المتلقي الذي ينظر إلى الآيات باعتبارها خطابًا موجهًا إلى غيره، إلى موقع الإنسان الذي يستقبل الوحي بوصفه هداية تشمل حياته هو أيضًا. فعندما يقرأ آيات الصدق، لا يقتصر سؤاله على تعريف الصدق وفضله، بل يراجع مدى التزامه به في أقواله ومعاملاته. وعندما يقرأ آيات العدل، لا يكتفي بإدانة الظلم الذي يقع من الآخرين، بل يتفقد مواقفه الخاصة وعلاقاته بمن يملك عليهم سلطة أو قدرة. وعندما يقرأ آيات الإنفاق والإحسان، يتجاوز الإعجاب بالمبدأ إلى النظر في مقدار استجابته له.

وهذا اللون من التلقي لا يقتضي أن يحصر القارئ كل آية في تجربته الشخصية، أو أن يتجاوز دلالتها التفسيرية وسياقها، وإنما يقتضي أن يجمع بين فهم النص في معناه الصحيح واستحضار ما يتصل به من واجبات عملية. فالقراءة التي لا تنتهي إلى مراجعة النفس قد تتحول إلى معرفة نظرية لا تغير الموقف، في حين أن القراءة المصحوبة بالتوبة تفتح المجال أمام الاعتراف بالخطأ وتصحيح المسار.

وقد ربط القرآن بين الانتفاع بالتذكير والاستجابة القلبية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧). وتكشف الآية عن أهمية اليقظة في استقبال الموعظة؛ فالمشكلة ليست دائمًا في غياب النص أو عدم سماعه، بل قد تكون في طريقة تلقيه، وفي حضور القلب أو غيابه أثناء الاستماع

والقراءة. ومن هنا تتصل التوبة بمجاهدة الغفلة؛ لأن الغفلة قد تجعل الإنسان يمر على المعاني التي يحتاج إليها دون أن يسمح لها بمساءلة اختياراته. والغفلة في هذا السياق لا تعني مجرد النسيان العارض أو انشغال الذهن الطبيعي، فهذه أحوال بشرية لا يسلم منها أحد، وإنما المقصود حالة من الإعراض المتكرر أو ضعف الانتباه إلى الحقائق الإيمانية والأخلاقية، بحيث تتسع المسافة بين ما يعرفه الإنسان وما يلتزم به. وقد يعرف المرء فضل الصدق، ثم يتساهل في الكذب؛ ويعلم خطورة الظلم، ثم يبرر تعديه على حقوق غيره؛ ويقرأ في القرآن عن الآخرة والحساب، ثم يتصرف في حياته كما لو كانت المسؤولية الأخلاقية أمرًا بعيدًا عن قراراته اليومية. وهنا تتجلى وظيفة التذكير القرآني في إعادة وصل المعرفة بالسلوك، واستدعاء المعاني التي أضعفتها كثرة الاعتياد أو ضغط المصالح أو اتباع الهوى.

ولا تعالج هذه الغفلة بمجرد زيادة مقدار القراءة، وإن كانت كثرة التلاوة من الأعمال الفاضلة، بل تحتاج إلى قراءة واعية تكشف مواضع الخل وتحدد مجالات الإصلاح. فقد يقرأ الإنسان صفحات كثيرة دون أن يتوقف عند معنى يمس سلوكه، وقد ينتفع بآية واحدة حين يصدق في محاسبة نفسه والاستجابة لما تدل عليه. وليس المقصود المفاضلة المطلقة بين القليل والكثير، وإنما التنبيه إلى أن الكم وحده لا يكفي للحكم على عمق الانتفاع؛ إذ لا بد من الجمع بين المحافظة على التلاوة، والفهم الصحيح، واستحضار مقتضيات العمل.

وتقتضي مجاهدة الغفلة كذلك مقاومة الاعتياد الذي يفرغ الأعمال التعبدية من حضورها النفسي. فقد تتحول القراءة اليومية، مع مرور الزمن، إلى عادة تؤدي بصورة آلية، فيعتني القارئ بإتمام المقدار المحدد دون أن ينتبه إلى المعاني التي يقرأها. ولا يعني ذلك أن الاعتياد على الطاعة مذموم في ذاته؛ بل الاستمرار على العمل الصالح من أسباب الثبات. وإنما موضع الخل أن يصبح الاعتياد بديلًا عن الوعي، وأن ينشغل الإنسان بإنجاز العبادة عن استحضار معناها ومقصدها.

ومن الوسائل التربوية النافعة في مقاومة ذلك أن يخصص القارئ وقتًا قصيرًا بعد تلاوته لمراجعة ما قرأ، واختيار معنى واضح الدلالة يمكن أن يترجم إلى عمل محدد. فإن قرأ عن حفظ اللسان، راجع كلامه في يومه؛ وإن قرأ عن بر الوالدين، نظر في مدى قيامه بحقوقهما؛ وإن قرأ عن الأمانة، فحص التزامه بها في عمله ومعاملاته. وبهذا لا تبقى المراجعة الشعورية انفعاليًا عابرًا، بل تتحول إلى خطوة عملية قابلة للمتابعة والتقويم.

كما ينبغي ألا تتحول محاسبة النفس إلى قنوط أو شعور دائم بالعجز؛ لأن التوبة في التصور القرآني باب للرجوع والإصلاح، لا طريق إلى اليأس. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). فالآية تؤسس توازنًا بين الاعتراف بالخطأ والرجاء في رحمة الله تعالى، وتمنع أن تتحول معرفة التقصير إلى حاجز نفسي يحول دون مواصلة التلاوة أو الإقبال على الطاعة.

ومن ثم، فإن التوبة ومجاهدة الغفلة تمثلان جانبًا عمليًا من تهيئة القلب؛ لأنهما تعيدان ترتيب العلاقة بين المعرفة والإرادة. فالقارئ لا يحتاج إلى معرفة الحق فحسب، بل يحتاج إلى شجاعة الاعتراف بمواضع مخالفته، وإرادة تصحيحها، وصبر على الاستمرار في الإصلاح. وبذلك تصبح صحبة القرآن مسارًا متجددًا للتوبة، لا يقتصر على لحظة تأثر عابرة، وإنما يظهر أثره في قرارات الإنسان، وطريقة تعامله مع الآخرين، ومدى استعداده للتخلي عما يخالف الهداية.

المطلب الثالث: حضور القلب والاستعداد للتدبر

يمثل حضور القلب شرطًا تربويًا مهمًا في الانتفاع بالقرآن؛ لأن التلاوة ليست مجرد عملية صوتية يتتابع فيها النطق بالألفاظ، بل هي تلقي لخطاب إلهي يقتضي الإنصات والفهم والتفكير والاستجابة. ولا يراد بحضور القلب أن يصل القارئ إلى حالة وجدانية استثنائية في كل مرة يقرأ فيها، أو أن يشعر بدرجة واحدة من التأثر في جميع أحواله، وإنما المراد أن يقبل على التلاوة بقدر مستطاع من الانتباه والوعي، وأن يجاهد نفسه حتى لا تتحول القراءة إلى أداء منفصل عن معناها.

وقد وجّه القرآن الكريم إلى التدبر بوصفه سبيلًا إلى تعميق الصلة بالوحي، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤). والاستفهام في الآية يلفت النظر إلى أن مجرد وصول القرآن إلى السمع أو قراءته باللسان لا يستنفذ المقصود من تلقيه، بل يدعو إلى النظر في دلالاته وما تتضمنه من هداية وتوجيه. كما قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩). وتربط الآية بين التدبر والتذكر، بما يدل على أن التأمل في المعاني ليس غاية ذهنية منعزلة، وإنما طريق إلى استحضار الحقائق والعمل بمقتضاها.

ويحتاج التدبر إلى التمييز بينه وبين التفسير؛ فالتفسير يُعنى ببيان معاني الآيات ودلالاتها وفق قواعد العلم وأصوله، أما التدبر فيتصل بالتفكير في المعاني الثابتة وفهم ما تدعو إليه من اعتبار وهداية وتزكية وعمل. وهما متكاملان، لا يغني

أحدهما عن الآخر. فلا يصح أن يجعل القارئ خواطره الشخصية بديلاً عن التفسير المعتبر، أو أن ينسب إلى الآية معنى لا يدل عليه سياقها واستعمالها العربي وأصول فهمها، ثم يسمي ذلك تدبراً. وفي المقابل، لا ينبغي أن يتحول الاقتصار على نقل الأقوال التفسيرية إلى حاجز يمنع القارئ من النظر في دلالات النص الصحيحة وآثارها في حياته.

ويترتب على هذا التمييز أن الاستعداد للتدبر يجمع بين التواضع المعرفي واليقظة التربوية. فالتواضع المعرفي يقتضي ألا يتعجل القارئ في الجزم بمعنى يحتاج إلى علم باللغة أو بأسباب النزول أو بالسياق أو بأقوال المفسرين. أما اليقظة التربوية فتقتضي ألا يتعامل مع المعنى الصحيح بوصفه معلومة تنتهي فائدتها بمجرد معرفتها، بل يسأل عن مقتضياتها الإيمانية والأخلاقية والعملية. وبهذا تتجنب صحبة القرآن طرفين متقابلين: التأويل الذاتي الذي يحمل النص ما لا يحتمل، والقراءة المعلوماتية التي تفصل المعرفة عن إصلاح النفس.

ومن أهم ما يعين على حضور القلب اختيار وقت ومكان يقل فيهما التشويش بقدر الإمكان. فالإنسان يتأثر بالضوضاء والمقاطعات وتعدد المهام، وقد يجد صعوبة في التركيز إذا جمع القراءة مع متابعة الرسائل أو التنقل المستمر بين الأعمال. ولا يعني ذلك أن القراءة لا تنفع إلا في العزلة التامة؛ فالقرآن يقرأ في أحوال متعددة، وقد يفتح الله على الإنسان في وقت لم يكن يتوقعه. لكن تنظيم الوقت وتقليل المشتتات يساعدان على استقرار الانتباه، ويمنحان القارئ فرصة أوسع لفهم المعنى والتفاعل معه.

ومن الوسائل المعينة كذلك القراءة على مهل، والوقوف عند الآيات التي تحتاج إلى تأمل، وتكرار الآية إذا كان في التكرار ما يعين على فهمها أو استحضر أثرها. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ القرآن مترسلاً، وجاء في وصف قراءته أنه كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من سورة أطول منها (٢). ويدل هذا الأصل على مشروعية الترسل في القراءة والعناية بأدائها، ويستأنس به في تقرير أهمية إتاحة الوقت لفهم المعاني، دون أن يلزم منه أن كل قراءة ينبغي أن تتخذ صورة واحدة أو أن يترك القارئ مقدار ورده المعتاد كلما أراد التدبر.

ويتصل حضور القلب كذلك بفهم المفردات والتركيب التي يتوقف عليها المعنى. فقد تعوق القارئ ألفاظ لا يعرف دلالتها، أو سياقات لا تتضح له صلتها بما قبلها وما بعدها. وفي هذه الحال، يكون الرجوع إلى تفسير موثوق أو شرح لغوي معتبر خطوة منهجية لازمة، لا علامة على قصور التدبر. فالانتفاع بالقرآن يتطلب الجمع

بين التأمل الشخصي المنضبط والاستفادة من جهود العلماء في بيان المعاني، حتى لا تتأسس الاستجابة العملية على فهم خاطئ.

ومن جهة أخرى، ينبغي مراعاة أن حضور القلب يتفاوت باختلاف الأحوال والقدرات والظروف. فقد يقرأ الإنسان في وقت يكون فيه ذهنه صافيًا، فيتعمق في المعاني، وقد يقرأ في وقت يشغله فيه التعب أو المسؤوليات، فيضعف تركيزه. ولا يصح أن يجعل هذا التفاوت مبررًا لترك القراءة، كما لا يصح أن يتجاهله ويصر على أداء لا ينتبه فيه إلى ما يقرأ. والأولى أن يتعامل مع نفسه بواقعية؛ فيختار من الأوقات ما يناسب قدرته، ويبدأ بما يستطيع المحافظة عليه، ويجاهد نفسه للارتقاء تدريجيًا من القراءة المتعجلة إلى القراءة الواعية.

ولا ينبغي كذلك أن يُربط التدبر بضرورة الشعور بتأثر عاطفي ظاهر؛ فقد يتدبر الإنسان آية فيفهم منها حكمًا أو مسؤولية أو تصحيحًا لموقف، من غير أن تصحبه دموع أو انفعال قوي. فالتأثر الوجداني صورة من صور التفاعل، لكنه ليس المعيار الوحيد لصحة الانتفاع. وقد يكون أثر الآية الحقيقي أن يتراجع الإنسان عن ظلم، أو يرد حقًا إلى صاحبه، أو يثبت على واجب، أو يعيد النظر في قرار، أو يكف عن سلوك اعتاد عليه. ولذلك فإن تقويم التدبر ينبغي أن يراعي سلامة الفهم وصدق الاستجابة، لا المظاهر الانفعالية وحدها.

ويتضح من ذلك أن حضور القلب ليس حالة تسبق القراءة ثم تنتهي، بل ممارسة تتجدد أثناءها وبعدها. فهو يبدأ باستحضار أن القارئ يتلقى كلام الله تعالى، ويستمر بالانتباه إلى المعاني، ويتعمق بالرجوع إلى مصادر الفهم المعتبرة، ويكتمل أثره حين يقود إلى التذكر والمراجعة والعمل. وبذلك يصبح التدبر جسرًا يصل بين معرفة النص وحضور هدايته في الوعي والسلوك.

المطلب الرابع: أثر الطهارة المعنوية في الانتفاع بالقرآن

تتصل تهيئة القلب للتلقي بمفهوم الطهارة المعنوية، وهو مفهوم يشير في هذا السياق إلى تزكية النفس من أدران الاعتقاد والسلوك، ومقاومة الأهواء التي تصد الإنسان عن قبول الحق، وتنمية الاستعداد للإنصاف والتواضع والاستجابة للهداية. ولا يراد بهذا المفهوم إحداث شرط شرعي جديد للتلاوة أو الادعاء بأن كل ذنب يمنع صاحبه من فهم القرآن، وإنما المقصود بيان العلاقة التربوية بين حال القلب وطريقة انتفاع الإنسان بالخطاب القرآني.

وقد دل القرآن الكريم على أن التزكية مقصد أصيل من مقاصد الرسالة، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴿ (الجمعة: ٢). وتجمع الآية بين تلاوة الآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة، وهو جمع يكشف عن تكامل هذه الوظائف في بناء الإنسان. فالقرآن يُتلى ويُتعلَّم، وتُستمد من هدايته معايير تزكية النفس وإصلاح السلوك، ولا يستقيم المقصد التربوي إذا عُزلت المعرفة عن العمل أو فُصلت التلاوة عن أثرها في تشكيل الشخصية.

وتظهر الطهارة المعنوية في قدرة الإنسان على استقبال الحق دون أن تحجبه عنه المصلحة الشخصية أو العصبية أو الكبر. فقد يعرف المرء الدليل، لكنه يرفض مقتضاه لأنه يخالف ما اعتاده أو ما يحقق له منفعة عاجلة. وقد يقرأ آيات الإنصاف والتواضع، ثم يتعامل مع الآخرين باستعلاء، أو يقرأ في ذم اتباع الهوى، ثم يبحث عن التأويلات التي تبرر له ما يريد فعله مسبقًا. وفي مثل هذه الحالات لا تكون المشكلة بالضرورة في غياب المعلومة، بل في استعداد النفس للتعامل معها بصدق.

ومن هنا يمكن فهم الصلة بين التزكية والتدبر: فالتدبر يضع الإنسان أمام المعاني التي تكشف مواضع الخلل، بينما تساعد التزكية على تخفيف مقاومة النفس لما تكشفه هذه المعاني من تقصير. غير أن هذه العلاقة لا ينبغي تحويلها إلى قاعدة آلية تزعم أن صلاح النفس وحده يضمن صحة الفهم، أو أن كل من أخطأ في تفسير آية إنما أخطأ بسبب فساد قلبه. فالفهم الصحيح يحتاج إلى أدوات علمية، من معرفة اللغة والسياق وأصول التفسير، كما أن التزكية تحتاج إلى صدق المجاهدة ومراجعة العمل. وقد يكون الإنسان حسن القصد لكنه يخطئ لقصور علمه، فيحتاج إلى التعلم والتصحيح، لا إلى اتهام نيته.

ويؤكد القرآن أن الهوى قد يصرف الإنسان عن اتباع الحق، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (القصص: ٥٠). وتدل الآية في سياقها على خطورة تقديم الهوى على الهداية، وهو معنى يتجاوز مجرد مخالفة الرغبة لأمر معين إلى نمط من التعامل يجعل رغبات الإنسان معيارًا لقبول الحق أو رفضه. وفي صحبة القرآن، يظهر أثر هذا النمط حين ينتقي القارئ من النصوص ما يؤيد مواقفه، ويتجاهل ما يدعو إلى مراجعتها، أو يشتد في تطبيق المعايير على غيره ويتساهل فيها عند محاسبة نفسه.

وتقتضي الطهارة المعنوية مقاومة هذا الانتقاء من خلال الإنصاف في القراءة، والاستعداد لقبول ما تدل عليه الآيات ولو خالف المصلحة الشخصية. فإذا قرأ الإنسان نصوص العدل، وجب أن يتعامل معها بوصفها معيارًا يحكم علاقته بمن

يحب ومن يختلف معه، لا وسيلة لإدانة خصومه فحسب. وإذا قرأ في القرآن عن الوفاء بالعهد، لم يجز له أن يحصر الالتزام به في علاقاته المريحة، ثم يستثني من ذلك من يخاصمهم. وإذا قرأ عن التواضع، لم يجعل معرفته بالنصوص سبباً للاستعلاء على من هو أقل منه علماً أو ممارسة. وهكذا تصبح التزكية اختباراً لمدى انتقال المعاني من المجال النظري إلى المجال الأخلاقي.

ومن أبرز مظاهر الطهارة المعنوية التواضع للحق، وهو لا يعني إلغاء العقل أو تعطيل النظر، وإنما يعني عدم جعل الرأي الشخصي أو الموروث الاجتماعي فوق الدليل الصحيح. فالقارئ المتواضع يتعلم، ويسأل عما أشكل عليه، ويراجع فهمه إذا ظهر له ما يصححه، ولا يتعجل في نسبة المعاني إلى القرآن من غير علم. كما يميز بين القطعي والظني، وبين ما اتضح دليله وما يحتاج إلى مزيد من البحث، فلا يجعل خواطره الشخصية أحكاماً شرعية ملزمة للآخرين.

ويتصل بذلك تطهير النفس من الحسد والكبر والغل والعداوة التي قد تؤثر في فهم الإنسان للمواقف والأشخاص. فالقرآن يوجه إلى العدل والإحسان والعفو والإصلاح، وهذه القيم لا تُختبر في الأحوال المجردة وحدها، بل تظهر حقيقتها عند تعارضها مع الانفعالات والمصالح. ومن ثم، فإن قراءة آيات الأخلاق ينبغي أن تدفع القارئ إلى مراقبة استجاباته الفعلية: كيف يتصرف حين يغضب؟ وكيف يحكم عند الخصومة؟ وهل ينصف من يختلف معه؟ وهل يقبل الاعتذار؟ وهل يراجع نفسه إذا تبين له خطؤها؟ إن هذه الأسئلة تنقل التزكية من كونها مفهوماً عاماً إلى ممارسة قابلة للملاحظة والتقويم.

ومع ذلك، لا يصح أن يفهم أثر الطهارة المعنوية على أنه اشتراط للكمال قبل الإقبال على القرآن؛ إذ لو انتظر الإنسان حتى يتخلص من جميع عيوبه لما بدأ طريق الإصلاح. فالقرآن نفسه من أعظم الوسائل التي يتركز بها المؤمن، ولذلك يحتاج إليه في حال ضعفه كما يحتاج إليه في حال قوته، وفي زمن توبته كما يحتاج إليه في زمن ثباته. والعلاقة هنا تفاعلية: يقرأ الإنسان ليهتدي ويتزكى، ويجاهد نفسه حتى يكون أقدر على الانتفاع بما يقرأ. فالتزكية ليست شرطاً مكتملاً يسبق التلاوة، بل مقصد يتكون ويتجدد في أثناء صحبة القرآن.

ومن المهم كذلك التمييز بين الطهارة المعنوية والطهارة الحسية في الأحكام الفقهية. فلكل منهما مجالها وأحكامها، ولا يجوز أن تستعمل الإشارات التربوية إلى صفاء القلب لتقرير حكم فقهي لا يدل عليه دليل معتبر. ومسائل الطهارة والوضوء ومس المصحف وقراءة القرآن في أحوال الحدث والجنابة وغيرها من المسائل التي

تحتاج إلى تفصيل فقهي بحسب أدلتها ومذاهب العلماء. أما الحديث عن أثر الطهارة المعنوية في هذا المطلب، فيتعلق باستعداد النفس للهداية، ولا يقتضي بذاته الحكم بصحة فعل فقهي أو بطلانه.

كما ينبغي الحذر من اتخاذ الشعور بالخشوع أو صفاء النفس مقياسًا وحيدًا لقبول العمل أو رفضه؛ لأن أحوال القلوب لا يمكن الجزم بها بمجرد المظاهر، ولأن الإنسان قد يمر بفترات من الفتور أو الجفاف العاطفي مع محافظته على الطاعة ومجاهدته لنفسه. والمعتبر أن يواصل طريق التزكية، وأن يجمع بين حسن القصد وصحة العمل والتعلم والاستجابة، دون أن يدعي لنفسه منزلة خاصة أو يحكم على الآخرين بفساد قلوبهم لمجرد اختلافهم معه.

وخلاصة هذا المطلب أن الطهارة المعنوية تسهم في تهيئة الإنسان لتلقي القرآن من خلال تقوية الإنصاف، ومقاومة الهوى، وتنمية التواضع للحق، والاستعداد لمراجعة النفس. وهي ليست بديلًا عن العلم والتفسير، ولا شرطًا يلزم اكتماله قبل التلاوة، بل ثمرة من ثمار صحبة القرآن ووسيلة من وسائل تعميق الانتفاع به في آن واحد. فكلما ازدادت قدرة القارئ على الاعتراف بخطئه، وقبول الحق، وتحويل المعرفة إلى سلوك، اقتربت علاقته بالقرآن من المقصد الذي نزل من أجله: هداية الإنسان وإصلاح حياته في ضوء الوحي.

الهوامش

- (1) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ١
- (2) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهدء، حديث رقم ٧٣٣

المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري.
٣. مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم.
٤. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم.
٥. الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
٦. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن.
٧. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.
٨. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، كتاب آداب تلاوة القرآن

المبحث الثالث: القرآن خطاب هداية ومسؤولية

أولاً: استحضار معنى الوقوف بين يدي كلام الله

لا تتحقق صحبة القرآن بمجرد اتصال اللسان بألفاظه، وإنما تبدأ حين يستحضر القارئ أنه يتلقى كلام الله تعالى، وأن هذا الكلام ليس نصًّا يُتلى فحسب، بل خطاب هداية يخاطب العقل والقلب والوجدان، ويستنهض الإرادة لتصحيح الاعتقاد وتقويم السلوك وإقامة الحياة على مقتضى العبودية لله تعالى. ومن هنا، فإن استحضار عظمة القرآن ومصدره ومقصده يمثل مدخلاً أساسياً لفهم طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تنشأ بين الإنسان والكتاب الذي يتلوه.

وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة حين وصفه بأنه كتاب مبارك أنزل لتحقيق غاية التدبر والاتعاظ، فقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩). فالآية تربط بين إنزال القرآن وبركته من جهة، والتدبر والتذكر من جهة أخرى، بما يدل على أن الانتفاع المقصود به لا ينحصر في مجرد تحصيل الألفاظ، بل يتجاوز ذلك إلى استيعاب الدلالات واستحضار ما تتضمنه من هداية. ولا يعني هذا الانتقاص من منزلة التلاوة التعبدية أو فصلها عن التدبر؛ إذ لكل منهما منزلته، وإنما المقصود أن التلاوة تمثل أحد أبواب الانتفاع بالقرآن، وأن التدبر يفتح للقارئ أفقاً أوسع لفهم خطابه واستحضار مقتضياته.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤). فالاستفهام هنا يحمل دلالة إنكارية تستنكر الإعراض عن تدبر القرآن، وتلفت النظر إلى أن المشكلة قد لا تكون في غياب النص أو تعذر الوصول إليه، وإنما في انغلاق القلب عن تلقي دلالاته. ومع ذلك، لا يصح أن تُحمّل الآية وحدها جميع أسباب ضعف الانتفاع بالقرآن؛ إذ تتفاوت أحوال القراء، وتختلف قدراتهم العلمية واللغوية، كما تتداخل عوامل نفسية وتربوية وسلوكية في تشكيل علاقتهم بالوحي. وإنما تدل الآية، في سياقها، على مركزية التدبر في مواجهة الإعراض عن هداية القرآن.

إن الوقوف بين يدي كلام الله يقتضي، بناءً على ذلك، انتقال القارئ من التعامل مع القرآن بوصفه مادة مألوفة تتكرر ألفاظها على سمعه ولسانه، إلى التعامل معه بوصفه خطاباً يستدعي الإصغاء والفهم والمراجعة. فالمألوفية قد تكون نعمة تعين على دوام التلاوة، لكنها قد تتحول إلى سبب للغفلة إذا اقترنت بتكرار لا يصحبه تجدد في الانتباه. وقد يقرأ الإنسان الآية مرات كثيرة، ثم يكتشف في قراءة لاحقة

دلالة لم يلتفت إليها من قبل، لا لأن الآية تغيرت، بل لأن مستوى فهمه واستعداده للتلقي قد تغير.

ولا يعني استحضر عظمة القرآن أن يتعامل القارئ مع كل آية بمعزل عن سياقها، أو أن يجعل انفعاله الشخصي بديلاً عن الفهم المنضبط؛ بل إن تعظيم كلام الله يقتضي أيضاً احترام دلالاته، وردّ المتشابه إلى المحكم، والنظر في السياق، والاستعانة بالتفسير المعتبر، وعدم تحميل النص ما لا يحتمل. فالتعظيم الحقيقي لا ينفصل عن الأمانة العلمية، كما أن التدبر الصحيح لا يتعارض مع التفسير المنضبط، وإنما يتكامل معه.

ويتضح البعد العملي لهذه القضية في أثر القرآن الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣). فالآية تعرض صورة من صور التأثير بالقرآن، تجمع بين استشعار الهيبة ولين القلب، وتربط الانفعال الوجداني بالعودة إلى ذكر الله. ولا يلزم من ذلك أن يكون التأثير الصادق مقصوراً على استجابة جسدية أو انفعال ظاهري؛ فقد يختلف أثر القرآن في النفوس باختلاف أحوالها، وتفاوت استعداداتها، وطبيعة ما تتلقاه من معانيه. والمقياس التربوي الأهم هو ألا يبقى التأثير منفصلاً عن بناء الإيمان وإصلاح السلوك.

ومن ثم، فإن استحضر معنى الوقوف بين يدي كلام الله يؤسس لأدب مركب في صحبة القرآن، قوامه تعظيم الوحي، وحسن الإصغاء إليه، وطلب فهمه على بصيرة، واستعداد النفس لمراجعة مواقفها في ضوء هدايته. وبهذا يصبح السؤال الذي يصاحب التلاوة أوسع من سؤال مقدار ما قرأه الإنسان؛ إذ يشمل أيضاً ما الذي فهمه، وما الذي أعاد النظر فيه، وما الذي استجاب له من هداية الله تعالى.

ثانياً: التلقي بين الرجاء والخشية

يقوم التلقي الواعي للقرآن على توازن دقيق بين الرجاء والخشية؛ فالرجاء يمنح القلب الثقة برحمة الله وسعة مغفرته، والخشية توقظه من الغفلة وتحمله على محاسبة النفس واستشعار المسؤولية. وإذا انفرد أحد المعنيين عن الآخر اختل البناء التربوي: فرجاء لا يصحبه وعي بالمسؤولية قد ينقلب إلى أمن من مكر الله واغترار بسعة الرحمة، وخشية لا يصحبها رجاء قد تتحول إلى يأس أو قنوط يضعفان قدرة الإنسان على التوبة والاستقامة.

وقد جمع القرآن الكريم بين هذين المعنيين في وصف عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

(السجدة: ١٦). فالخوف والطمع يجتمعان في عبادة واحدة، ولا يتنافيان في القلب المؤمن، بل يؤدي كل منهما وظيفة تكمل وظيفة الآخر. فالخوف يحرر الإرادة من الاستهانة بالذنب والتساهل في الواجب، والطمع في رحمة الله يفتح باب التوبة، ويمنع اليأس من الإصلاح، ويعين على مواصلة السير رغم العثرات. ويظهر هذا التوازن كذلك في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الأنعام: ٥٠-٤٩). فالجمع بين المغفرة والعذاب يرسم أفقاً متكاملًا لفهم علاقة العبد بربه؛ إذ لا يجوز أن تُقرأ نصوص الرحمة بطريقة تلغي مقتضيات التكليف، كما لا يجوز أن تُقرأ نصوص الوعيد بمعزل عن أبواب التوبة والإنابة. والقرآن، في بنائه التربوي، لا يريد للإنسان أن يعيش أسير شعور واحد، وإنما يوجهه إلى عبودية تتوازن فيها مشاعر التعظيم والمحبة والرجاء والخوف.

وعند تنزيل هذا المعنى على صحبة القرآن، ينبغي التمييز بين التلقي الذي يثير الخوف المنتج للإصلاح، والتلقي الذي يولد خوفًا مشوشًا يعطل الإرادة. فالخشية المحمودة تدفع إلى ترك المعصية، ورد الحقوق، والاعتذار عند الخطأ، ومراجعة السلوك، والإقبال على الطاعة. أما الخوف الذي يقود إلى الاستسلام واليأس، ويصور للإنسان أن أبواب الإصلاح قد أغلقت دونه، فلا ينسجم مع الهداية القرآنية التي تفتح باب الإنابة وتدعو إلى عدم القنوط من رحمة الله. وفي المقابل، لا ينبغي أن يُختزل الرجاء في الشعور بالراحة النفسية عند سماع آيات المغفرة، دون أن يصاحبه سعي إلى التوبة والعمل الصالح. فالرجاء الذي ينسجم مع خطاب القرآن ليس بديلًا عن الاستقامة، وإنما هو قوة دافعة إليها؛ إذ يحمل الإنسان على إحسان الظن بالله، مع الأخذ بأسباب رضاه، والثقة بإمكان الإصلاح، مع الاعتراف بالحاجة الدائمة إلى الهداية والتوفيق.

ومن المهم كذلك ألا يُجعل التأثير بآيات الوعد والوعيد مقياسًا آليًا للحكم على صدق إيمان القارئ أو مقدار انتفاعه. فالأحوال القلبية لا تُختزل في مظاهر انفعالية ظاهرة، كما أن ضعف الانفعال في لحظة معينة لا يثبت وحده غياب التعظيم أو الخشية. وقد تكون الاستجابة الأعمق هدوءًا في ظاهرها، لكنها تظهر في قرار صادق بترك ظلم، أو أداء حق، أو مقاومة هوى، أو الثبات على واجب.

وتأسيسًا على ذلك، فإن التلقي بين الرجاء والخشية يحقق غايتين متكاملتين: فهو من جهة يمنع القارئ من تحويل الرحمة إلى مبرر للتساهل، ومن جهة أخرى يمنعه من تحويل الوعيد إلى باب لليأس. وبهذا تتكون نفس مستعدة للاستجابة، لا

تحركها العاطفة العابرة وحدها، ولا يشلها الخوف، بل تتوجه إلى الله تعالى بقلب يجمع بين تعظيمه، والرجاء في فضله، والخوف من مخالفته، والعمل بما يقتضيه الإيمان.

ثالثاً: الانتقال من القراءة إلى الاستجابة

لا تكتمل الوظيفة التربوية للتلاوة إلا حين تفتح طريقاً للاستجابة، والاستجابة هنا ليست مجرد شعور بالموافقة على ما يقرؤه الإنسان، وإنما هي انتقال من إدراك الهداية إلى اتخاذ موقف عملي يتناسب معها. وقد تكون هذه الاستجابة تصحيحاً لفكرة، أو تجديدًا لنية، أو تركاً لسلوك خاطئ، أو أداءً لحق واجب، أو اكتساباً لخلق حسن، أو صبراً على تكليف شاق. وبهذا المعنى، فإن العمل بالقرآن لا ينحصر في صورة واحدة، بل يتنوع بتنوع أوامره ونواهيه ومقاصده ومجالات هدايته.

ويؤصل القرآن لهذه العلاقة بين التلقي والاستجابة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٥١). فالآية تقدم نموذجاً للتلقي الذي لا يقف عند السماع، بل يتجاوزه إلى الطاعة. وليس المقصود أن كل قراءة للقرآن تستلزم استجابة فورية مكتملة لجميع ما تتضمنه من معانٍ وأحكام؛ فالفهم يحتاج إلى تعلم، والتغيير يحتاج إلى مجاهدة، وبعض التكليف تتطلب تدرجاً في تحصيل القدرة عليها. وإنما المقصود أن يكون اتجاه القارئ العام هو الاستعداد للامتثال، لا الاكتفاء بالمعرفة المجردة.

ويكشف هذا المعنى عن الفرق بين العلم الذي يتحول إلى هداية، والعلم الذي يبقى معلومات منفصلة عن السلوك. فقد يعرف الإنسان فضل الصدق، ويقرأ الآيات التي تأمر به، ثم يواصل التساهل في الكذب؛ وقد يعلم حرمة الظلم، لكنه لا يراجع ممارساته حين تتعارض مصالحه مع حقوق الآخرين. وفي مثل هذه الحالات لا تكون المشكلة بالضرورة في غياب المعرفة، بل في الفجوة بين المعرفة والإرادة والعمل. وهنا تتجلى أهمية صحبة القرآن بوصفها علاقة مستمرة تعيد عرض السلوك على معيار الوحي، وتدريب النفس على تحويل المعاني التي تتلقاها إلى اختيارات ملموسة.

غير أن الانتقال إلى الاستجابة ينبغي أن يُبنى على فهم صحيح للنص، لا على انطباعات عابرة أو استنتاجات متعجلة. فقد يقرأ المرء آية تتناول حكماً شرعياً، ثم يسارع إلى تطبيق فهمه الشخصي دون الرجوع إلى سياقها أو تفسيرها أو معرفة ما يتصل بها من نصوص. وقد يستنبط من آية معنى تربوياً صحيحاً في أصله، لكنه

يوسعه حتى ينسب إلى القرآن ما لا تدل عليه الآية. ولذلك فإن الاستجابة المنضبطة تقتضي اجتماع ثلاثة عناصر: صحة الفهم، وصدق الإرادة، ومناسبة العمل للدلالة الشرعية.

ويتأكد هذا الضابط في المسائل التي تتعلق بحقوق الآخرين أو بالأحكام الشرعية ذات الآثار العامة؛ إذ لا يكفي فيها أن يشعر القارئ بأن آية ما تدعوه إلى تصرف معين، بل ينبغي أن يتحقق من الحكم ودليله، وأن يراعي سائر النصوص والضوابط ذات الصلة. فالتدبر ليس تفويضًا للرأي الشخصي كي يحل محل العلم، وإنما هو تفاعل واعٍ مع النص في إطار منضبط بقواعد فهمه.

وتظهر الاستجابة القرآنية كذلك في إصلاح العلاقات الإنسانية؛ فالآيات التي تدعو إلى العدل والإحسان والعفو والوفاء بالعهود لا تستنفذ غايتها بمجرد ترديدها، وإنما تظهر آثارها حين تتغير طريقة الإنسان في التعامل مع أسرته، وجيرانه، وزملائه، ومن تقع بينهم وبينه خصومة. وقد يظن القارئ أن العمل بالقرآن يتحقق أساسًا في العبادات الظاهرة، مع أن الهداية القرآنية تشمل كذلك المعاملات والأخلاق والحقوق والواجبات. ومن ثم، فإن اختبار أثر القراءة لا ينبغي أن يقتصر على المجال التعبدية، بل يمتد إلى مجمل السلوك الذي يتصل بتوجيهات الوحي.

ومع ذلك، لا يصح تحويل الاستجابة إلى معيار مبسط يقاس بعدد الأعمال التي ينجزها القارئ عقب كل جلسة تلاوة. فبعض آثار القرآن تتراكم عبر الزمن، وبعضها يبدأ بتغير داخلي لا يظهر فورًا، وبعضها يتجلى في مقاومة سلوك سيئ أو الثبات أمام فتنة، لا في إضافة عمل ظاهر جديد. وقد تكون الاستجابة في بعض الأحيان امتناعًا عن ظلم، أو كفًا للأذى، أو تراجعًا عن قرار خاطئ بعد اكتشاف مخالفته للحق.

وعليه، فإن الانتقال من القراءة إلى الاستجابة يحتاج إلى وعي يجعل القارئ يسأل نفسه، بعد فهم الآيات: ما الهداية التي تدل عليها؟ وما صلتها بها؟ وما الموقف الذي ينبغي أن أصححه في ضوءها؟ وهل يتطلب الأمر عملاً مباشرًا، أم مزيدًا من التعلم والتحقق، أم مجاهدة ممتدة حتى يستقيم السلوك؟ وهذه الأسئلة ليست بديلًا عن التلاوة أو التفسير، وإنما هي وسائل تربوية تساعد على وصل المعرفة بالممارسة، وتمنع انفصال الخطاب القرآني عن واقع الحياة.

رابعًا: التلاوة بوصفها بداية طريق العمل

تمثل التلاوة مدخلًا أساسيًا إلى صحبة القرآن؛ فهي عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى، ووسيلة متجددة للاتصال بكلامه، وبوابة للتعلم والتدبر والتذكر. غير أن

اعتبارها بداية طريق العمل لا يعني التقليل من فضلها الذاتي، أو تعليق مشروعيتها على تحقق أثر عملي فوري، بل يعني وضعها في إطارها المتكامل، بحيث تؤدي وظيفتها التعبدية وتفتح في الوقت نفسه آفاق الفهم والاستجابة.

وقد ورد في فضل التلاوة حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ» (١). والحديث يدل على فضل القراءة وثوابها، ويؤكد أن التلاوة في ذاتها عمل تعبدية معتبر، لا مجرد وسيلة لاكتساب المعلومات.

وفي الوقت نفسه، جاءت النصوص القرآنية لتبين أن من مقاصد إنزال الكتاب تدبر آياته والتذكر بها، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩). وبذلك يتضح أن التلاوة والتدبر والعمل ليست مراحل متعارضة، ولا ينبغي أن يُفهم ترتيبها على أنه فصل حاد بين أعمال مستقلة؛ فقد تجتمع في جلسة واحدة، وقد يحتاج بعضها إلى وقت أطول من بعض، وقد يعود القارئ إلى الآية نفسها مرات متعددة كلما اتسع علمه أو تجددت حاجته إلى هدايتها.

ومن الخطأ التربوي أن تُجعل المفاضلة بين التلاوة والعمل مفاضلة مطلقة؛ لأن لكل منهما مقامه ووظيفته. فالتلاوة المنتظمة تحفظ صلة المسلم بالقرآن، وتعين على المراجعة والتعلم، وتفتح باب التدبر. والعمل بالقرآن يترجم هدايته إلى واقع، ويكشف عن أثره في الإرادة والسلوك. وإذا انفصلت التلاوة عن إرادة العمل، تعرضت العلاقة بالقرآن لخطر الشكلية، وإذا جرى الحديث عن العمل دون المحافظة على التلاوة والتعلم، فقد يضعف اتصال الممارسة بمصدرها، أو تتحول بعض المبادئ العامة إلى تصورات ذاتية لا تستند إلى فهم منضبط للنص.

ويؤكد حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل (٢) أهمية الاستمرار في الأعمال الصالحة. ويمكن الاستفادة من هذا الأصل في بناء علاقة ثابتة بالتلاوة، لا تتوقف على اندفاع مؤقت أو برنامج مكثف يعجز صاحبه عن المحافظة عليه. فالمقصود ليس مجرد وضع مقدار يومي للقراءة، وإنما تأسيس عادة تعبدية مستدامة تتيح للإنسان أن يواصل التعلم والمراجعة والتدبر، مع مراعاة ظروفه وقدرته.

ويقتضي هذا الفهم أن يُبنى البرنامج القرآني على الجمع بين الثبات والمرونة. فالثبات يحمي العلاقة من الانقطاع المتكرر، والمرونة تمنع تحول البرنامج إلى

عبء يفقد معه القارئ القدرة على الاستمرار. وقد يناسب بعض الناس مقدار معين من التلاوة مع وقت للتفسير والتأمل، بينما يحتاج آخرون إلى تقسيم القراءة على فترات أقصر أو إلى تخصيص أوقات مستقلة للتعلم. ولا توجد صورة تنظيمية واحدة تصلح بالضرورة لجميع الناس، ما دام المقصود المحافظة على أصل التلاوة، وتنمية الفهم، والسعي إلى الاستجابة وفق الاستطاعة.

ومن المهم كذلك ألا تتحول فكرة العمل بالقرآن إلى ضغط نفسي يدفع القارئ إلى البحث عن أثر عملي استثنائي بعد كل آية، أو إلى الشعور بالتقصير لمجرد أنه لم يلحظ تغيراً فورياً في نفسه. فالتربية القرآنية مسار تراكمي، وقد تتجلى آثارها في ترسيخ قيمة، أو تصحيح تصور، أو تقوية إرادة، أو بناء قدرة على مقاومة الانحراف. وهذه آثار قد تحتاج إلى زمن حتى تظهر في السلوك، ولا يصح نفيها لمجرد غياب العلامات السريعة.

وفي المقابل، ينبغي ألا تُستخدم فكرة التدرج ذريعة لتأجيل العمل إلى أجل غير محدد؛ إذ إن التدرج المقبول هو الذي يساعد على تحقيق الهداية بحسب الاستطاعة، أما التأجيل الدائم مع توافر القدرة فهو صورة من صور الفجوة بين العلم والعمل. ولذلك يحتاج القارئ إلى الجمع بين الصبر على بناء النفس والمبادرة إلى ما يتضح له وجوبه أو رجحانه، مع التثبت في الحكم الشرعي ومراعاة الحقوق والواجبات.

وتتأسس العلاقة المتكاملة بين التلاوة والعمل على فهم القرآن باعتباره خطاباً يرافق الإنسان في مسار حياته، لا نشاطاً تعبدياً معزولاً عن بقية شؤونه. فحين يقرأ آيات العدل، يستحضرها معياراً في أحكامه ومواقفه؛ وحين يقرأ آيات الصبر، يتعلم منها ما يعينه على مواجهة الشدائد؛ وحين يقرأ آيات التوبة والرحمة، يجد فيها ما يدفعه إلى إصلاح الخطأ وعدم الاستسلام له؛ وحين يقرأ آيات التكليف، يستحضر أن الإيمان يتضمن مسؤولية عملية، لا مجرد انتساب لفظي.

وهكذا تصبح التلاوة بداية طريق العمل؛ لأنها تجدد الصلة بالوحي، والعمل ثمرة من ثمرات هذه الصلة، والتدبر هو الجسر الذي يعين على الانتقال من اللفظ إلى المعنى، ومن المعنى إلى الموقف. ولا يراد بهذا التصوير إقامة ترتيب جامد لا تتداخل فيه المراحل، بل بيان وظائف متكاملة تتفاعل في حياة المسلم: يقرأ ليتعبد ويتعلم، ويتدبر ليفهم ويتذكر، ويعمل ليستجيب للهداية، ثم يعود إلى القرآن ليجدد علمه ويصح مساره ويستمد منه ما يحتاج إليه في مراحل حياته المختلفة.

وبذلك تتحدد الوظيفة التأسيسية لهذا المبحث في ترسيخ أن القرآن خطاب هداية ومسؤولية، وأن صحبته لا تقوم على مجرد تكرار التلاوة، كما لا تقوم على إهمالها باسم الاهتمام بالعمل. إنها علاقة تجمع بين تعظيم كلام الله، والتلقي المتوازن بين الرجاء والخشية، والفهم المنضبط، والاستعداد للاستجابة، والمحافظة على التلاوة بوصفها عبادة متجددة ومدخلًا دائمًا إلى الهداية. ومن هذا الأساس يمكن الانتقال إلى المراحل اللاحقة من صحبة القرآن، حيث تتسع مجالات الفهم والتدبر والتزكية والعمل، دون أن تفقد العلاقة أصلها الجامع: أن يظل القرآن حاضرًا في وعي الإنسان وقراراته وسلوكه، بقدر ما يبلغه علمه وصدقه واجتهاده.

الهوامش

(1) الترمذي، محمد بن عيسى، *الجامع الكبير*، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، حديث رقم (٢٩١٠)، بحسب الترتيب الشائع. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه». وتختلف بيانات الطبقات وأرقام الصفحات؛ لذا لم يُذكر رقم صفحة غير متحقق منه.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، *الجامع الصحيح*، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦٤٦٤)، بحسب الترتيب الشائع. ومسلم بن الحجاج، *الصحيح*، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، حديث رقم (٧٨٣)، بحسب الترتيب الشائع.

المنزل الثاني: آداب التلقي — كيف نقرأ القرآن ونتدبره؟

المبحث الأول: آداب التلاوة

أولاً: الترتيل وحسن الأداء

ليست تلاوة القرآن الكريم مجرد تحريك للسان بألفاظ محفوظة، ولا هي أداء صوتي يُقاس جماله بمقدار ما يبلغه من حسن النغمة وعذوبة الصوت؛ وإنما هي عبادة يتصل فيها ظاهر الأداء بحقيقة التعظيم، ويتهياً فيها القلب لاستقبال كلام الله وفهم خطابه. ومن هنا كانت العناية بكيفية التلاوة جزءاً من العناية بمقصودها، لا غاية مستقلة تنفصل عن الهداية التي أنزل القرآن لتحقيقها.

وقد وجّه القرآن الكريم إلى الترتيل في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]. ويكشف الأمر بالترتيل عن أهمية القراءة المتأنية التي يُعطى فيها كل حرف حقه، وتُراعى فيها أحكام الأداء، ويُبتعد فيها عن العجلة التي تخل بوضوح الألفاظ أو تؤدي إلى إسقاط بعض الحروف أو تغيير هيئاتها. فالترتيل ليس مجرد إبطاء في القراءة، بل هو أداء منضبط يجمع بين سلامة النطق والتأني الذي يتيح للقارئ أن يتابع المعنى، ويستحضر دلالة الآيات.

وتظهر القيمة التربوية للترتيل في أنه يحدّ من تحوّل القراءة إلى ممارسة آلية تستغرق فيها سرعة الإنجاز انتباه القارئ. فحين يقرأ الإنسان متعجلاً، قد ينتهي من صفحات كثيرة دون أن يعي ما مرّ به من أمر أو نهي، أو وعد أو وعيد، أو خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته. أما القراءة المتأنية فتمنح المعنى فرصة للحضور، وتساعد على ملاحظة الانتقالات بين مقاطع السورة، وعلى إدراك الصلات بين الآيات، وعلى استحضار ما تتضمنه من توجيه وهداية.

غير أن الترتيل لا ينبغي أن يُختزل في البطء وحده، كما لا ينبغي أن يُربط الانتفاع بالقرآن بمستوى معين من جمال الصوت. فقد يكون القارئ حسن الصوت، لكنه لا يتجاوز حدود الأداء إلى الفهم والعمل، وقد يكون صوته عادياً، لكنه يقرأ قراءة صحيحة، ويستحضر المعنى، ويستجيب لما يتضمنه الخطاب. والمقصود أن حسن الأداء وسيلة لخدمة التلاوة، وأن كمال الانتفاع يتطلب ألا تنفصل سلامة اللفظ عن حضور المعنى.

وفي هذا السياق، ينبغي التمييز بين تحسين الصوت المشروع الذي يعين على الإقبال على القرآن، وبين التكلف الذي يجعل الزخرفة الصوتية محور القراءة، أو يفضي إلى الإخلال بالحروف والحركات. فالمعيار ليس أن يلفت القارئ الأنظار إلى أدائه، وإنما أن يؤدي كلام الله أداءً صحيحاً، متأدباً به، مستعياً به على التدبر.

ومن ثم، فإن الترتيل يمثل المدخل الأول إلى آداب التلقي؛ لأنه ينظم العلاقة بين اللسان والسمع والقلب، ويهيئ القارئ للانتقال من مجرد التلفظ بالنص إلى الإصغاء إلى دلالاته. وليس معنى ذلك أن كل قراءة مرتلة تستلزم التدبر تلقائيًا، بل إن الترتيل يهيئ أسبابه، ويبقى على القارئ أن يجاهد نفسه في استحضار المعاني، وأن يتابع أثرها في اعتقاده وسلوكه.

ثانيًا: الإنصات والتأني

يحتاج تلقي القرآن إلى إنصات يحلر انتباه القارئ من المشتتات، ويمنحه فرصة لمتابعة الخطاب الإلهي دون أن تتوزع نفسه بين ألفاظه ومشاغله. والإنصات هنا أوسع من مجرد السكوت؛ إذ يشمل الإصغاء الواعي، ومتابعة المعنى، والتوقف عند ما يستدعي التفكير، واستحضار أن الآيات ليست كلمات عابرة، بل خطاب يحمل الهداية والتذكير والتكليف.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقد وردت في تفسير الآية أقوال تتصل بسياق القراءة والصلاة والاستماع، ولذلك ينبغي ألا يُوسَّع الاستدلال بها في تقرير أحكام الإنصات خارج سياقها دون الرجوع إلى أقوال المفسرين والفقهاء. ومع ذلك، فإن الآية تدل في أصل معناها على شرف الاستماع المنضبط للقرآن، وعلى ارتباطه برجاء الرحمة.

أما التأني، فهو أن يمنح القارئ الآيات الزمن الذي تحتاج إليه حتى تتضح له دلالاتها، بدل أن يجعل عدد الصفحات أو مقدار ما أنجزه من القراءة المعيار الوحيد لنجاح ورده. فقد يقرأ الإنسان مقدارًا قليلًا من القرآن، لكنه يقف عنده وقفات واعية، ويستخرج منه معنى صحيحًا، ويتفكر في مقتضاه العملي؛ وقد يقرأ مقدارًا كبيرًا مع ضعف التركيز، فلا يبقى من قراءته إلا أثر محدود في الوعي والسلوك.

ولا يعني ذلك تفضيل القليل على الكثير بإطلاق، أو التقليل من فضل كثرة التلاوة، وإنما المقصود تصحيح العلاقة بين الكم والكيف. فكثرة القراءة فضيلة إذا أُديت على الوجه المشروع، والتدبر مقصد عظيم، ولا يلزم أن يتعارضوا. يستطيع القارئ أن يجمع بين ورد منتظم يحقق له الاستمرار في التلاوة، ووقفات تدبرية يخصصها للآيات التي تحتاج إلى مزيد من الفهم والتأمل.

وتتطلب ممارسة الإنصات والتأني معالجة العوامل التي تضعف حضور القلب، ومنها الانشغال بالهاتف، وتعدد المهام، والقراءة في حال من الإرهاق الشديد، واستعجال الانتهاء من الورد. ولا يلزم أن ينتظر القارئ زوال جميع مشاغله حتى

يقرأ، لكن من الحكمة أن يختار قدر الإمكان وقتًا ومكانًا يساعده على التركيز، وأن يتعامل مع تشتت ذهنه بالصبر وإعادة الانتباه إلى الآيات.

كما ينبغي التمييز بين الإنصات الذي يعين على التدبر وبين الانشغال بمراقبة المشاعر أثناء القراءة؛ فليس المطلوب أن يفتش القارئ في نفسه باستمرار بحثًا عن أثر وجداني معين، وإنما أن يوجه انتباهه إلى كلام الله، ويترك للمعنى أن يؤثر فيه بقدر ما يتهيأ له من فهم واستجابة.

إن الإنصات والتأني آداب عملية تحمي التلاوة من الاستهلاك السريع، وتعيد إلى القارئ وعيه بما يقرأ. وبقدر ما يستقر هذا الأدب في الممارسة اليومية، تصبح القراءة أكثر قدرة على تنمية الوعي بالمعنى، وتهيئة النفس للتفاعل مع مقتضياته.

ثالثًا: التكرار واستحضار المعنى

يُعد التكرار من الوسائل المهمة في تعميق الصلة بالقرآن؛ لأنه يتيح للقارئ العودة إلى الآية الواحدة مرات متعددة، فيكتشف من دلالاتها ما قد لا ينتبه إليه في القراءة الأولى. وقد يقرأ الإنسان الآية فيمر على لفظها ومعناها الإجمالي، ثم يعود إليها فيلاحظ ارتباطها بما قبلها وما بعدها، أو يتوقف عند أمر تتضمنه، أو يدرك صلتها بموقف من مواقف حياته.

وقد دلت السنة النبوية على مشروعية تكرار الآيات في القراءة، ومن ذلك ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بآية يرددها حتى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١٨]. أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، في باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل. وتراجع درجة الحديث وتخريجه التفصيلي في المصادر الحديثية المعتمدة عند إدراج الإحالة النهائية.

وتكشف دلالة هذا الخبر عن أن التكرار قد يكون تعبيرًا عن عمق التفاعل مع المعنى، لا مجرد إعادة للألفاظ. فالآية تتضمن تفويض الأمر إلى الله تعالى، والإقرار بملكه لعباده، واستحضار كمال عزته وحكمته. ويمكن للقارئ أن يجد في تكرارها مجالًا لتجديد التأمل في معاني العبودية والافتقار إلى الله، وفي العلاقة بين الرحمة والحكمة، دون أن ينسب إلى التكرار آثارًا مخصوصة لم يثبت بها دليل.

ويختلف التكرار المثمر عن التريديد الآلي في أن الأول يصحبه انتباه إلى المعنى، بينما قد ينشغل الثاني بتكرار اللفظ دون متابعة دلالاته. وليس المقصود الحكم على كل تكرار خالٍ من التأمل بأنه عديم الأجر، فالتلاوة عبادة، وللقراءة فضلها، ولكن

المقصود بيان أن التكرار يصبح أداة تربوية أعمق عندما يقترن بالفهم واستحضار المقاصد.

ويمكن للقارئ أن يمارس هذا الأدب على نحو متدرج: فيقرأ الآية أولاً قراءة صحيحة، ثم يتعرف إلى معناها من تفسير موثوق، ثم يعيد قراءتها متأملاً دلالتها، ثم يسأل نفسه عن مقتضاها في الاعتقاد أو العبادة أو السلوك. فإذا كانت الآية تتناول الصبر، تأمل معناه وحدوده، وإذا كانت تنهى عن الغيبة، راجع علاقته بأعراض الناس، وإذا كانت تأمر بالعدل، نظر في مواضع العدل التي تتطلبها مسؤولياته اليومية.

لكن هذه الممارسة لا تعني حصر معنى الآية في تجربة القارئ الشخصية؛ فالتجربة قد تساعد على إدراك وجه من وجوه الانتفاع، لكنها لا تستقل بتحديد المراد الإلهي. ولهذا يجب أن يظل التكرار مرتبطاً بالفهم الصحيح، وأن يُعرض ما ينشأ عنه من استنباطات على دلالة النص وسياقه وأقوال أهل العلم. ومن المهم كذلك ألا يتحول التكرار إلى وسيلة لإرهاق النفس أو فرض انفعالات معينة عليها. فقد يقرأ الإنسان الآية مرات ولا يظهر له في كل مرة معنى جديد، وهذا أمر طبيعي؛ إذ ليس المقصود أن ينتج عن كل تكرار اكتشاف مستقل، وإنما أن تعمق الألفة بالمعنى، وأن تترسخ دلالاته، وأن تتجدد فرصة الاستجابة له. وبذلك يصبح التكرار وسيلة لبناء معرفة قرآنية متدرجة، تتكامل فيها الذاكرة مع الفهم، ويتصل فيها المعنى بالوجدان والعمل.

رابعاً: مراعاة أوقات القراءة وأحوال القارئ

تتأثر جودة التلقي بالظروف التي تتم فيها القراءة، ولذلك فإن اختيار الوقت المناسب، ومراعاة أحوال النفس والجسد، من الوسائل التي تعين على استدامة الصلة بالقرآن. ولا يعني ذلك أن للقرآن أوقاتاً لا تصح القراءة فيها من حيث الأصل، أو أن الانتفاع متوقف على ظروف مثالية، وإنما المقصود أن تنظيم القراءة بما يناسب قدرة الإنسان يساعد على تحقيق الاستمرار وحسن التركيز.

وقد أثنى الله تعالى على أهل الاستقامة الذين تتصل عبادتهم بتلاوة كتابه، فقال سبحانه: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]. وتدل الآية على فضل التلاوة والعبادة في الليل في سياق وصف أهل الإيمان، لكنها لا تقتضي حصر التلاوة الفاضلة في هذا الوقت دون سائر الأوقات.

وقد ثبت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن، وأن قيام الليل كان من عباداته العظيمة. كما جاءت النصوص في فضل الاجتماع على كتاب الله

وتعلمه وتعليمه. ويستفاد من مجموع هذه المعاني أن انتظام الصلة بالقرآن أهم من تعليقها على ظرف عارض، وأن اختيار الأوقات ينبغي أن يخدم مقصد المداومة والتدبر.

وقد يجد بعض القراء أن أوقات الصباح أقدر على مساعدتهم على التركيز، بينما يجد آخرون ذلك في المساء أو في جزء من الليل. والاختلاف في هذه الأحوال أمر معتبر في تنظيم العبادات المستحبة، ما دام لا يؤدي إلى الإخلال بالواجبات أو تضييع الحقوق. فليس من الحكمة أن يضع الإنسان لنفسه برنامجًا يفوق طاقته، ثم ينقطع عنه سريعًا، كما ليس من الحكمة أن يجعل انشغاله الدائم مبررًا لإهمال القرآن.

ومراعاة أحوال القارئ تشمل كذلك الانتباه إلى أثر التعب والقلق والضغط النفسي. فقد تكون القراءة في حال من الإرهاق الشديد أقل قدرة على تحقيق التدبر، فيحتاج الإنسان إلى تخفيف مقدار القراءة أو توزيعها على فترات. وقد يكون ذهنه مشغولًا بمشكلة عاجلة، فيقرأ مقدارًا يسيرًا، ثم يعود إلى ورد أطول عندما يستقر انتباهه. والمهم أن يتعامل مع هذه الظروف بواقعية، من غير أن يجعلها بابًا دائمًا للتسويق.

ويحتاج القارئ أيضًا إلى الموازنة بين أهدافه المختلفة؛ فمن كان هدفه تثبيت الحفظ، احتاج إلى وقت مناسب للمراجعة، ومن كان هدفه تعميق الفهم، احتاج إلى مساحة للتفسير والتأمل، ومن أراد الجمع بين المقاصد، أمكنه تخصيص أوقات أو أيام تتفاوت فيها طبيعة الممارسة. ولا يلزم أن تؤدي كل جلسة قرآنية الوظائف كلها بالمقدار نفسه.

وتنبغي الإشارة إلى أن مراعاة الأحوال لا تعني جعل الراحة شرطًا للتلاوة، ولا تبرير تركها كلما ضعفت الرغبة. فالمداومة على العبادة تحتاج إلى مجاهدة، كما تحتاج إلى حكمة في تنظيم الجهد. ومن هنا، فإن البرنامج الناجح هو الذي يجمع بين الانضباط والمرونة: انضباط يمنع الانقطاع، ومرونة تسمح باستمرار العمل عند تغير الظروف.

وخلاصة هذا المطلب أن حسن اختيار الوقت والقدر المناسبين للقراءة ليس غاية مستقلة، بل وسيلة لحماية الصلة بالقرآن من الاضطراب والانقطاع، ولتهيئة ظروف أقرب إلى حضور القلب واستمرار العمل.

المبحث الثاني: التدبر وفهم المعنى

أولاً: معنى التدبر وصلته بالفهم

يمثل التدبر أحد المقاصد المركزية للتعامل الواعي مع القرآن الكريم؛ لأنه ينقل القارئ من الوقوف عند ظاهر الألفاظ إلى النظر في دلالاتها ومقاصدها، والتفكير في علاقاتها، واستحضار ما تقتضيه من اعتقاد وعمل. ولا ينفصل التدبر عن الفهم الصحيح، بل يتأسس عليه ويستثمره في بناء الوعي والاستجابة.

وقد ورد الأمر بالتدبر في آيات متعددة، منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. وترتبط هذه الآيات بين إنزال القرآن والتدبر والتذكر، بما يدل على أن تلقيه لا يستكمل مقصوده بمجرد معرفة ألفاظه، بل يحتاج إلى نظر يفضي إلى الاعتبار والانتفاع.

والتدبر، من حيث دلالاته العامة، هو التأمل في المعاني والعواقب وما يترتب على الخطاب من مقتضيات. أما الفهم فيتعلق بإدراك المعنى الذي تدل عليه الآية وفق اللغة والسياق وما يتصل بها من بيان شرعي. وبين الأمرين علاقة تكامل؛ إذ لا يكون التدبر المنضبط ممكنًا من غير فهم، كما أن الفهم قد يظل معرفة ذهنية محدودة إذا لم يتبعه نظر في المقاصد والآثار ومجالات التطبيق.

ومن الخطأ اختزال التدبر في التأثير العاطفي وحده، كما أنه من الخطأ قصره على التحليل الذهني المجرد. فقد يفهم القارئ دلالة الآية فهمًا صحيحًا، ثم يتدبر أثرها في حياته، فيدرك ما تستدعيه من مراجعة موقف أو تصحيح اعتقاد أو التزام خلق. وقد يتأثر وجدانيًا بآية، لكن هذا التأثير لا يغني عن فهم معناها، ولا يضمن وحده سلامة ما يستخلصه منها.

ويقتضي التدبر كذلك التمييز بين مراتب النظر في القرآن. فهناك فهم المعنى اللغوي والسياقي، وهناك استنباط ما تسمح به الآية من دلالات وأحكام، وهناك اعتبار القارئ بما يقرؤه في ضوء واقعه الشخصي. وهذه المراتب مترابطة، لكنها ليست متساوية من حيث شروطها؛ فاستنباط حكم شرعي يحتاج إلى أهلية علمية وأدوات استدلال، بينما يستطيع القارئ أن ينتفع بالمعنى الثابت في مراجعة سلوكه، دون أن يدعي لنفسه قدرة على إنشاء أحكام أو تفسير النصوص بغير علم.

ومن هنا، فإن التدبر المسؤول يجمع بين الانفتاح على هداية القرآن والتواضع أمام دلالاته. فلا يُغلق باب الاعتبار بحجة أن فهم القرآن خاص بالمختصين، ولا يُفتح باب القول على الله بغير علم بحجة أن لكل قارئ تدبره الخاص. فالمطلوب

أن يتعلم الإنسان ما يحتاج إليه من المعاني، وأن يرجع إلى التفسير الموثوق عند الإشكال، وأن يميز بين ما يدل عليه النص وما يستحضره هو من خواطر وتجارب. وبهذا المعنى، يصبح التدبر عملية معرفية وتربوية متكاملة: يبدأ بفهم الدلالة، ويتوسع في إدراك المقصد، ثم يختبر إمكان الاستجابة في حياة القارئ. وليس شرطاً أن يفضي كل تدبر إلى استنباط جديد؛ فقد تكون ثمرة التدبر تثبيت معنى معلوم، أو تجديد التذكر، أو تصحيح فهم سابق، أو زيادة الوعي بمسؤولية سبق أن عرفها الإنسان.

ثانيًا: فهم الآيات في سياقها

لا يستقيم فهم القرآن الكريم بمجرد اقتطاع الآيات من سياقاتها أو تحميل ألفاظها معاني لا يساعد عليها نظمها. فالآية جزء من خطاب مترابط، وقد يتضح معناها بالنظر إلى ما قبلها وما بعدها، أو إلى موضوع السورة، أو إلى سبب النزول إذا ثبت، أو إلى البيان النبوي الذي يوضح المراد منها.

ويشمل السياق عدة مستويات متكاملة. أولها السياق اللفظي القريب، أي علاقة الآية بما يسبقها ويلحقها من آيات. وثانيها السياق الموضوعي للسورة، إذ قد تتوزع عناصر الموضوع الواحد على مقاطع متعددة، وتتكامل دلالاتها عبر ترتيبها. وثالثها السياق التاريخي المتصل بأسباب النزول والأحوال التي نزلت فيها الآيات، متى ثبتت الروايات المتعلقة بذلك. ورابعها السياق القرآني العام، الذي تُفهم فيه الآية على ضوء النصوص الأخرى ذات الصلة بالموضوع نفسه.

وتبرز أهمية هذا المنهج في أن اللفظ الواحد قد تتعدد دلالاته بحسب السياق، وأن الجملة قد تتغير جهة الاستدلال بها إذا فُصلت عن القرائن المحيطة بها. ولذلك كان جمع الآيات ذات الصلة من الخطوات المهمة في دراسة الموضوعات القرآنية، بدل الاعتماد على آية واحدة مع إغفال النصوص الأخرى التي تفسرها أو تقيد دلالتها أو تبين مجال تطبيقها.

ومن الأمثلة المنهجية على ذلك أن بعض الآيات تتضمن ألفاظًا عامة، بينما تأتي نصوص أخرى لتوضح كيفية تنزيلها أو بيان حدودها. وقد يكون المعنى اللغوي للفظ أوسع من المراد في موضع معين، أو يكون الحكم متعلقًا بقرينة لا تظهر عند اقتطاع النص. ومن ثم، فإن القراءة الواعية تتطلب مقاومة الميل إلى الاستدلال السريع، خاصة عندما تتصل الآيات بقضايا خلافية أو أحكام شرعية أو مواقف اجتماعية معقدة.

كما أن معرفة أسباب النزول قد تساعد على فهم الملابسات التي ورد فيها الخطاب، لكنها لا تعني بالضرورة حصر دلالاته في الواقعة التاريخية التي نزل بشأنها. فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور الأصوليين في المواضع التي ينطبق عليها هذا الأصل، مع مراعاة القرائن التي قد تخصص العموم أو تبين نطاقه. ولا يجوز تحويل هذه القاعدة إلى حكم آلي يُطبق دون دراسة طبيعة النص ودلالته.

ويحتاج القارئ كذلك إلى الانتباه إلى أن ترتيب الآيات في المصحف، وترابط المقاطع، واختلاف موضوعات السورة، كلها عناصر تساعد على فهم البناء الدلالي للنص. فقد يتناول المقطع الواحد العقيدة والتشريع والتربية معاً، وقد ينتقل الخطاب من تقرير حقيقة إلى ذكر دليلها، ثم إلى بيان أثرها العملي. وإذا عزل القارئ هذه العناصر بعضها عن بعض، فقد يفوته جانب من مقصد الخطاب.

ومن التطبيقات العملية لمراعاة السياق أن يقرأ الإنسان المقطع الذي ترد فيه الآية كاملة، ثم يحدد موضوعه العام، ثم يراجع تفسيراً موثقاً، ثم يقارن المعنى المستفاد بما ورد في النصوص الأخرى ذات الصلة. وإذا بقي الإشكال، فلا يتعجل في بناء نتيجة، بل يثبت المسألة حتى يتضح له وجه الدلالة.

ولا تعني مراعاة السياق منع القارئ من الاعتبار الشخصي بالآية، وإنما تعني أن يكون الاعتبار مبنياً على معنى صحيح. فقد يجد الإنسان في آية ما تذكيراً يناسب حاله، لكن هذا التناسب لا يبيح له تغيير معناها الأصلي أو ادعاء أنها نزلت بشأنه. فالانتفاع الشخصي مشروع في حدوده، أما إعادة تشكيل الدلالة وفق التجربة الفردية فليست من التدبر المنضبط.

وهكذا يشكل السياق أحد الضوابط الأساسية التي تحمي التدبر من التعسف، وتتيح للقارئ أن ينتفع بالقرآن دون أن ينسب إليه ما لا يدل عليه.

ثالثاً: الاستعانة بالتفسير الموثوق

يحتاج التدبر إلى أدوات معرفية تعينه على تجاوز الفهم الأولي إلى إدراك المعنى الصحيح، ويأتي التفسير في مقدمة هذه الأدوات؛ لأنه يوضح دلالات الألفاظ، ويبين السياقات، ويعرض ما يتصل بالآيات من أسباب النزول والقراءات والأحكام والأقوال التفسيرية.

ولا يعني الأمر بالتدبر أن يستغني كل قارئ عن علوم التفسير، كما لا يعني الرجوع إلى كتب التفسير أن التدبر مقصور على العلماء. وإنما يقتضي المنهج المتوازن أن ينتفع القارئ بما تيسر له من الفهم، وأن يرجع إلى أهل العلم ومصادر التفسير عند

الحاجة، وأن يدرك الفرق بين التدبر الذي يطلب به الاعتبار والعمل، والتفسير الذي يتطلب معرفة أوسع باللغة وأصول الاستدلال وطرق الجمع بين النصوص. وتتفاوت كتب التفسير في مناهجها وغاياتها؛ فمنها ما يعتني بالمأثور وأقوال السلف، ومنها ما يتوسع في التحليل اللغوي والبلاغي، ومنها ما يركز على الأحكام الفقهية، ومنها ما يبرز المقاصد والهدايات العامة. ولا يكفي وصف كتاب بأنه مشهور أو واسع الانتشار للحكم بأن كل ما فيه صحيح أو أن جميع أقواله متفق عليها؛ بل ينبغي النظر في طبيعة المصدر، ومنهج مؤلفه، ومقدار عنايته بتمييز الروايات والأقوال، ومدى مناسبة الكتاب لمستوى القارئ والسؤال الذي يبحث عنه.

ومن التفاسير المعروفة التي يمكن الرجوع إليها تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن عاشور. ولكل واحد منها خصائص منهجية تميزه؛ فتفسير الطبري من المصادر الكبرى في التفسير بالمأثور والعناية بأقوال السلف، ويبرز في تفسير ابن كثير الاهتمام بالروايات والآثار وتفسير القرآن بالقرآن والسنة، بينما يتوسع القرطبي في مسائل الأحكام، ويتميز تفسير ابن عاشور بالعناية بالتحليل البلاغي والمقاصد والنظر في نظم الآيات.

ولا يعني ذكر هذه المصادر أنها متطابقة في مناهجها أو أن كل ما يرد فيها بمنزلة واحدة من حيث القوة؛ إذ قد تختلف الأقوال التي يعرضها المفسرون، وقد يحتاج الترجيح بينها إلى أدوات علمية. ولذلك يحسن بالقارئ غير المتخصص أن يستفيد من عرض المعاني الإجمالية، وأن يتجنب الجزم في المسائل التي تتطلب موازنة بين الأدلة أو معرفة بالخلاف التفسيري.

ويبدأ الرجوع إلى التفسير بتحديد السؤال الذي يحتاج القارئ إلى جوابه: هل الإشكال في معنى لفظ؟ أم في ارتباط الآية بما قبلها؟ أم في سبب نزولها؟ أم في الحكم الذي يستفاد منها؟ أم في كيفية تنزيل المعنى على الواقع؟ فتحديد السؤال يساعد على اختيار المصدر المناسب، ويمنع التوسع غير الضروري في مسائل لا يحتاج إليها القارئ في تلك المرحلة.

كما ينبغي التثبت من صحة الأحاديث والآثار التي يستدل بها عند تفسير الآيات، وعدم التسوية بين الروايات الصحيحة والضعيفة لمجرد ورودها في كتاب تفسيري. فوجود الرواية في مصدر معروف لا يغني، عند الحاجة إلى الاستدلال بها، عن التحقق من درجتها، ولا سيما إذا ترتب عليها إثبات حكم أو تقرير فضيلة مخصوصة أو بناء اعتقاد.

ومن الضوابط المهمة كذلك ألا يكتفي القارئ بعبارات مقتطعة من كتب التفسير أو من منشورات متداولة، فقد يؤدي الاقتطاع إلى تغيير المراد أو إخفاء الخلاف الذي عرضه المؤلف. والأولى أن يرجع إلى النص في موضعه، ويقرأ ما يكفي لفهم السياق، وينسب القول إلى صاحبه بدقة إذا احتاج إلى نقله.

وتتجلى القيمة التربوية للاستعانة بالتفسير في أنها تجمع بين التواضع المعرفي وحسن الانتفاع. فالقارئ لا يتخلى عن مسؤوليته في التفكير والعمل، لكنه لا يجعل انطباعه الشخصي بديلاً عن المعرفة الموثوقة. وهو بهذا يتعلم أن صحبة القرآن ليست مجرد علاقة وجدانية، بل علاقة تقوم أيضاً على التعلم والتثبت واحترام حدود المعرفة.

رابعاً: الجمع بين الفهم العقلي والتأثر الوجداني

لا يكتمل التلقي القرآني بمجرد إدراك المعاني على المستوى الذهني، كما لا يستقيم إذا اقتصر على الانفعال العاطفي دون فهم. فالقرآن يخاطب عقل الإنسان ووجدانه وإرادته، ويقدم له من المعارف والأخبار والأوامر والنواهي ما يقصد به تصحيح تصوره، وتزكية نفسه، وتوجيه عمله.

ويكشف النظر في الخطاب القرآني عن تداخل هذه الأبعاد؛ فالآيات التي تقرر وحدانية الله وقدرته تدعو إلى النظر والتفكير، وتوقظ في الوقت نفسه معاني التعظيم والافتقار. والآيات التي تذكر الجنة والنار تجمع بين الإخبار عن الآخرة واستثارة دوافع الرجاء والخشية. والآيات التي تأمر بالعدل والإحسان لا تقتصر على بيان حكم أخلاقي، بل توجه الإرادة إلى الالتزام به في الواقع.

ومن هنا، فإن الفهم العقلي ليس نقيضاً للتأثر الوجداني، بل هو أحد أسباب انضباطه. فعندما يفهم القارئ معنى الآية فهماً صحيحاً، يكون تأثيره أقرب إلى موافقة مقصدها، ويصبح قادراً على التمييز بين الانفعال الذي ينشأ عن المعنى الحقيقي وبين التأثير الذي قد ينتج من الإيقاع الصوتي أو من تصورات غير دقيقة عن النص.

وفي المقابل، يساعد التأثر الوجداني على نقل المعنى من مستوى المعرفة المجردة إلى مستوى الاهتمام العملي. فقد يعرف الإنسان فضل الصدق، لكنه يحتاج إلى أن يستحضر عواقب الكذب وآثاره في علاقته بالله والناس حتى تزداد إرادته قوة على التزام الصدق. وقد يعلم خطورة الظلم، لكن تذكر الحساب والوقوف بين يدي الله يعمق شعوره بالمسؤولية.

غير أن العلاقة بين المعرفة والتأثر ليست آلية؛ فقد يفهم الإنسان المعنى ولا يتأثر به في كل مرة، وقد يتأثر دون أن يحسن تطبيق ما فهمه. ولذلك لا يصح جعل غياب الانفعال دليلاً على فساد التلقي، ولا اعتبار شدة المشاعر برهاناً كافياً على صحة الفهم أو استقامة العمل.

ويحتاج القارئ إلى ممارسة تجمع بين السؤال المعرفي والسؤال الوجداني: ماذا تعني الآية؟ وما الذي تدعوني إلى إدراكه أو الشعور به أو فعله؟ ويُضاف إلى ذلك سؤال تقويمي: هل يتفق ما استخلصته مع سياق الآية وما قرره أهل التفسير، أم أنني حملتها على معنى لا يدل عليه النص؟

وتفيد هذه الأسئلة في تحقيق التوازن بين العقل والوجدان؛ إذ تمنع جفاف القراءة التي تتحول فيها الآيات إلى معلومات لا تمس السلوك، كما تمنع التأثر المنفلت الذي يفسر النص بحسب الانطباع اللحظي. والمقصود أن يكون القلب حاضرًا، والعقل منضبطًا، والإرادة مستعدة للاستجابة.

وبذلك يتبين أن التدبر ليس حالة وجدانية عابرة، ولا عملية عقلية مغلقة، بل ممارسة تجمع بين فهم الخطاب والتفاعل معه واستحضار مقتضاه العملي. وكلما تكاملت هذه العناصر، اقتربت القراءة من تحقيق مقصود الهداية.

خامسًا: التمييز بين دلالة الآية والتأمل الشخصي فيها

من أهم ضوابط التدبر التمييز بين المعنى الذي تدل عليه الآية وبين ما يستحضره القارئ من فوائد شخصية عند قراءتها. فالنص القرآني له دلالاته التي تضبطها اللغة والسياق وعلوم التفسير وأصول الاستدلال، بينما قد يكتشف القارئ في ضوء هذه الدلالات معنى تربويًا أو تطبيقًا عمليًا يناسب ظروفه. ولا يلزم من صحة هذا التطبيق بالنسبة إليه أن يكون هو المعنى الأصلي للآية أو الغرض الوحيد منها.

فإذا قرأ الإنسان آيات تتحدث عن الصبر، ثم وجد فيها ما يعينه على مواجهة ابتلاء يمر به، كان هذا وجهًا من وجوه الانتفاع إذا استند إلى معنى صحيح. لكنه لا يحق له أن يجزم بأن الآيات نزلت في شأنه، أو أن يجعل تجربته الخاصة تفسيرًا ملزمًا للنص، أو أن ينسب إلى الله وعدًا مخصصًا لم يرد به دليل.

وتزداد أهمية هذا التمييز في زمن تنتشر فيه الخواطر التفسيرية المختصرة، والرسائل الوعظية التي تربط آيات معينة بأحداث يومية، وتقدم بعض الانطباعات الشخصية على أنها معانٍ قطعية. فقد تكون بعض هذه التأملات نافعة من جهة التذكير، لكنها قد تتضمن أيضًا تعميمات غير منضبطة أو استنتاجات لا يسند لها

السياق. ولذلك ينبغي تقويمها بحسب مضمونها ودليلها، لا بحسب تأثيرها العاطفي أو حسن صياغتها.

ويمكن التمييز بين ثلاثة مستويات في التعامل مع الآية:

١. **دلالة النص:** وهي المعنى الذي يثبته النظر المنضبط في اللغة والسياق والتفسير، ولا يجوز تغييره لمجرد اختلاف التجارب الشخصية.

٢. **الفائدة المستنبطة:** وهي معنى إضافي أو نتيجة تربوية يمكن أن تدل عليها الآية بوجه معتبر، وتحتاج إلى التثبت بحسب طبيعة الاستنباط.

٣. **التطبيق الشخصي:** وهو ربط المعنى الثابت بواقع القارئ، كأن يستحضر أمرًا أو نهائيًا في موقف يعيشه، دون أن يدعي أن هذا التطبيق هو التفسير الوحيد للآية.

وهذه المستويات قد تتداخل في الممارسة، لكن الفصل بينها ضروري عند عرض التأملات على الآخرين أو نشرها أو الاستدلال بها. فما كان مجرد تطبيق شخصي، ينبغي التعبير عنه بعبارات تدل على ذلك، مثل: «أستفيد من الآية في هذا الموقف»، أو «تذكرني الآية بمسؤوليتي في هذا الجانب»، بدل الجزم بعبارات من قبيل: «المقصود بالآية حتمًا هو هذا الموقف».

ولا يعني هذا الضابط إغلاق باب التدبر على غير المتخصصين، بل يحميه من التحول إلى تفسير ذاتي لا تحكمه معايير. فكل مسلم يستطيع أن يتفكر في القرآن، وأن ينتفع بمعانيه الثابتة، وأن يراجع سلوكه في ضوءها؛ لكن القول في مراد الله، واستنباط الأحكام، وترجيح الأقوال التفسيرية، أمور تحتاج إلى العلم وأدواته.

وتبرز هنا قيمة التواصل العلمي؛ إذ يعترف القارئ بأن فهمه قد يكون ناقصًا، وأن الآية قد تحمل من الدلالات ما لا يحيط به، وأن الرجوع إلى العلماء لا يناقض التدبر، بل يصحح مساره. كما أن القارئ لا ينبغي أن يتردد في الانتفاع بمعنى واضح لمجرد أنه غير متخصص، ما دام لا يتجاوز حدود الدلالة ولا يدعي ما لا يعلم.

ومن ثم، فإن التمييز بين دلالة الآية والتأمل الشخصي فيها يمثل ضمانة أساسية لصحة القرآن على بصيرة. فهو يتيح للقراءة أن تظل قريبة من حياة الإنسان، من غير أن تتحول الحياة الخاصة إلى معيار لتفسير النص، ويجمع بين حيوية الانتفاع والانضباط العلمي.

المبحث الثالث: التفاعل الوجداني مع القرآن

أولاً: الخشوع عند آيات الوعيد

تتضمن آيات الوعيد تذكيراً بعواقب الكفر والمعصية والظلم، وبياناً لما أعده الله للمكذبين والعاصين من العقاب بحسب ما تقررره النصوص. والمقصود من هذه الآيات ليس مجرد إثارة الخوف، وإنما إيقاظ الضمير، وتصحيح السلوك، ودعوة الإنسان إلى مراجعة موقفه من أوامر الله ونواهيه.

وقد وصف الله تعالى أهل الإيمان بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]. ويشير هذا الوصف إلى أن ذكر الله يحدث في القلب أثراً يتصل بالإيمان، وأن هذا الأثر ليس منفصلاً عن حقيقة التلقي. فالوجل هنا ليس حالة من الذعر المجرد، بل شعور بالتعظيم والخشية يحمل صاحبه على مراجعة نفسه والرجوع إلى الله.

وعندما يقرأ المسلم آيات الوعيد، ينبغي أن يستحضر أنها خطاب هداية وإنذار، وأن الغاية منها حماية الإنسان من أسباب الهلاك، لا دفعه إلى اليأس. فالخوف المشروع يدفع إلى التوبة وإصلاح العمل، أما الخوف الذي يفضي إلى القنوط أو اعتقاد انعدام إمكان المغفرة، فيحتاج إلى تصحيح من خلال النصوص التي تجمع بين الوعيد والوعد، وتبين سعة رحمة الله تعالى.

كما أن الخشوع عند آيات الوعيد لا يعني أن يحكم القارئ على نفسه بالهلاك بسبب ذنب وقع فيه، ولا أن يقطع بمصير شخص بعينه استناداً إلى انطباعه عن النص. فالحكم على الأعيان ومآلاتهم له ضوابطه الشرعية، والواجب على الإنسان أن يتعامل مع الوعيد بوصفه دعوة إلى الحذر والتوبة، لا وسيلة لإصدار أحكام قطعية على نفسه أو غيره.

ومن الناحية العملية، يمكن للقارئ أن يسأل نفسه عند المرور بآيات الوعيد: ما السلوك الذي تحذر منه الآية؟ وما الحق الذي ينبغي أن أؤديه؟ وهل يوجد في حياتي تقصير يحتاج إلى توبة أو تصحيح؟ وبهذا يتحول الخوف من انفعال عابر إلى مراجعة أخلاقية مسؤولة.

ويجب كذلك التفريق بين الخشوع وبين شدة الانفعال الظاهر؛ فقد يخشع الإنسان دون بكاء، وقد يتأثر ويبكي دون أن يترتب على ذلك تغيير في السلوك. ولا يصح اتخاذ المظاهر الوجدانية وحدها معياراً للحكم على صدق الخشية، لأن حقيقة أثرها تتصل بما ينتج عنها من استقامة ومراجعة للنفس.

إن آيات الوعيد تؤسس لنوع من الوعي يحفظ الإنسان من الغرور، ويذكره بمسؤوليته عن اختياراته. والخشوع المقصود هو الذي يجمع بين إدراك خطورة المخالفة، والاعتراف بالحاجة إلى الله، والعمل على تصحيح المسار، مع بقاء الرجاء في رحمته.

ثانيًا: الرجاء عند آيات الوعد

إذا كانت آيات الوعيد توقظ الشعور بالمسؤولية والخشية، فإن آيات الوعد تفتح أمام الإنسان أفق الرجاء، وتذكره بسعة رحمة الله، وما أعدّه للمؤمنين من الثواب، وما شرعه لعباده من أبواب التوبة والإصلاح. ولا يمثل الرجاء نقيضًا للخوف في البناء الإيماني، بل يكمله ويمنع الخشية من الانقلاب إلى اليأس.

قال الله تعالى: ﴿تَبَيَّنْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٠-٤٩). وقد جمعت الآيتان بين الإخبار عن المغفرة والرحمة، والتذكير بشدة العذاب. ويكشف هذا الجمع عن ضرورة النظر إلى النصوص الشرعية في تكاملها، وعدم بناء التصور الإيماني على جانب واحد مع إهمال الجانب الآخر.

والرجاء الشرعي ليس مجرد تمنٍّ أو شعور بالطمأنينة، بل هو توقع فضل الله مع الأخذ بأسباب الطاعة والتوبة والإصلاح. أما التمني الذي يطمئن صاحبه إلى المغفرة مع الإصرار على المعصية والإعراض عن الواجبات، فلا يحقق المعنى التربوي للرجاء؛ لأنه يفصل الأمل عن المسؤولية.

وتظهر القيمة العملية لآيات الوعد في أنها تعين الإنسان على مواصلة الطريق بعد التقصير، وتمنعه من الاستسلام لفكرة أن أخطائه الماضية تغلق أمامه أبواب الإصلاح. فإذا قرأ آيات المغفرة، استحضر إمكان التوبة ووجوب المبادرة إليها، وإذا قرأ آيات الثواب، تجدد لديه الدافع إلى العمل الصالح، وإذا قرأ ما ورد في فضل الصبر والإحسان، ازداد وعيًا بأن المشقة التي يتحملها في سبيل الخير ليست بلا غاية.

ولا يعني الرجاء أن يتجاهل القارئ أسباب التقصير أو يستخف بعواقب الذنوب؛ فالأمل الصادق يحرك الإرادة، ولا يعطلها. ومن هنا، فإن القراءة المتوازنة تجمع بين الثقة برحمة الله والخوف من التقصير، وبين حسن الظن بالله وحسن العمل، دون أن يدعي الإنسان لنفسه ضمانًا لا يسنده دليل.

ويحتاج القارئ إلى أن يتعامل مع آيات الوعد باعتبارها دعوة إلى الثبات، لا مجرد مصدر للراحة النفسية. فحين يقرأ وعد الله للصابرين أو المحسنين أو المتقين،

يسأل نفسه عن الصفات التي ارتبط بها الوعد، وعن الوسائل التي تعينه على التحلي بها. وبذلك يصبح الرجاء قوة دافعة نحو العمل، لا وسيلة لتأجيله. كما ينبغي عدم إسقاط الوعود الواردة في النصوص على أشخاص أو وقائع معينة دون تحقق شروطها وانتفاء موانعها بحسب ما يقتضيه المقام. فالوعد الشرعي يُفهم في سياقه، وتُراعى فيه النصوص الأخرى التي تبين صفات أهله وشروط الانتفاع به.

إن الرجاء الذي ينشأ عن صحبة القرآن يعيد بناء علاقة الإنسان بماضيه وحاضره ومستقبله؛ فهو لا ينكر الخطأ، لكنه لا يستسلم له، ولا يتجاهل المسؤولية، لكنه لا يفقد الثقة بفضل الله. وهذا التوازن هو ما يجعل الرجاء عاملاً في الإصلاح والاستمرار.

ثالثاً: البكاء والتأثر وحدود الاستدلال بهما على الانتفاع

قد يتأثر القارئ بالقرآن حتى تدمع عيناه، وقد يظهر أثر التلاوة في خشوعه وسكونه وتغير حاله النفسي. وهذه صور من التفاعل الوجداني التي قد تكون صادقة ومحمودة، لكن تقويمها يحتاج إلى تمييز بين مشروعيتها من حيث الأصل، وبين اتخاذها معياراً وحيداً للحكم على مقدار الانتفاع بالقرآن.

وقد أثنى الله تعالى على من يتأثرون بسماع الوحي، فقال سبحانه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]. كما قال تعالى في وصف طائفة من أهل الكتاب الذين عرفوا الحق: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. وتربط الآية الثانية بين التأثر بالدمع ومعرفة الحق، وهو ما يبين أن التأثر القرآني ليس منفصلاً عن إدراك المعنى. وثبت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن وتأثر به، ومن ذلك ما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين طلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ عليه القرآن، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال له: «حسبك الآن»، فإذا عيناه تذرفان. والحديث متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم بالفاظ متقاربة.

وتدل هذه النصوص على مشروعية التأثر بالقرآن، وعلى أن البكاء قد يكون أثراً من آثار استحضار المعنى والخشوع. لكنها لا تجعل الدموع شرطاً لصحة التلاوة أو علامة لازمة على قبول العمل، ولا تدل على أن من لم يبك أقل إيماناً أو أضعف انتفاعاً من غيره.

فالاستجابة الوجدانية تتفاوت بين الناس بحسب طبائعهم وأحوالهم وتجاربهم، كما تتغير عند الشخص الواحد من وقت إلى آخر. وقد يقرأ الإنسان آيات الوعيد بقلب حاضر، فيشعر بالخوف ويدفعه ذلك إلى ترك معصية، دون أن يبكي. وقد يتأثر بآية من آيات الرحمة، فيتجدد رجاؤه، دون أن تظهر عليه علامة خارجية. وقد يبكي الإنسان لأسباب متعددة لا يمكن الجزم بأنها جميعًا تعبر عن درجة واحدة من التدبر أو الإيمان.

ومن هنا، ينبغي عدم تحويل البكاء إلى غاية مستقلة يسعى القارئ إلى تحصيلها بأي وسيلة. فالتكلف في استدعاء الدموع، أو مراقبة النفس بحثًا عن انفعال معين، قد يصرف الانتباه عن المعنى الذي يفترض أن يكون محور التلقي. كما أن استعراض التأثير أمام الآخرين قد يحول العبادة من علاقة خالصة بالله إلى ممارسة تتأثر بطلب الاعتراف الاجتماعي أو الثناء.

ولا يصح في المقابل التقليل من قيمة التأثير أو اعتباره أمرًا غير مهم؛ فالقلب جزء أصيل من عملية التلقي، والتفاعل الوجداني قد يساعد على تثبيت المعاني وتعميق الشعور بالمسؤولية. والمطلوب هو وضع التأثير في موضعه الصحيح: علامة محتملة على حضور المعنى، لا دليلًا قاطعًا على مقدار الانتفاع أو القبول.

ويمكن تقويم أثر القراءة من خلال النظر إلى ما يتجاوز اللحظة الوجدانية: هل زاد فهم القارئ لمعنى الآية؟ هل دفعه ذلك إلى مراجعة سلوكه؟ هل أصبح أكثر حرصًا على أداء الحقوق واجتناب الظلم؟ هل استمر أثر التلاوة بعد انتهاء المجلس؟ وهذه الأسئلة لا توفر مقياسًا كاملاً للحكم على باطن الإنسان، لكنها توجهه إلى الثمرة العملية التي ينبغي أن يعتني بها.

إن الدموع قد تكون صادقة وعميقة، وقد يكون الصمت والخشوع الداخلي أبلغ أثرًا من المظاهر الظاهرة. والمعتبر أن يبقى التأثير تابعًا للمعنى، وأن يتجه إلى إصلاح القلب والعمل، وألا يتحول إلى معيار للمفاضلة بين الناس أو للحكم على سرائرهم.

رابعًا: التفاعل مع الآيات دون تكلف أو ادعاء أحوال خاصة

يتطلب التفاعل الوجداني مع القرآن صدقًا وتلقائية وانضباطًا؛ فليس المطلوب أن يفرض القارئ على نفسه مشاعر معينة عند كل آية، ولا أن يدعي وصوله إلى أحوال روحية خاصة لمجرد ما يشعر به أثناء التلاوة. وإنما المطلوب أن يقرأ كلام الله بتعظيم، وأن يتفهم معانيه، وأن يفتح قلبه لما فيه من هداية، مع ترك المجال للاستجابة الطبيعية دون تصنع.

وقد يتوهم بعض القراء أن التدبر الناجح لا بد أن يصحبه بكاء أو انشراح شديد أو إحساس غير مألوف، فيشعر بالإحباط إذا لم يجد هذه الآثار. وهذا التصور يربط الانتفاع بمظاهر وجدانية متغيرة، ويغفل أن من أعظم آثار القرآن ما يتجلى في المعرفة الصحيحة، والثبات على الطاعة، وحسن الخلق، والقدرة على مقاومة الهوى.

كما أن الإحساس بالراحة أو السكينة أثناء التلاوة قد يكون أثرًا حسنًا، لكنه لا يكفي وحده لإثبات صحة فهم معين أو دلالة خاصة للآية. فالمشاعر، مهما كانت صادقة بالنسبة إلى صاحبها، لا تستقل بتقرير الأحكام الشرعية، ولا يجوز أن تُجعل مصدرًا لتخصيص النصوص أو إنشاء عبادات وهيئات لم يثبت بها دليل.

ومن الضوابط الأساسية هنا التمييز بين التجربة الشخصية والدعوى الشرعية. فمن حق القارئ أن يقول إنه شعر بالطمأنينة عند قراءة آية، أو إنه وجد فيها ما أعانه على الصبر، ما دام يعبر عن تجربته بصدق. أما أن يقرر أن هذه الآية تحمل سرًا خاصًا لا يعرفه غيره، أو أن قراءتها بعدد معين تحقق نتيجة محددة لم يثبت بها دليل، أو أن شعوره الشخصي يكشف له حكمًا شرعيًا ملزمًا، فهذه دعاوى تحتاج إلى برهان، ولا يكفي فيها مجرد الإحساس.

وتنبغي العناية كذلك بأدب الحديث عن التجارب الإيمانية؛ فليس كل ما يشعر به الإنسان صالحًا للتعميم، ولا كل تجربة نافعة لصاحبها دليلًا على مشروعية طريقة معينة للعبادة. وقد يكون بعض ما يشعر به القارئ متأثرًا بالإرهاق أو التوقع أو ظروفه النفسية، دون أن يقلل ذلك من صدق تجربته الشخصية، لكنه يمنع تحويلها إلى حقيقة شرعية عامة.

ويشمل ترك التكلف أن يسمح القارئ لنفسه بالقراءة الهادئة حتى عندما لا يجد انفعاليًا قويًا، وأن يواصل التعلم والعمل دون انتظار حالة وجدانية مثالية. فالعبادة تقوم على الصدق والاستمرار، لا على مطاردة المشاعر. وقد يكون الثبات على ورد يومي في وقت الفتور من مظاهر المجاهدة المهمة، وإن لم يصحبه الشعور نفسه الذي وجده القارئ في أوقات أخرى.

كما ينبغي تجنب مقارنة الاستجابات الوجدانية بين الناس؛ فاختلاف الطبائع لا يسمح بالحكم على درجات الإيمان من خلال المظاهر وحدها. وقد يكون شخص كثير الدمع، وآخر قليل التعبير، وكلاهما يحتاج إلى النظر في صدقه وعمله واستقامته دون ادعاء القدرة على معرفة ما في القلوب.

إن التفاعل القرآني الصحيح يحرر الإنسان من التصنع ومن التعلق بالأحوال العارضة، ويوجهه إلى جوهر العلاقة بكلام الله: الفهم، والتعظيم، والاستجابة. وكلما تحرر القارئ من طلب المظاهر، كان أقدر على استقبال الآيات بصدق، وعلى تحويل أثرها إلى عمل مستمر.

المبحث الرابع: من التدبر إلى الاستجابة

أولاً: تحويل المعنى إلى سؤال عملي

لا ينبغي أن يقف التدبر عند إدراك معنى الآية أو التأثير بها، بل يتجه إلى استحضار مقتضاها العملي بحسب ما تدل عليه. فالقرآن يوجه الإنسان إلى الإيمان والعبادة والأخلاق والعدل والإحسان، ويكشف له عن مسؤولياته تجاه الله ونفسه والناس. ومن ثم، فإن السؤال عن أثر الآية في العمل يمثل حلقة وصل بين الفهم والاستجابة.

وقد قرر القرآن أن غاية إنزاله لا تقتصر على التلاوة، فقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. فالتدبر يرتبط بالتذكر، والتذكر يهيئ للامتثال والاعتبار. وليس المقصود أن كل آية تنتج تكميلاً جديداً يضيفه القارئ إلى نفسه، بل أن يدرك ما تتضمنه من هداية، ويحدد مجال الاستجابة المناسب لها.

ويمكن تحويل المعنى إلى سؤال عملي من خلال خطوات متتابعة. يبدأ القارئ بتحديد المعنى الثابت للآية، ثم ينظر في نوع الخطاب الذي تتضمنه: أهو أمر أم نهي، أم خبر يرسخ الإيمان، أم مثل يدعو إلى الاعتبار، أم وصف لخلق محمود أو مذموم؟ وبعد ذلك يسأل عن مقتضى هذا المعنى في حياته، مع مراعاة ما إذا كان الخطاب عاماً أو متعلقاً بحال أو حكم مخصوص.

فإذا قرأ آية في وجوب العدل، أمكنه أن يسأل: أين أحتاج إلى الإنصاف في حكمي على الآخرين؟ وإذا قرأ آيات البر بالوالدين، راجع أسلوبه في التعامل معهما، وحدود ما يستطيع تقديمه من رعاية وإحسان. وإذا قرأ آية تنهى عن السخريّة أو الغيبة، تأمل عاداته في الحديث عن الناس. وإذا قرأ آيات تحث على الوفاء بالعهد، نظر في التزاماته الأسرية والمهنية والاجتماعية.

ولا ينبغي أن تتحول هذه الأسئلة إلى وسيلة لإسقاط أحكام شرعية على الوقائع دون علم. فالسؤال عن التطبيق الشخصي يختلف عن استنباط الحكم العام أو الفصل في النزاعات؛ إذ قد تتداخل في بعض المواقف حقوق وواجبات واعتبارات تحتاج إلى معرفة أوسع. ومن هنا، فإن التدبر العملي يقتضي المبادرة إلى ما هو واضح من الواجبات والأخلاق، مع الرجوع إلى أهل العلم عند الإشكال في الأحكام. كما يحسن أن يكون السؤال العملي محدداً وقابلاً للمتابعة، بدل أن يبقى في صيغة عامة مثل: «كيف أكون أفضل؟». ويمكن استبدال ذلك بسؤال أدق: «ما التصرف

الذي ينبغي أن أتركه لأنه يتعارض مع معنى الآية؟»، أو «ما الحق الذي أستطيع أدائه هذا اليوم؟»، أو «ما الخلق الذي أحتاج إلى تدريبه في موقعي القادم؟». ولا يلزم أن تكون الاستجابة فعلاً جديداً في كل مرة؛ فقد تكون المحافظة على عمل صالح، أو الامتناع عن سلوك مؤذٍ، أو تصحيح نية، أو الاستمرار في واجب سبق أن بدأه الإنسان. والمهم أن تتصل الاستجابة بدلالة الآية، وألا تتحول إلى تكليف ذاتي مرهق لا دليل على لزومه.

إن تحويل المعنى إلى سؤال عملي يخرج التدبر من دائرة الانطباع المجرد، ويمنحه اتجاهًا واضحًا نحو الإصلاح. فالآية لا تصبح حاضرة في حياة القارئ بمجرد أن يتذكرها، وإنما حين يعيد النظر في اختياراته على ضوء ما تعلمه منها، ويعمل بما يقدر عليه في حدود الشرع والاستطاعة.

ثانيًا: استحضار موضع الآية من حياة القارئ

تعمق الصلة بالقرآن عندما يدرك القارئ أن الهداية التي يتلقاها لا تبقى محصورة في وقت التلاوة، بل تمتد إلى مواقفه اليومية وقراراته وعلاقاته. وهذا لا يعني أن يجعل كل آية وصفًا مباشرًا لحالته الخاصة، وإنما أن يتعرف إلى مجالات الانتفاع التي تسمح بها دلالتها، ثم ينظر في مواضع تطبيقها في حياته. فالقرآن يتناول الإنسان في جوانب متعددة: علاقته بربه، وتعامله مع نفسه، وصلاته بأسرته ومجتمعه، وموقفه من المال والسلطة والخصومة والشهوة والخوف والأمل. ولهذا يستطيع القارئ أن يجد في الآيات معايير تساعد على تقويم سلوكه، ما دام يلتزم بالمعنى الصحيح ولا يتجاوز النص إلى ادعاء دلالات خاصة بلا دليل.

وقد تكون بعض الآيات متصلة بواقع القارئ اتصالًا ظاهرًا، كأن يقرأ النهي عن الظلم وهو يراجع موقفًا وقع فيه، أو يقرأ الأمر بالوفاء وهو يستعد للوفاء بالتزام. وقد يكون الاتصال غير مباشر، كأن يقرأ عن صبر الأنبياء فيتعلم منها الثبات، أو يقرأ عن عواقب الغرور فيراجع طريقة تعامله مع النجاح. وفي الحالتين، ينبغي أن يبقى التطبيق تابعًا للمعنى، لا أن يُجبر النص على موافقة تفاصيل التجربة.

ويحتاج استحضار موضع الآية من الحياة إلى صدق في محاسبة النفس. فالإنسان قد يميل إلى تطبيق الآيات على أخطاء الآخرين أكثر من تطبيقها على نفسه، وقد يستحضر النصوص التي تؤكد ما يراه صوابًا، ويغفل ما يدعوه إلى مراجعة موقفه. ولذلك فإن من أهم آداب التلقي أن يقرأ الإنسان القرآن مستعدًا لأن يصحح به تصويره وسلوكه، لا أن يستخدمه مجرد شاهد على ما قرره مسبقًا.

كما ينبغي تجنب التسرع في تفسير الأحداث الشخصية بوصفها رسائل خاصة مقصودة من آية معينة. فقد يجد الإنسان معنى قرآنياً يساعده على فهم موقفه أو الصبر عليه، لكن ذلك لا يبرر الجزم بأن الواقعة حدثت لسبب غيبي محدد، أو أن الآية نزلت بشأنه، أو أن في تزامن قراءته لها مع حدث معين دليلاً على رسالة خاصة. فهذه أمور غيبية لا تثبت بمجرد التوافق أو الشعور.

والتطبيق العملي الرشيد يبدأ بتحديد المجال الذي تدل عليه الآية، ثم مراجعة السلوك المتصل به، ثم اختيار استجابة مناسبة. فإذا كانت الآية تتعلق بأداء الحقوق، راجع القارئ حقوق من يعولهم أو يتعامل معهم. وإذا كانت تتعلق بكظم الغيظ، تدرب على تأخير الرد عند الغضب، ما دام ذلك لا يفضي إلى تضييع حق أو قبول ظلم. وإذا كانت تتعلق بالتوكل، راجع علاقته بالأسباب، فلا يجعل التوكل مبرراً لترك العمل، ولا يجعل الاعتماد على الأسباب بديلاً عن الثقة بالله.

ومن المفيد أن يربط القارئ بين المعاني القرآنية والمواقف المتكررة في حياته، لأن هذا الربط يعينه على استحضار الهداية في لحظة الاختيار. فالمقصود ليس مجرد أن يتذكر الآية بعد وقوع الخطأ، بل أن يتدرب على استحضار معناها قبل الفعل، بحيث تصبح مرجعاً يوجه القرار.

وهكذا يتجاوز القرآن حدود الوقت المخصص للتلاوة، ليكون حاضراً في الضمير عند الاختيار والمراجعة والتعامل مع الناس. وهذه الحضور لا يتحقق بالخواطر وحدها، بل بالتعلم والتدريب وتكرار المحاسبة والحرص على تصحيح المسار.

ثالثاً: التثبت قبل الاستنباط

يمثل التثبت أحد أهم الضوابط التي تحفظ التدبر من الخطأ؛ لأن حسن القصد لا يضمن صحة الاستنباط، والتأثر بالآية لا يمنح القارئ بالضرورة القدرة على تقرير معناها أو استخراج حكم منها. ولذلك ينبغي أن يميز بين ما فهمه فهماً أولياً، وما ثبت له بعد الرجوع إلى التفسير، وما يحتاج إلى أدوات علمية لا تتوافر لكل قارئ. وقد حذر القرآن من القول بغير علم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وتؤسس الآية لمبدأ المسؤولية عن المعرفة، فلا يصح للإنسان أن يتبنى قولاً أو ينقله أو يبني عليه حكماً دون قدر مناسب من التثبت.

ويتأكد هذا المبدأ في التعامل مع النصوص القرآنية؛ لأن الخطأ في فهم الدلالة قد يؤدي إلى استنتاجات غير صحيحة، أو إلى توجيه النص في غير مجاله، أو إلى بناء مواقف عملية على تصور ناقص. وقد يكون الخطأ ناشئاً من ضعف المعرفة

باللغة، أو إغفال السياق، أو الاعتماد على رواية غير ثابتة، أو اقتطاع قول من تفسير دون ملاحظة ما سبقه أو لحقه.

ومن هنا، فإن الثبوت يقتضي أن يراجع القارئ معنى الآية في مصدر موثوق، وأن ينظر في سياقها، وأن يجمع النصوص ذات الصلة عند تناول موضوع عام، وأن يتأكد من صحة الأحاديث والآثار التي يعتمد عليها. وإذا ظهرت أقوال متعددة في تفسير الآية، فلا يتعجل في ترجيح أحدها لمجرد موافقته لانطباعه، بل يكتفي بالمعنى الإجمالي الموثوق، أو يرجع إلى أهل الاختصاص.

ويجب التفريق بين درجات الاستنباط. فالتأمل في خلق الله، أو تذكر مسؤولية أخلاقية واضحة، لا يتطلب الأدوات نفسها التي يحتاج إليها استنباط حكم فقهي أو تقرير مسألة عقدية أو ترجيح معنى مختلف فيه. وكلما ازدادت آثار القول وخطورته، ازدادت الحاجة إلى الثبوت والأهلية العلمية.

كما ينبغي أن يدرك القارئ أن بعض المعاني قد تكون صحيحة في ذاتها، لكنها لا تثبت دليلاً على أنها مراد الآية في سياقها. فقد يكون الصبر خلقاً محموداً، لكن لا يصح أن ينسب كل ما يقال عن الصبر إلى آية بعينها دون بيان وجه الدلالة. وقد يكون معنى تربوي معين مناسباً للآية، لكنه يحتاج إلى عرضه بوصفه فائدة مستنبطة لا تفسيراً قطعياً.

ويشمل الثبوت أيضاً التواضع في التعبير. فبدل أن يجزم القارئ بعبارة لا يسندها دليل، يمكنه أن يقول: «يظهر من السياق»، أو «من الفوائد التي يمكن استحضارها»، أو «يفهم من كلام المفسرين». ولا يُقصد بذلك التردد في المعاني الواضحة، وإنما إعطاء كل قول درجته المناسبة من اليقين.

وعند تعذر التحقق، يكون التوقف عن الجزم موقفاً علمياً صحيحاً، وليس نقصاً في التدبر. فليس مطلوباً من القارئ أن يستخرج حكماً من كل آية، ولا أن يجيب عن كل سؤال يخطر له أثناء القراءة. بل إن معرفة حدود العلم من علامات سلامة المنهج، وهي التي تحفظ للقرآن مكانته بوصفه نصاً يُتلقى بالتعظيم والفهم المسؤول.

إن الثبوت قبل الاستنباط لا يحد من الانتفاع بالقرآن، بل يحميه من التأويل المتعجل، ويمنح القارئ ثقة مبنية على المعرفة، ويجعل ما يطبقه من هدايات أقرب إلى موافقة الدلالة الشرعية الصحيحة.

رابعًا: تسجيل الفوائد ومراجعتها

يساعد تسجيل الفوائد القرآنية على تنظيم المعرفة التي يكتسبها القارئ أثناء التلاوة والتدبر، ويحول دون ضياع كثير من المعاني التي يمر بها في قراءاته المتكررة. كما يتيح له أن يتابع تطور فهمه، وأن يراجع ما استخلصه في ضوء ما يتعلمه لاحقًا، وأن يربط بين المعرفة النظرية والاستجابة العملية.

ولا ينبغي أن يتحول تسجيل الفوائد إلى غاية مستقلة تستغرق وقت القراءة كله؛ فالمقصود أن يخدم التلقي، لا أن يحل محله. وقد يكفي أن يسجل القارئ فائدة واحدة من جلسة القراءة، أو سؤالًا يحتاج إلى الرجوع إلى التفسير، أو عملاً يريد الالتزام به، بدل أن يحاول استخراج عدد كبير من الخواطر في كل مرة. ويمكن تنظيم سجل التدبر في عناصر محددة:

١. الآية أو المقطع: مع كتابة المرجع الدقيق للسورة ورقم الآية، لتسهيل الرجوع إليه.
٢. المعنى الإجمالي: ويُدوّن بعد التثبت من تفسير موثوق، مع تجنب نقل المعاني بعبارات توهم القطع إذا كانت المسألة محل خلاف.
٣. الفائدة المستفادة: وتُصاغ بوضوح، مع التمييز بين المعنى التفسيري والفائدة التربوية.
٤. السؤال العملي: وهو ما يربط المعنى بحياة القارئ، مثل مراجعة خلق أو أداء حق أو ترك سلوك.
٥. خطوة الاستجابة: وتحدد العمل الذي يستطيع القارئ القيام به، إن كان للآية مقتضى عملي مباشر.
٦. المراجعة اللاحقة: لتقييم ما تعلمه، وتصحيح ما يحتاج إلى تصحيح، والنظر في مدى استمرار أثر المعنى.

ومن المهم أن يشتمل السجل على مصدر المعلومة عندما ينقل القارئ معنى تفسيريًا أو حديثًا أو قولًا لأحد العلماء. فالتوثيق ليس مطلوبًا في البحث الأكاديمي وحده، بل يمكن أن يكون وسيلة شخصية لضبط المعرفة ومنع اختلاط المنقول بالخواطر. وإذا دوّن القارئ تأملًا شخصيًا، فالأفضل أن يميزه عن المعنى المنقول، حتى لا ينسب إلى المفسر ما لم يقله، أو يخلط بين دلالة الآية وانطباعه عنها.

وتظهر فائدة المراجعة في أنها تكشف للقارئ ما إذا كانت بعض الفوائد التي سجلها قائمة على فهم صحيح، أو أنها تحتاج إلى تعديل بعد الاطلاع على تفسير أوسع. كما

تتيح له اكتشاف الموضوعات التي تتكرر في حياته، مثل الصبر أو ضبط الغضب أو الوفاء بالحقوق، فيجعلها مجالات لمزيد من العمل والمحاسبة.

ولا ينبغي أن يقيس القارئ نجاح تجربته بعدد الصفحات التي ملأها أو الفوائد التي جمعها؛ فقد يكون القليل من الفوائد الصحيحة أكثر نفعًا من كثير من الخواطر غير المنضبطة. كما أن بعض المعاني لا تظهر ثمرتها فورًا، بل تحتاج إلى وقت ومواقف متكررة حتى تتحول إلى سلوك مستقر.

ويحسن أن تكون المراجعة دورية ومعتدلة؛ كأن يخصص القارئ وقتًا في نهاية الأسبوع للعودة إلى أبرز ما كتبه، أو يراجع الفوائد المتعلقة بموضوع واحد عند مروره بموقف يستدعيها. والمقصود من ذلك أن يبقى سجل التدبر أداة حية تساعد على التذكر والعمل، لا أرشيًا يتراكم ثم ينقطع الانتفاع به.

ويمكن كذلك الاستفادة من تسجيل الأسئلة التي لم تتضح إجاباتها، بدل محاولة حلها بالتخمين. فيكتب القارئ السؤال، ويحدد الآية المرتبطة به، ثم يرجع إلى تفسير موثوق أو يسأل أهل العلم. وبهذا تتحول الحيرة إلى مسار منظم للتعلم، ويتعلم القارئ أن التوقف عند الإشكال جزء من المنهج الصحيح.

إن تسجيل الفوائد ومراجعتها يحققان وظيفة مزدوجة: تثبيت المعرفة القرآنية، ومتابعة أثرها في السلوك. وهما بذلك يساعدان على تحويل التدبر من تجربة متفرقة إلى ممارسة مستمرة، تتراكم فيها المعاني، وتصحح فيها الأخطاء، وتتجدد فيها فرص الاستجابة.

المراجع

أولاً: مصادر القرآن الكريم والتفسير

١. القرآن الكريم.
٢. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم.
٤. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن.
٥. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير.

ثانيًا: مصادر الحديث النبوي

٦. البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح.
٧. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم.
٨. ابن ماجه، محمد بن يزيد، السنن.

المنزل الثالث: بصائر الآيات — من المعنى إلى الهداية

المبحث الأول: كيف نتدبر الآيات؟

أولاً: السياق القرآني وأثره في فهم المعنى

لا يتحقق التدبر القرآني بمجرد الوقوف عند دلالة لفظ منفرد أو استحضار معنى يخطر للقارئ عند مروره بآية من الآيات، وإنما يبدأ من فهم الخطاب القرآني في سياقه الذي تنتظم فيه ألفاظه وجمله ومقاصده. فالآية ليست وحدة منفصلة عن البناء الذي وردت فيه، بل تتصل بما قبلها وما بعدها بصلات لفظية ومعنوية وموضوعية، وقد يؤدي إغفال هذه الصلات إلى فهم ناقص، أو تعميم غير منضبط، أو تحميل النص ما لا يحتمله.

ومن هنا، فإن السياق يمثل أحد أهم الضوابط المنهجية لفهم القرآن الكريم؛ إذ يساعد على تحديد المراد من الألفاظ المحتملة، وبيان العلاقة بين الجمل، والكشف عن وجه الانتقال من معنى إلى آخر، وتعيين الغرض الذي يخدمه ورود الآية في موضعها. وقد تتكرر اللفظة القرآنية في مواضع مختلفة، لكن دلالتها التفصيلية تتأثر بالسياق الذي وردت فيه، فلا يصح افتراض التطابق التام بين جميع استعمالاتها دون نظر في القرائن المحيطة بها.

ويتطلب النظر في السياق مستويين متكاملين:

١. **السياق القريب:** ويشمل الآيات السابقة واللاحقة، والروابط بين الجمل،

وما يحدده السياق من موضوع الكلام واتجاهه.

٢. **السياق الأوسع:** ويشمل موضوع السورة، ومحورها العام، وعلاقة الآية بما

يتكرر فيها من معانٍ وقضايا، مع مراعاة ما ثبت من أسباب النزول والبيان النبوي عند الحاجة.

ويظهر أثر هذا المنهج في آيات قد يُساء فهمها عند اقتطاعها من سياقها. قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) [الماعون: ٤-٥]. فلو اقتُصر على صدر الآية الأولى، دون وصلها بما بعدها، لأوهم ظاهر الاقتطاع أن الوعيد متوجه إلى جنس المصلين، بينما يبيّن السياق وصفاً مخصوصاً يتعلق بالسهو عن الصلاة، وتأتي الآيات التالية لتكشف عن مزيد من صفات المذمومين في السورة، ومنها الرياء ومنع الماعون.

ولا يعني ذلك أن السياق وحده يكفي لاستيفاء جميع وجوه التفسير، وإنما هو عنصر أساسي ضمن منظومة من القرائن اللغوية والشرعية والتفسيرية. فقد يحتاج فهم الآية إلى بيان السنة النبوية، أو معرفة سبب النزول، أو الرجوع إلى استعمالات

العرب، أو النظر في أقوال المفسرين. ولذلك لا يجوز تحويل الاعتبار بالسياق إلى ذريعة لإهمال بقية الأدلة، كما لا يجوز تجزئة النص بطريقة تُفقد دلالة أو تُعارض المعنى الذي يدل عليه مجموع الخطاب.

ومن الناحية التربوية، يساعد فهم السياق القارئ على الانتقال من الانفعال العاجل بالآية إلى إدراك الهداية التي تحملها. فالآية التي تتحدث عن الصبر، مثلاً، ينبغي أن تُفهم في ضوء طبيعة الابتلاء الذي تتناوله، وما تقرره من علاقة الصبر بالإيمان والتوكل والعمل، لا أن تُجعل مبرراً للاستسلام أو ترك الأسباب المشروعة. والآية التي تتناول المغفرة والرحمة ينبغي أن تُقرأ في إطارها الذي يجمع بين الرجاء والتوبة والاستجابة، لا أن تُفصل عن النصوص التي تحذر من الإصرار على المعصية. وبذلك يصبح السياق أداة لحماية التدبر من القراءة الانتقائية، ومن إسقاط الرغبات الشخصية على النص، ومن تحويل الآيات إلى عبارات تُستدعى لتأييد مواقف سابقة دون اختبار مدى انطباقها عليها. وكلما ازداد القارئ عناية بالسياق، كان أقرب إلى فهم الهداية القرآنية على وجهها، وأقدر على تنزيلها في حياته دون تحريف أو تعسف.

ثانياً: الموضوع القرآني وعلاقته ببقية الآيات

من خصائص القرآن الكريم أن معانيه تتكامل، وأن القضية الواحدة قد تُعرض في مواضع متعددة، بحيث يضيف كل موضع بياناً أو تفصيلاً أو توجيهًا يناسب سياقه. ومن ثم، فإن تدبر الموضوع القرآني لا ينبغي أن يتوقف عند آية واحدة بمعزل عن سائر الآيات ذات الصلة، بل يتطلب جمع النصوص التي تتناول القضية، والنظر في العلاقات التي تربط بينها، والتمييز بين ما يقرر أصلاً عامًا، وما يفصل حكمًا، وما يبين شرطًا أو استثناءً أو نتيجة.

ويُعرف هذا المسلك، في أحد تطبيقاته التفسيرية، بجمع الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد والنظر فيها مجتمعة. وهو مسلك يعين على تجنب الفهم الجزئي، ويمنع من بناء تصور شامل على نص واحد مع إغفال نصوص أخرى قد توضح معناه أو تقيد إطلاقه أو تبين مجاله.

ويظهر ذلك في موضوع الهداية والثبات؛ فقد دعا القرآن المؤمنين إلى سؤال الله الهداية في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وربط الاستجابة للهداية بالاستعانة والصبر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، كما وجه المؤمنين إلى سؤال الله تثبت قلوبهم بعد الهداية، فقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

ولا تعالج هذه الآيات موضوعًا واحدًا من زاوية متماثلة تمامًا؛ فأية الفاتحة دعاء بطلب الهداية، وآية البقرة توجه إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، وآية آل عمران تتضمن سؤال الثبات والحماية من زيغ القلب. وعند جمعها يتضح أن الهداية ليست مجرد معرفة ذهنية بالطريق، بل هي سؤال مستمر للهداية، واستعانة به على الطاعة، وافتقار إليه في طلب الثبات. وهذه نتيجة يستفاد منها بالنظر في مجموع الآيات، لا بادعاء أن كل آية تتضمن وحدها جميع هذه المعاني التفصيلية. ويحتاج هذا العمل إلى مراعاة جملة من الضوابط:

- تحديد الموضوع المراد دراسته بدقة، حتى لا يتسع الجمع إلى حد يفقده التركيز.
- جمع الآيات ذات الصلة المباشرة، مع التمييز بينها وبين الآيات التي تتصل بالموضوع اتصالاً بعيداً أو جزئياً.
- تصنيف الآيات بحسب الوظيفة التي تؤديها؛ كالتأسيس، والتفصيل، والتوجيه العملي، والتحذير من الموانع، وبيان العاقبة.
- مراعاة سياق كل آية في موضعها الأصلي، وعدم افتراض أن جمع الآيات يبيح فصلها عن سياقاتها.
- التمييز بين المعنى الصريح للنص، والنتيجة التي تستخلص من الجمع بين عدة نصوص، والتطبيق التربوي الذي يقترحه القارئ.
- التثبت من صحة الأحاديث التي يُستعان بها في بيان الموضوع، وعدم نسبة تفسير أو حكم إلى السنة دون مستند معتبر.

ولا يعني جمع الآيات المتصلة بموضوع واحد أن جميعها تؤدي المعنى نفسه، أو أن الفروق بينها يمكن إلغاؤها لصالح فكرة عامة. فقد تتكامل الآيات مع احتفاظ كل منها بدلالاتها الخاصة، وقد يختلف مجال الحكم أو المخاطب أو الظرف الذي تتناوله. ومن الخطأ أن تُختزل هذه الفروق في صياغة تربوية جذابة، ثم تُنسب الصياغة الناتجة إلى القرآن بوصفها المعنى المباشر لكل آية.

أما على مستوى التربية والسلوك، فإن دراسة الموضوع القرآني في مجموع آياته تساعد على بناء تصور متوازن للقضايا الإيمانية والأخلاقية. فالصبر لا ينفصل عن الاستعانة بالله، والرجاء لا ينفصل عن التوبة، والتوكل لا يلغي الأخذ بالأسباب، والشكر لا يقتصر على الشعور بالامتنان، بل يتصل باستعمال النعمة فيما يرضي الله. وهذه المعاني لا ينبغي أن تتحول إلى قوالب جاهزة تُفرض على النصوص، وإنما تُستخلص من مجموع الدلالات القرآنية بعد التحقق من روابطها وحدودها.

وهكذا يغدو التدبر الموضوعي وسيلة لبناء الفهم المتكامل، لا مجرد جمع للآيات المتشابهة في الألفاظ، ولا انتقاء للنصوص التي توافق انطباعاً سابقاً. والغاية منه أن يرى القارئ الموضوع القرآني في تعدد وجوهه، وأن يخرج بفهم يراعي النصوص كلها، ويصون لكل آية خصوصيتها، ويقرب الهداية من واقع الحياة.

ثالثاً: الاستفادة من كتب التفسير

لا يستغني التدبر المنضبط عن الرجوع إلى كتب التفسير؛ لأن فهم القرآن الكريم يحتاج إلى معرفة دلالات الألفاظ، ووجوه التركيب، وأسباب النزول عند ثبوتها، وما ورد في بيان السنة النبوية، وأقوال أهل العلم في المسائل التي تحتمل أكثر من وجه. والاستعانة بالتفسير ليست عائقاً أمام التدبر الشخصي، بل هي من أهم الوسائل التي تحميه من الخطأ، وتعين القارئ على التمييز بين ما يدل عليه النص وما قد يتوهمه القارئ من غير دليل.

ويقوم التعامل مع كتب التفسير على إدراك أن المفسرين قد يختلفون في بعض المواضع لأسباب علمية متعددة، منها اختلافهم في دلالة اللفظ، أو ثبوت بعض الآثار، أو تقدير وجه الإعراب، أو الترجيح بين المعاني المحتملة. ولذلك لا يكفي نقل قول من كتاب تفسير ثم التعامل معه على أنه محل اتفاق، كما لا يصح عرض جميع الأقوال على أنها متساوية في القوة لمجرد ورودها في كتب التفسير.

ومن الكتب التي يمكن الإفادة منها في هذا الباب: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي. وتختلف هذه الكتب في مناهجها ومقاصدها التفصيلية؛ فمنها ما يوسع البحث في الآثار وأقوال السلف، ومنها ما يعنى بالأحكام، ومنها ما يمتاز بسهولة العرض وإبراز الهدايات والمعاني التربوية. ولا يغني كتاب واحد بالضرورة عن سائر المراجع في جميع المسائل، بل ينبغي اختيار المصدر بما يناسب طبيعة السؤال التفسيري.

ويمكن تنظيم الرجوع إلى التفسير في خطوات متتابعة:

الخطوة الأولى: تحديد السؤال.

قبل فتح كتب التفسير، يحدد القارئ ما يريد فهمه من الآية: هل يبحث عن معنى لفظة؟ أم عن العلاقة بين الآيات؟ أم عن سبب النزول؟ أم عن حكم شرعي؟ أم عن دلالة تربوية يمكن الاستفادة منها في الحياة؟ فوضوح السؤال يقلل التشتت، ويساعد على اختيار المرجع المناسب.

الخطوة الثانية: قراءة الآية في سياقها.

ينبغي قراءة الآية مع ما قبلها وما بعدها، والنظر في موضوع السورة، قبل الاكتفاء بشرح مقتطع. فهذه القراءة الأولية تهيب القارئ لفهم موضع الإشكال، وتجعله أكثر قدرة على استيعاب جواب المفسر.

الخطوة الثالثة: الرجوع إلى تفسير موثوق.

يبدأ القارئ بتفسير واضح العبارة يناسب مستواه، ثم يرجع إلى مصادر أوسع إذا كانت المسألة تحتاج إلى مزيد من التحقيق. وإذا تعلق السؤال بحكم شرعي أو مسألة عقدية دقيقة، وجب الرجوع إلى المراجع المتخصصة، وعدم الاكتفاء بانطباع شخصي أو منشور مختصر.

الخطوة الرابعة: التمييز بين المنقول والترحيج.

عند وجود أقوال متعددة، يميز القارئ بين تفسير يذكره المفسر على سبيل الحكاية، وقول يرجحه، ومعنى يورده احتمالاً. كما ينبغي الانتباه إلى أن مجرد تعدد الأقوال لا يثبت صحتها جميعاً، وأن الترحيج يحتاج إلى النظر في الأدلة والقرائن، لا إلى تفضيل القول الأكثر ملاءمة للمشاعر الشخصية.

الخطوة الخامسة: استخلاص الهداية بعد ضبط المعنى.

بعد فهم الدلالة التفسيرية، ينتقل القارئ إلى سؤال نفسه عن أثرها في إيمانه وسلوكه وعلاقاته وقراراته. وهذا الانتقال مشروع ومطلوب، بشرط ألا يُعاد تشكيل معنى الآية ليوافق التجربة الشخصية، وألا يُنسب إلى المفسر ما لم يقله.

ومن المهم هنا التمييز بين التفسير والتدبر. فالتفسير يرمي إلى بيان معنى الآية والكشف عن دلالتها وفق أدوات العلم، بينما يتجه التدبر إلى التأمل في المعنى وفهم ما يترتب عليه من هداية وعمل، بعد التثبت من دلالاته. وقد يتداخل المجالان، لكنهما ليسا مترادفين من كل وجه؛ فليس كل خاطر تدبري تفسيراً، وليس كل فائدة تربوية يلاحظها القارئ معنى حصرياً للآية.

كما ينبغي الحذر من الاعتماد على المقاطع المبتورة، أو التطبيقات التي تعرض آيات منفردة مصحوبة بتفسيرات لا يُعرف مصدرها، أو الأقوال المنسوبة إلى العلماء دون توثيق. ولا يعني ذلك رفض الوسائل الحديثة، بل يقتضي التعامل معها بوصفها وسائل للوصول إلى المعرفة، لا بدائل عن التثبت من المصادر.

إن الاستفادة من التفسير تمنح التدبر أساساً علمياً يحفظه من الاسترسال غير المنضبط، وتفتح للقارئ آفاقاً لم يكن ليدركها بمجرد القراءة السريعة. وكلما جمع بين الرجوع إلى العلم، وحسن السؤال، وصدق التوجه إلى الله، كان أقدر على الانتفاع بالقرآن دون أن يتجاوز حدود ما يعلم.

رابعًا: ضوابط التأمل والاستنباط التربوي

التأمل في القرآن باب واسع للانتفاع بالهداية، لكنه ليس مجالًا مفتوحًا لنسبة أي معنى يخطر بالبال إلى كلام الله تعالى. فالقرآن كتاب هداية، والتدبر مقصد شرعي، غير أن مشروعية التدبر لا تعني أن كل ما يستنتجه القارئ صحيح، ولا أن كل معنى مؤثر في النفس يصلح أن يكون تفسيرًا للآية أو حكمًا مستنبطًا منها. ومن الضروري التمييز بين ثلاثة مستويات:

١. **الدلالة التفسيرية:** وهي المعنى الذي يدل عليه النص وفق اللغة والسياق والقرائن المعتبرة، وما يعضده من بيان شرعي وأقوال تفسيرية موثوقة.
 ٢. **الفائدة التدبرية:** وهي معنى أو اعتبار يستحضره القارئ عند التأمل في الآية، على ألا يناقض دلالتها ولا يُقدّم بوصفه المعنى الوحيد لها دون دليل.
 ٣. **التطبيق التربوي:** وهو تحويل الهداية المستفادة إلى سلوك أو قرار أو ممارسة عملية، مع مراعاة اختلاف الأحوال والقدرات والظروف.
- وقد تجتمع هذه المستويات في تجربة واحدة، لكن الخلط بينها يؤدي إلى مشكلات منهجية؛ فقد يلاحظ القارئ فائدة نافعة في حياته، ثم يظن أنها المعنى الأصلي للآية، أو يستخلص توجيهًا مناسبًا لظرفه الخاص، ثم يعممه على جميع الناس وكأنه حكم قرآني مباشر.

ولضبط التأمل والاستنباط التربوي، ينبغي مراعاة القواعد الآتية:

- 1 **ألا يناقض التأمل دلالة النص.**
فلا يصح أن يستخرج القارئ من الآية معنى يصادم دلالتها الظاهرة أو ما ثبت من تفسيرها، ثم يدافع عنه لمجرد أنه أحدث في نفسه أثرًا وجدانيًا. وقد تكون الخاطرة جميلة في ذاتها، لكنها لا تصلح أن تُنسب إلى القرآن إذا لم يدل عليها.
- 2 **مراعاة السياق والموضوع والعام.**
لا يُستنبط المعنى من لفظ منفرد مع إهمال ما يحيط به من قرائن. كما لا يصح بناء قاعدة تربوية عامة على موضع خاص دون التحقق من مدى صلاحية التعميم.
- 3 **التمييز بين المعنى العام والتطبيق الشخصي.**
قد تكون الآية دالة على أصل عام، ثم يجد القارئ في حياته مثالًا لهذا الأصل. وعندئذ يجوز له أن يستفيد من الآية في فهم موقفه، لكن لا يلزم من ذلك أن تكون الآية نزلت في شأنه، أو أن واقعة معينة هي المقصودة بها على وجه التحديد.
- 4 **عدم اختراع أسباب للنزول أو تخصيصات بلا دليل.**
ليس من المنهج أن يربط القارئ كل آية بواقعة شخصية ثم يتعامل مع هذا الربط

على أنه كشف عن سبب نزولها أو مرادها الحصري. فالسبب التاريخي للنزول مسألة نقلية تحتاج إلى دليل، أما الاعتبار الشخصي فهو باب آخر.

5 التثبت في المسائل الشرعية.
إذا تعلق التدبر بحكم من أحكام الحلال والحرام، أو بمسألة عقدية، أو بحقوق الناس، فلا يكفي الانطباع الشخصي لإثبات الحكم. بل لا بد من الرجوع إلى الأدلة وقواعد الاستنباط وأهل الاختصاص.

6.مراعاة الفرق بين التأمل الفردي والقول التفسيري العام.
يمكن للقارئ أن يسجل فائدة خاصة استفادها من آية، وأن يبين أثرها في حياته، لكن نشرها للناس بوصفها تفسيرًا جازمًا أو حكمًا شرعيًا يقتضي قدرًا أعلى من التثبت.

7.قبول المراجعة والتصحيح.
قد يكتشف القارئ بعد الرجوع إلى التفسير أن فهمه الأول لم يكن دقيقًا، أو أن الفائدة التي استخلصها تحتاج إلى تقييد. والرجوع عن الفهم غير الصحيح علامة على الأمانة العلمية، لا نقص في التدبر.

ويظهر أثر هذه الضوابط عند التعامل مع آيات الابتلاء، مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. فمن الهدايات التي تدل عليها الآيات في سياقها أن الابتلاء قد يقع، وأن الصبر والاسترجاع من صفات المؤمنين الذين يتلقون المصائب بالإيمان، وأن لهم بشارة من الله. ويمكن للقارئ أن يستحضر هذه الهداية عند فقد عزيز أو مواجهة ضيق، فيجد فيها ما يعينه على الصبر والاحتساب. لكن لا يجوز له أن يجزم بأن مصيبتَه الخاصة وقعت لسبب غيبي معين لم يدل عليه دليل، أو أن كل تفصيل في تجربته الشخصية مقصود مباشرة بالآية.

وكذلك عند قراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، يمكن أن يتعلم القارئ حسن الرجاء بالله، وألا يستسلم لليأس عند الشدائد. غير أن تحويل الآية إلى وعد بوقوع نتيجة دنيوية محددة في زمن معين يتجاوز دلالتها إذا لم يرق عليه دليل. فالرجاء المشروع لا يعني ضمان تحقق كل ما يتمناه الإنسان بالصورة والموعود اللذين يختارهما.

وتنبع أهمية هذه القواعد من أنها تحفظ للتدبر قيمته التعبدية والتربوية، وتمنع في الوقت نفسه تحول التجربة الفردية إلى مرجعية لتفسير الوحي. فالغاية ليست

تضييق باب التأمل، بل توجيهه حتى يجمع بين انفتاح القلب على الهداية، وأمانة العقل في فهم الدلالة، ومسؤولية اللسان فيما ينسبه إلى الله تعالى. ومن ثم، فإن التدبر الراشد يجمع بين ثلاثة أصول متلازمة: تعظيم النص، والتواضع أمام ما لا يعلم القارئ، والاستعداد للعمل بما ثبت له من الهداية. وبهذا لا يصبح القرآن مادة لتوليد الخواطر فحسب، بل مصدرًا لضبط التصور، وتصحيح السلوك، وبناء العلاقة الواعية بين الإيمان والحياة.

المبحث الثاني: نماذج من الهداية القرآنية

أولاً: آيات الهداية والثبات

تحتل الهداية موقعاً مركزياً في البناء القرآني؛ فهي غاية يسألها المؤمن ربه، وطريق يسعى إلى معرفته وسلوكه، ونعمة يخشى أن يحرم الثبات عليها. ولذلك لا تقتصر آيات الهداية على بيان الطريق المستقيم، بل تتناول سؤال الهداية، وشروط الانتفاع بها، وأسباب الثبات، وموانع الزيغ والانحراف.

وتبدأ هذه المعاني من دعاء المؤمن المتكرر في سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. ويكشف تكرار هذا الدعاء في الصلاة عن أن الهداية ليست مسألة تنتهي بمجرد معرفة الحق مرة واحدة؛ فالإنسان يحتاج إلى أن يهديه الله إلى الحق، وأن يوفقه لاتباعه، وأن يعينه على الثبات عليه، وأن يرشده إلى ما يستجد من مواقف تحتاج إلى بصيرة وحسن تصرف.

وتدل صيغة الدعاء على افتقار العبد إلى ربه، كما تدل على أن سؤال الهداية يتجدد بتجدد الصلاة والحياة. ولا يعني ذلك أن المؤمن لا يملك معرفة الحق بعد إيمانه، وإنما يعني أن معرفته تحتاج إلى توفيق الله، وأن العلم لا يستلزم دائماً سلامة الإرادة أو القدرة على العمل، وأن الثبات على الطاعة نعمة لا يستغني العبد عن سؤالها.

ويتصل هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. فالآية تعلم المؤمن أن الهداية لا ينبغي أن تقوده إلى العجب بعمله أو الاطمئنان إلى نفسه، بل إلى دوام الافتقار إلى الله، والخوف من الانحراف، وسؤاله الرحمة والثبات.

ويظهر في الآية ارتباط الهداية بالرحمة؛ إذ يسأل المؤمن ربه ألا يزيغ قلبه بعد أن هداه، ثم يسأله أن يهب له من لدنه رحمة. وهذا يربي في النفس معنى العبودية المستمرة، ويمنع تصور الاستقامة على أنها إنجاز ذاتي مستقل عن فضل الله وتوفيقه.

ومن الآيات الجامعة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. وتدل الآية على أن الهداية التي يستجيب لها الإنسان تكون سبباً لمزيد من الهداية، وأن الانتفاع بالحق يفتح باباً لمزيد من الاستقامة والتقوى. ويمكن فهم هذا المعنى في ضوء العلاقة بين العلم والعمل؛ فكلما استجاب الإنسان لما تبين له من الحق، كان أقرب إلى الانتفاع بما يتعلمه لاحقاً، بخلاف من يعلم ثم يعرض عن مقتضى علمه.

ومع ذلك، ينبغي ألا تتحول هذه الدلالة إلى قاعدة آلية يتصور معها الإنسان أن كل ازدياد في المعلومات دليل على ازدياد الهداية، أو أن كل نقص في الشعور بالطمأنينة يعني فقدانها. فالهداية أوسع من الحالة النفسية العابرة، وتُعرف آثارها من خلال الإيمان والاستجابة والاستقامة وفق ما يقتضيه الشرع، مع مراعاة ما قد يعتري الإنسان من ضعف أو ابتلاء.

ويمكن تنظيم الهدايات العملية المستفادة من هذه الآيات في أربعة مجالات:

- **دوام سؤال الله الهداية:** بالمحافظة على الدعاء، واستحضار الحاجة المستمرة إلى التوفيق.

- **مراجعة القلب:** بمحاسبة النفس عند ظهور العجب أو الإصرار على الخطأ، والعودة إلى الحق عند تبينه.

- **ربط المعرفة بالاستجابة:** فلا يقف التعلم عند تراكم المعلومات، بل يتبعه عمل يناسب ما ثبت من العلم.

- **طلب الثبات مع الأخذ بالأسباب:** بالدعاء، والمحافظة على الفرائض، وصحبة الصالحين، والبعد عن أسباب الفتنة بحسب الاستطاعة.

وتتضح أهمية هذا الباب في حياة المسلم المعاصرة حين تتعدد مصادر المعرفة والآراء، وتتعرض القنوات لضغوط متجددة. فالهداية لا تعني مجرد امتلاك إجابة نظرية عن كل سؤال، وإنما تشمل حسن التمييز بين الحق والباطل، والقدرة على مراجعة النفس، والالتزام بما ثبت من الحق حتى عندما يخالف الهوى أو ضغط البيئة.

كما أن آيات الهداية لا تبرر اتهام المخالفين في كل مسألة بأنهم فقدوا الهداية، ولا تمنح القارئ حق الحكم على بواطن الناس. فالحديث عن أحوال القلوب له ضوابطه، والحكم على الأشخاص يحتاج إلى علم بالظاهر والوقائع، أما السرائر فإلى الله تعالى. ومن هداية القرآن أن يشغل الإنسان بإصلاح نفسه، وأن يلتزم العدل في حكمه على غيره.

وهكذا ترسم آيات الهداية والثبات علاقة متوازنة بين فضل الله ومسؤولية الإنسان؛ فالهداية من الله، والعبد مأمور بسؤالها واتباع أسبابها، والثبات نعمة تستدعي الشكر والافتقار، لا الاغترار والركون إلى النفس.

ثانيًا: آيات التوبة والرجاء

يعالج القرآن الكريم علاقة الإنسان بالخطأ من خلال منظومة تجمع بين الاعتراف بالذنب، وفتح باب الرجوع، والتحذير من الإصرار، والدعوة إلى إصلاح العمل. ومن

ثم، فإن التوبة والرجاء لا ينبغي أن يُفهما بوصفهما شعورين منفصلين عن المسؤولية، بل باعتبارهما طريقًا يعيد الإنسان إلى علاقته بالله، ويمنعه من الوقوع في اليأس من جهة، ومن الاغترار بالأمني من جهة أخرى.

ومن أظهر الآيات في هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

تأتي الآية خطابًا للذين أسرفوا على أنفسهم، فتواجه حالة قد تبلغ بالإنسان إلى الاعتقاد بأن كثرة أخطائه أغلقت أمامه أبواب الرجوع. وينفي الخطاب هذا اليأس، ويربط إمكان المغفرة برحمة الله وسعة عفوه. غير أن فهم الآية ينبغي أن يكون ضمن سياقها، ومع الآية التي تليها، حيث يقول سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

ويكشف هذا الاتصال بين الآيتين عن تكامل الرجاء والاستجابة؛ فالتحذير من القنوط يفتح باب العودة، ثم تأتي الدعوة إلى الإنابة والاستسلام لله لتؤكد أن الرجاء ليس مبررًا لتأجيل التوبة أو الاستمرار في الخطأ. وبهذا يبتعد الفهم عن طرفين متقابلين: اليأس الذي يمنع الإنسان من الإصلاح، والأمني التي تجعله يطمئن إلى المغفرة مع الإصرار على المعصية.

وتؤكد هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]. فالآية تجمع بين قبول التوبة والعفو عن السيئات، ثم تختتم بالإشارة إلى علم الله بأعمال العباد. وهذا الجمع يربي النفس على الرجاء المقترن بالمراقبة؛ فالله يقبل التوبة، وهو سبحانه يعلم حقيقة العمل وما يحيط به من أحوال ودوافع.

ومن الناحية التربوية، لا ينبغي أن تُختزل التوبة في الندم العاطفي وحده، وإن كان الندم من معانيها المهمة، بل تتصل بالإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العودة إليه، ورد الحقوق إلى أصحابها عند تعلق الذنب بحقوق العباد، وفق ما تقتضيه أحكام التوبة في كل حالة. ولا يكفي الشعور بالحزن إذا لم يصحبه مسار جاد للإصلاح.

كما لا ينبغي أن تتحول آيات الرجاء إلى وسيلة لإلغاء المسؤولية الأخلاقية. فمن أفسد علاقة أو اعتدى على حق أو ألحق ضررًا بالآخرين، لا يكتمل فهمه للتوبة بمجرد استحضار رحمة الله، بل عليه أن ينظر في الواجبات التي يقتضيها إصلاح ما أفسد ورد ما اعتدى عليه، بحسب القدرة والضوابط الشرعية.

ويمكن أن تتجسد الهداية العملية في هذا الباب من خلال الخطوات الآتية:

١. الاعتراف بالخطأ: دون تبرير مستمر أو إلقاء المسؤولية على الآخرين.
 ٢. قطع أسباب المعصية: بقدر الاستطاعة، وتغيير الظروف أو العادات التي تسهم في تكرارها.
 ٣. الرجوع إلى الله: بالاستغفار والتوبة الصادقة، مع المحافظة على الفرائض.
 ٤. إصلاح الآثار: برد الحقوق، أو الاعتذار، أو معالجة الضرر حيث يلزم ويكون ذلك مشروعًا وممكنًا.
 ٥. مقاومة اليأس بعد التوبة: فلا يجعل الإنسان خطأه السابق حجة لترك الإصلاح، ولا يجعل رجاء المغفرة مبررًا للاستهانة بالذنب.
 ٦. المثابرة على العمل الصالح: بما يساعد على بناء حياة أكثر استقامة واتزانًا.
- وتحتاج هذه المعاني إلى توازن دقيق؛ فقد يبالغ بعض الناس في لوم أنفسهم حتى يتحول الندم إلى يأس يعطل العمل، وقد يهون آخرون من شأن الخطأ حتى يصبح الرجاء ستارًا للإصرار. والقرآن يوجه إلى طريق ثالث يجمع بين الاعتراف بالتقصير، والثقة برحمة الله، والعمل على التغيير.
- ولا يصح أن يفهم الرجاء على أنه ضمان لتحقيق مطالب دنيوية بعينها، أو أن قبول التوبة يستلزم زوال كل أثر نفسي أو اجتماعي للخطأ فورًا. فقد يظل الإنسان مطالبًا بإصلاح ما ترتب على فعله، وقد يحتاج إلى وقت لمعالجة آثار سلوكية أو علاقات تضررت. والانتفاع بالآيات يقتضي أن يتحول الرجاء إلى قوة تدفع نحو الإصلاح، لا إلى انتظار سلبي لتغير الأحوال.
- وهكذا تعلم آيات التوبة والرجاء أن باب العودة إلى الله لا ينبغي أن يغلقه الإنسان على نفسه، وأن الرحمة لا تعارض المسؤولية، بل تمنحها أفقًا من الأمل. فالتوبة ليست إنكارًا للماضي، وإنما مواجهة صادقة له، وعودة إلى الله، وسعي جاد إلى مستقبل أكثر استقامة.
- ثالثًا: آيات الصبر والابتلاء**
- يقدم القرآن الكريم تصورًا متوازنًا للابتلاء، فلا يصوره دليلًا لازمًا على السخط، ولا يجعل الصبر دعوة إلى إنكار الألم أو التخلي عن الأسباب المشروعة لتخفيفه. بل يربط بين حقيقة الابتلاء، وموقف الإنسان منه، وما يعينه على احتماله من إيمان وصبر واستعانة بالله.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

تقرر الآيتان وقوع الابتلاء بصور متعددة، ثم توجهان إلى البشارة للصابرين الذين يستحضرون انتماءهم إلى الله ورجوعهم إليه. ولا يقتصر هذا الاستحضار على ترديد العبارة باللسان، بل يتضمن معنى العبودية والتسليم لأمر الله، والإقرار بأن الإنسان وما يملكه ليس خارجاً عن ملكه سبحانه.

ومع ذلك، فإن الصبر لا يعني غياب الحزن الطبيعي، ولا يمنع الإنسان من طلب العلاج أو الاستعانة بالآخرين أو اتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة الخطر. فقد يجتمع الصبر مع الألم، والرضا بقضاء الله مع السعي إلى تغيير الواقع المؤلم بوسائل مشروعة. ومن الخطأ أن يُستخدم مفهوم الصبر لإسكات المتضرر أو منعه من المطالبة بحقه، أو لتبرير تقصير الآخرين في أداء واجباتهم.

ويؤكد القرآن معنى الاستعانة في مواجهة المشقة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. فالآية تربط الصبر بالصلاة، وتوجه المؤمن إلى الاستعانة بهما في مواجهة ما يعرض له من صعوبات. وهذا يبين أن الصبر ليس مجرد قدرة نفسية منعزلة، بل هو سلوك إيماني يتغذى من العبادة، ويستمد منها ما يعينه على الثبات.

ويمكن أن يكون للصبر أكثر من مجال في حياة الإنسان؛ فهناك الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على ما ينزل بالإنسان من مصائب. وتختلف التطبيقات العملية لهذه المجالات، لكنها تلتقي في ضبط الاستجابة وعدم الاستسلام للهوى أو اليأس أو الانفعال غير المحسوب.

فالصبر على الطاعة يظهر في المحافظة على العبادات رغم المشقة أو الانشغال، والصبر عن المعصية يظهر في مقاومة دواعيها والابتعاد عن أسبابها، أما الصبر على المصيبة فيتجلى في الثبات على الإيمان، وتجنب التسخط المحرم، والاستعانة بالله مع الأخذ بالأسباب الممكنة.

ولا ينبغي أن يؤدي هذا التقسيم إلى تصور أن الصبر حالة سلبية، بل قد يتطلب الصبر بذل جهد كبير؛ فالمصاب الذي يسعى إلى العلاج، أو من يواجه ظلمًا فيطلب الإنصاف بالوسائل المشروعة، أو من يتحمل مسؤولية أسرته في ظروف صعبة، قد يمارس صوراً من الصبر المقترن بالعمل والمقاومة المشروعة للمشكلة.

ومن الهدايات العملية المستفادة من آيات الابتلاء:

- استحضار أن وقوع المشقة جزء من طبيعة الحياة الدنيا، دون الجزم بسبب غيبي خاص لكل حادثة.
- المحافظة على الصلاة والدعاء والاستعانة بالله عند اشتداد الأزمات.
- التعبير عن الحزن بوسائل مشروعة، دون تحويل الألم إلى يأس من رحمة الله.
- اتخاذ الأسباب الواقعية لتخفيف الضرر ومعالجة المشكلة.
- طلب الدعم من أهل الخبرة أو الثقة عند الحاجة، وعدم اعتبار الاستعانة بالآخرين مناقضة للتوكل.
- مراجعة السلوك أثناء الابتلاء، حتى لا يتحول الضغط إلى ظلم للآخرين أو تفريط في الحقوق.

ومن المهم التمييز بين ما تدل عليه الآيات في بيان موقف المؤمن من المصيبة، وبين محاولة تفسير كل ابتلاء بأنه عقوبة أو تكفير أو رفع درجة على وجه التعيين. فالحكم على الحكمة الخاصة وراء حادثة بعينها يحتاج إلى دليل، ولا يصح أن يقطع الإنسان بسبب غيبي لم يخبر به. والأولى أن ينشغل بما دل عليه الشرع من الصبر والدعاء والإصلاح، وأن يحسن الظن بالله دون ادعاء معرفة ما استأثر الله بعلمه. كما أن الصبر لا ينفي مسؤولية الإنسان عن معالجة أسباب بعض المشكلات التي يمكنه منعها أو تقليلها. فمن واجه مشكلة صحية، مثلاً، لا يتعارض صبره مع طلب العلاج، ومن تعرض لاعتداء لا يتعارض صبره مع طلب الحماية والإنصاف. بل قد يكون اتخاذ الأسباب من مقتضيات المسؤولية التي يوجه إليها الشرع.

وتساعد هذه القراءة على تحرير مفهوم الصبر من التصورات التي تختزله في السكوت أو الاستسلام. فالصبر في المنظور القرآني قوة تضبط الاستجابة، وتحفظ الإنسان من الانهيار واليأس، وتعينه على الاستمرار في الواجبات، مع إدراك حدود قدرته واللجوء إلى الله فيما يعجز عنه.

وبذلك تصبح آيات الابتلاء موردًا لبناء الاتزان الإيماني والنفسي والسلوكي؛ فهي لا تعد الإنسان بحياة خالية من الألم، وإنما تعلمه كيف يواجه الألم بوعي وإيمان، وكيف يجمع بين التسليم لله والعمل بما يستطيع، دون أن يحمل النصوص وعودًا أو أحكامًا لم تدل عليها.

رابعًا: آيات الشكر والنعمة

لا ينظر القرآن الكريم إلى النعمة بوصفها موردًا للانتفاع المادي فحسب، بل يربطها بمعرفة المنعم، والاعتراف بفضلله، وحسن استعمال ما أنعم به على

الإنسان. ومن ثم، فإن الشكر ليس مجرد شعور داخلي بالامتنان، ولا مجرد ترديد لعبارات الحمد، بل هو علاقة تجمع بين القلب واللسان والعمل.
قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

تربط الآية بين الشكر والزيادة، وتضع الشكر في مقابل كفران النعمة. وهي توجه الإنسان إلى ألا يتعامل مع ما يملكه بوصفه استحقاقًا ذاتيًا مستقلًا عن فضل الله. فالصحة والوقت والعلم والمال والعلاقات والقدرات كلها نعم تستوجب الاعتراف بالفضل، وتدعو إلى حسن الاستخدام.

غير أن فهم الوعد بالزيادة يحتاج إلى الانضباط في تفسيره؛ فلا يصح الجزم بأن كل زيادة ستكون مالية أو فورية أو مطابقة لرغبة الإنسان. فالآية تقرر وعد الله بالزيادة للشاكرين، لكن تحديد صورة الزيادة في كل واقعة بعينها يحتاج إلى دليل، ولا يجوز تحويل الآية إلى معادلة مادية تضمن لكل شخص نتيجة دنيوية محددة مقابل سلوك معين.

ويتضح معنى الشكر العملي في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. فقد جاء الأمر بالعمل شكرًا، وهو ما يبين أن الشكر يتجاوز الإقرار اللفظي إلى الاستجابة العملية. فالنعمة لا تُشكر حق الشكر بمجرد ذكرها، بل يتصل الشكر بتوجيهها إلى ما ينفع، والابتعاد عن توظيفها في الظلم أو الفساد.

فمن أوتي علمًا كان من شكر علمه أن ينفع به، ويتحرى الصدق والأمانة في استعماله. ومن أوتي مالًا كان من شكر نعمته أن يؤدي الحقوق الواجبة فيه، وألا يجعله وسيلة للاعتداء أو الإفساد. ومن أوتي صحة وقدرة كان من الشكر أن يستعملهما فيما يعود عليه وعلى غيره بالنفع، بحسب ما يقدر عليه.

ولا يعني ذلك أن قيمة النعمة تقاس بمدى إنتاجيتها المادية وحدها؛ فقد يكون من الشكر أن يحافظ الإنسان على صحته، أو يمنح أسرته وقتًا مناسبًا، أو يستريح بما يعينه على أداء واجباته. والمقصود أن يتعامل مع النعمة بوعي ومسؤولية، لا أن يحول كل لحظة من حياته إلى سباق دائم للإنتاج.

ويرتبط الشكر أيضًا بالتواضع؛ لأن الإنسان قد ينسب نجاحه إلى قدراته وحدها، وينسى ما تهيأ له من فرص وعون وأسباب. والشكر لا يلغي الاعتراف بالجهد الشخصي، لكنه يضع هذا الجهد في موضعه الصحيح، ويمنع تحوله إلى استعلاء على الآخرين أو جحود لفضل الله.

ومن التطبيقات العملية للشكر:

١. استحضار النعم التي اعتاد الإنسان وجودها حتى غابت عن انتباهه.
٢. حمد الله على النعمة دون غفلة عن مسؤولياتها.
٣. استعمال النعمة في وجه مشروع ونافع، بحسب طبيعتها والقدرة المتاحة.
٤. أداء الحقوق المتعلقة بها، ومنها الحقوق المالية والاجتماعية حيث تجب.
٥. مقاومة المقارنة المستمرة بالآخرين، التي قد تحول النظر إلى النعم إلى شعور دائم بالنقص.
٦. الاستفادة من النعم في مساعدة الآخرين، دون منّ أو استعلاء.
٧. المحافظة على النعمة واتخاذ الأسباب المعقولة لاستمرارها، دون اعتقاد أن الإنسان يملك ضمان نتائجها.

وتساعد هذه التطبيقات على نقل الشكر من مستوى الخطاب إلى مستوى الممارسة. فقد يكثر الإنسان من ذكر الحمد، لكنه يسيء استعمال وقته أو ماله أو علمه، فيحتاج إلى مراجعة العلاقة بين ما يقوله وما يفعله. كما قد يظن آخرون أن الشكر لا يكون إلا عند حصول الزيادة المادية، فيغفلون عن قيمة النعمة القائمة أو عن وجوه الخير التي لا تظهر في صورة المال والنجاح الاجتماعي. ومن جهة أخرى، لا يجوز اتخاذ آية الشكر وسيلة للحكم على كل من ضاقت أحواله بأنه غير شاكر، أو أن ما نزل به دليل على تقصيره في الامتنان. فالأحوال الدنيوية تتداخل فيها أسباب متعددة، ولا يصح استنتاج موقف الإنسان من الله أو منزلته عنده من مقدار ما يملكه من المال أو الصحة أو الجاه.

إن الهداية القرآنية في باب الشكر تعيد تنظيم علاقة الإنسان بما لديه؛ فلا ينظر إلى النعمة باعتبارها حقًا مكتسبًا بلا مسؤولية، ولا يستهلكها في طلب المزيد دون التفات إلى آثارها، بل يتعلم أن الاعتراف بالفضل ينبغي أن يقترن بحسن الاستعمال. وبهذا يصبح الشكر طريقًا إلى تهذيب النفس، وحماية العلاقات، وتوجيه الموارد والقدرات نحو الخير.

خامسًا: آيات النجاة وعاقبة العمل

يتناول القرآن الكريم النجاة من خلال بيان علاقتها بالإيمان والعمل الصالح، والاستجابة للحق، والابتعاد عن أسباب الهلاك. ولا يقدم النجاة باعتبارها نتيجة لأمنيات مجردة أو انتساب شكلي، بل يربطها بما يقوم عليه موقف الإنسان من الإيمان والطاعة والتقوى، مع الإقرار بأن الرحمة والتوفيق من الله تعالى.

قال الله سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

تربط الآية بين العمل الصالح والإيمان، وتقرر أن سعي العامل لا يضيع عند الله. وهذا المعنى يربي المؤمن على أن العمل الصالح ليس جهدًا بلا قيمة، حتى إن لم تظهر آثاره في الدنيا بالصورة التي يتوقعها صاحبه. فالتقييم القرآني للعمل لا يقتصر على النتائج العاجلة أو اعتراف الناس، بل يتصل بالإيمان والإخلاص والاستقامة، وبما يعلمه الله من حقيقة السعي.

ويترتب على ذلك أن الإنسان لا ينبغي أن يجعل نجاحه الظاهر معيارًا وحيدًا لقيمة عمله، كما لا ينبغي أن يحكم على إخفاق تجربة دنيوية بأنها دليل على عدم قبول جهده. فقد يبذل الإنسان جهدًا مشروعًا ثم لا يبلغ النتيجة التي أرادها، لكن هذا لا يعني أن سعيه لا قيمة له، ولا يبيح له تجاهل ما يتعلمه من التجربة أو الاستمرار في أسباب الفشل دون مراجعة.

ومن الآيات الجامعة في بيان عاقبة العمل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

تؤكد الآيتان مبدأ المسؤولية عن العمل، وأن الخير والشر ليسا أمرين يزول أثرهما لمجرد صغرهما في نظر الإنسان. وفي ذلك توجيه إلى عدم الاستهانة بالأعمال التي تبدو محدودة، سواء أكانت إحسانًا أم إساءة. فقد يكون للكلمة الطيبة أثر لا يظهر فورًا، كما قد تترك الكلمة الجارحة أثرًا يتجاوز اللحظة التي قيلت فيها.

ولا يعني هذا أن كل عمل صغير تكون له النتائج الدنيوية نفسها، أو أن أثره يمكن قياسه بسهولة، بل المقصود أن العمل داخل في علم الله وحسابه، وأن الإنسان مسؤول عما يصدر عنه وفق أحكام الشرع. وهذا المعنى يعزز مراقبة النفس، ويمنع التهاون في الحقوق بحجة أن الفعل بسيط أو أن أثره لن يُعرف.

ويتصل بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الأنبياء: ١٣-١٤]. فالآيتان تذكران بالعاقبة الأخروية، وتربطانها بالتميز بين البر والفجور. ولا يصح اختزال هذا التمييز في مظهر اجتماعي أو انطباع شخصي عن الأشخاص؛ فالحكم النهائي على المصائر إلى الله، وهو أعلم بحقائق العباد وأعمالهم.

ومن الهدايات العملية في هذا الباب:

- استحضار المسؤولية عن الأقوال والأفعال، ولو بدت صغيرة.
- عدم تعليق قيمة العمل على مدح الناس أو سرعة ظهور النتائج.

- تصحيح النية ومراجعة الوسائل، إلى جانب الاهتمام بالغاية.
- المبادرة إلى التوبة عند الخطأ، وعدم الاستهانة بالذنب.
- عدم اليأس من الإصلاح بسبب كثرة التقصير السابق.
- ربط الرجاء في النجاة بالعمل الصالح، دون ادعاء استحقاقها استقلالاً عن رحمة الله.

• تجنب إصدار أحكام قطعية على مصائر الآخرين أو مقاصدهم الباطنة.

ويحتاج هذا الباب إلى موازنة بين الخوف والرجاء؛ فالخوف من الحساب يمنع التهاون، والرجاء في رحمة الله يمنع القنوط، والعمل الصالح يجسد الاستجابة العملية لهذا الوعي. وإذا انفصل الخوف عن الرجاء فقد يدفع بعض الناس إلى اليأس، وإذا انفصل الرجاء عن المسؤولية فقد يتحول إلى أمن من العقوبة.

كما أن الحديث عن عاقبة العمل لا يبرر الحكم على النجاح والفشل الدنيويين بوصفهما دليلاً قاطعاً على رضا الله أو سخطه. فقد ينجح الإنسان في أمر دنيوي مع تقصيره في جوانب أخرى، وقد يبتلى إنسان صالح بمشقة أو خسارة. ولذلك يجب التمييز بين ما أخبر به الوحي عن الجزاء، وبين التأويلات التي يحاول الناس بناءها على الوقائع الدنيوية دون دليل.

إن آيات النجاة وعاقبة العمل تنقل الإنسان من النظر المحدود إلى اللحظة الحاضرة إلى استحضار المسؤولية الممتدة لما بعد الحياة الدنيا. وهي تعلمه أن يراجع مقاصده وأفعاله، وأن يعمل دون استعلاء، وأن يرجو رحمة الله دون اتكال، وأن يدرك أن القيمة الحقيقية للعمل لا تتوقف على صورته الظاهرة وحدها، بل ترتبط بحقيقته ومقصده وموافقته للحق.

المبحث الثالث: من فهم الآية إلى تنزيلها على الحياة

أولاً: استخراج الهداية العملية من الآيات

لا يكتمل الانتفاع بالقرآن بمجرد معرفة المعنى، كما لا يتحقق بمجرد التأثر العاطفي الذي لا يترك أثراً في السلوك. فالتدبر يرمي إلى أن ينتقل الإنسان من فهم الخطاب إلى الاستجابة له، وأن تتحول الهداية التي أدركها إلى وعي يوجه اختياراته، ويضبط علاقاته، ويعينه على أداء واجباته.

غير أن هذا الانتقال يحتاج إلى منهج يحفظ المعنى من التبسيط، ويحمي التطبيق من التعسف. فليس كل معنى عام يصلح أن يتحول مباشرة إلى قرار عملي دون النظر في طبيعة المسألة، وليس كل موقف شخصي تنطبق عليه آية لمجرد وجود تشابه لفظي أو وجداني بينهما.

ويمكن بناء منهج عملي لاستخراج الهداية من الآية في خمس مراحل مترابطة:

المرحلة الأولى: ضبط المعنى.

يبدأ القارئ بتحديد ما تدل عليه الآية في سياقها، والرجوع إلى تفسير موثوق عند الحاجة. ويُسأل في هذه المرحلة: ما القضية التي تتناولها الآية؟ وما المعنى الذي تدل عليه ألفاظها؟ وما القيود أو القرائن التي تؤثر في فهمها؟

المرحلة الثانية: تحديد الهداية.

بعد فهم المعنى، يحدد القارئ ما يتضمنه من توجيه إيماني أو أخلاقي أو عملي. وقد تكون الهداية أمراً بفعل، أو نهياً عن سلوك، أو تصحيحاً لتصور، أو دعوة إلى صفة قلبية، أو بياناً لعاقبة تستدعي الاستعداد لها.

المرحلة الثالثة: تحويل الهداية إلى سؤال.

بدل الاكتفاء بعبارة عامة مثل «الآية تدعو إلى الصبر»، يطرح القارئ سؤالاً محدداً: أين أحتاج إلى الصبر؟ وما السلوك الذي ينبغي أن أضبطه؟ وهل أتعامل مع المشكلة بطريقة مشروعة وفعالة؟ وهل أحتاج إلى التوقف عن تصرف يزيد الضرر؟

المرحلة الرابعة: تحديد الاستجابة الممكنة.

تتحول الإجابة إلى عمل محدد يتناسب مع القدرة والظروف. فقد يكون العمل المحافظة على عبادة، أو الاعتذار عن خطأ، أو رد حق، أو ضبط اللسان، أو طلب المشورة، أو اتخاذ سبب مشروع لمعالجة مشكلة.

المرحلة الخامسة: المراجعة والتقويم.

بعد مدة مناسبة، يراجع القارئ أثر الاستجابة: هل التزم بما قرره؟ وما الصعوبات

التي واجهته؟ وهل يحتاج إلى تعديل خطته؟ وهل فهم الآية على وجه صحيح؟ ولا تعني هذه المراجعة قياس قيمة الهداية بنتيجة دنيوية سريعة، وإنما تعني تقويم جدية الاستجابة ومناسبتها.

ويمنع هذا التدرج اختزال التدبر في قائمة من النصائح العامة التي يمكن قولها في كل مناسبة. فالتوجيه القرآني لا يكتسب قوته من تكرار العبارات الوعظية، بل من فهم دلالاته ثم ربطه بموقف واقعي على وجه صحيح.

ولنأخذ مثالاً على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. فالمعنى العام يتعلق بحسن القول، لكن تحويله إلى ممارسة يحتاج إلى تحديد صور الكلام في حياة القارئ: كيف يتحدث مع أسرته؟ وكيف يرد على من يخالفه؟ وهل يستخدم السخرية أو التحقير عند الغضب؟ وهل يختار ألفاظاً تحفظ كرامة الآخرين دون أن تمنعه من بيان الحق؟

وبناء على ذلك، يمكن أن يحدد القارئ استجابة عملية مثل الامتناع عن الإهانة عند الاختلاف، أو إعادة صياغة النقد بصورة واضحة ومحترمة، أو الاعتذار عن كلمة جارحة. ولا يعني حسن القول السكوت عن الخطأ، أو التنازل عن الحق، بل يعني مراعاة الأدب والعدل في طريقة التعبير عنه.

ويظهر من هذا المثال أن التطبيق لا ينشأ من إضافة معنى جديد إلى الآية، بل من تحديد المجال الذي يمكن أن يعمل فيه معناها. كما أن تعدد التطبيقات لا يجعل أحدها المعنى الحصري للنص؛ فقد يستفيد قارئ من الآية في علاقته بأسرته، ويستفيد آخر منها في بيئة العمل، مع اشتراك التطبيقين في أصل حسن القول.

ومن المهم أيضاً أن تتناسب الاستجابة مع طبيعة الهداية. فإذا كانت الآية تدعو إلى التوبة، فالتطبيق ينبغي أن يتصل بترك الذنب والإصلاح، لا بمجرد تدوين عبارة مؤثرة. وإذا كانت تتناول أداء الحقوق، فالتطبيق ينبغي أن يظهر في رد الحق أو الوفاء بالالتزام، لا في الشعور الداخلي وحده. وإذا كانت تدعو إلى الصبر، فلا بد من تحديد السلوك الذي يحتاج إلى الصبر، مع عدم إغفال الأسباب المشروعة لمعالجة المشكلة.

ويحتاج القارئ إلى الحذر من تحويل التدبر إلى تكليف متعذر؛ فقد يقرأ آية تتناول خلقاً عظيماً، ثم يطالب نفسه بتغيير شامل وفوري في جميع جوانب حياته. والأولى أن يحدد مجالاً واضحاً للعمل، وأن يتدرج في اكتساب العادات، وأن يستمر في المراجعة. فالمقصود أن تكون الهداية حاضرة في الحياة، لا أن يتحول التدبر إلى مصدر إضافي للشعور بالعجز أو التقصير.

كما ينبغي التمييز بين الواجب الشرعي، والمستحب، والمباح الذي يختاره الإنسان لتحسين حياته. فلا يصح أن تُرفع كل فائدة شخصية إلى مرتبة التكليف الشرعي، أو أن يُلزم الآخرون بخطة عملية اختارها القارئ لنفسه. فالهداية القرآنية تضبطها مراتب الأحكام، وتحتاج التطبيقات الفردية إلى مراعاة اختلاف الأحوال والقدرات. ومن ثم، فإن استخراج الهداية العملية عملية تجمع بين الفهم والتأمل والتخطيط والمراجعة. وهي لا تنتهي عند العثور على عبارة مؤثرة، بل تبدأ منها رحلة أكثر مسؤولية: كيف أستجيب لما علمت؟ وما الذي أستطيع تغييره؟ وما الواجب الذي لا يجوز لي تأجيله؟ وكيف أراجع عملي في ضوء النص دون أن أدعي أن تجربتي الخاصة هي المعنى الوحيد للآية؟

ثانيًا: التمييز بين عموم الهداية وخصوص سبب النزول

من القضايا المنهجية المهمة عند تنزيل القرآن على الحياة التمييز بين السبب الخاص الذي نزلت الآية في سياقه، وبين الهداية التي يدل عليها لفظها وسياقها ويمكن الانتفاع بها في وقائع أخرى. فالقرآن لم ينزل ليبقى حبيس الحوادث التاريخية التي ارتبطت بنزوله، كما أن عموم هدايته لا يبيح إلغاء الخصوصيات التي يدل عليها النص أو السياق.

ويعبر علماء أصول التفسير عن أحد جوانب هذه المسألة بقاعدة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، وهي قاعدة مشهورة في مباحث أسباب النزول ودلالات الألفاظ. ومقصودها أن اللفظ العام لا يقتصر حكمه على الواقعة التي كانت سببًا في نزوله لمجرد خصوص تلك الواقعة، ما لم يقدّم دليل معتبر على التخصيص.

غير أن هذه القاعدة لا تعني أن كل آية تشمل جميع الأحوال دون تمييز، ولا أن السياق وسبب النزول لا قيمة لهما. فدلالة العموم تُفهم من صيغة النص وقرائنه، وقد ترد أدلة تخصص العام أو تقيد المطلق أو تبين مجال الحكم. ومن ثم، فإن تطبيق القاعدة يتطلب الجمع بين النظر في اللفظ، وفهم السياق، ومعرفة ما يحيط بالنص من أدلة.

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]. فالآية تتضمن توجيهًا عامًا إلى العدل والإحسان وصلة القرابة، ويمكن الاستفادة منها في العلاقات الأسرية والاجتماعية والمهنية وغيرها من المجالات التي يتصل بها معناها. لكن تطبيقها في واقعة معينة يتطلب فهم

مقتضيات العدل فيها، وعدم افتراض أن كل ما يراه الإنسان إحساناً يوافق الحكم الشرعي أو يحقق العدل.

ويختلف هذا عن آية ترتبط دلالتها بحكم مخصوص أو خطاب موجه إلى فئة معينة أو واقعة ذات قيود محددة. ففي هذه الحالات لا يجوز تعميم الحكم دون النظر في شروطه وموانعه، أو نقل الحكم من مجاله إلى مجال آخر لمجرد التشابه الظاهري.

ولتحقيق التوازن بين عموم الهداية وخصوص سبب النزول، يمكن اتباع الخطوات الآتية:

١. **التحقق من سبب النزول عند وروده:** فلا يُعتمد على رواية غير ثابتة، ولا يُنسب سبب معين إلى الآية دون مصدر معتبر.

٢. **تحديد صيغة النص:** هل جاءت الآية بلفظ عام، أم خاص، أم تضمنت حكماً مرتبطاً بوصف معين؟

٣. **قراءة السياق:** فقد يكشف السياق عن المراد، أو يبين طبيعة المخاطبين، أو يحدد مجال الخطاب.

٤. **جمع الأدلة ذات الصلة:** لأن فهم الحكم أو الهداية قد يتطلب النظر في نصوص أخرى تخصص المعنى أو توضحه.

٥. **التمييز بين الحكم والتطبيق:** فقد يكون أصل الهداية عاماً، بينما يحتاج تطبيقه على واقعة جديدة إلى معرفة ظروفها وملابساتها.

٦. **التصريح بحدود الاستنتاج:** فإذا كان الربط بين الآية والواقع اجتهاداً تربوياً، فلا ينبغي عرضه بوصفه تفسيراً قطعياً أو سبباً للنزول.

وتتضح أهمية هذا المنهج عند قراءة آيات الصبر والابتلاء. فقد يستفيد الإنسان من عموم التوجيه القرآني إلى الصبر عند وقوع المصائب، لكنه لا يجوز له أن يجزم بأن آية معينة نزلت بسبب مصيبتة الشخصية، أو أن يحدد الحكمة الغيبية من وقوعها اعتماداً على تشابه بين الواقعتين.

وكذلك يمكن الانتفاع بآيات الوفاء بالعهد في العلاقات المعاصرة، لكن تنزيلها على عقد معين قد يحتاج إلى معرفة تفاصيل الالتزام، وشروطه، وما إذا كان مشروعاً، والأحكام المتعلقة بالإخلال به. فالهداية العامة لا تغني عن فهم الواقعة التي يراد تطبيقها عليها.

وتساعد هذه التفرقة على تجنب خطأين متقابلين. أولهما حصر الآيات في وقائعها التاريخية، بما يحول دون الانتفاع بهدايتها العامة. وثانيهما إلغاء الخصوصيات

والسياقات، بما يؤدي إلى تعميم غير منضبط أو استنباط أحكام لا يدل عليها النص.

ومن المهم كذلك أن يدرك القارئ الفرق بين عموم العبرة وعموم الحكم. فقد تحمل الواقعة القرآنية درسًا أخلاقيًا ينتفع به الإنسان في حياته، لكن ذلك لا يعني بالضرورة أن جميع الأحكام الخاصة بتلك الواقعة تنطبق عليه. فالاعتبار التربوي أوسع من نقل الأحكام الفقهية، ولكل منهما ضوابطه.

إن تنزيل القرآن على الحياة لا يتحقق بتكرار الآية على كل واقعة مشابهة في ظاهرها، بل بفهم ما تدل عليه، وتحديد وجه الصلة بينها وبين الواقع، ومراعاة ما قد يغير الحكم أو يحد من التطبيق. وبهذا يجتمع استمرار الهداية القرآنية مع احترام سياق النص وخصوصياته، فلا يُحبس القرآن في الماضي، ولا يُحمّل ما لا يدل عليه.

ثالثًا: تطبيق المعنى دون إهمال السياق

يمثل تطبيق المعنى القرآني على الحياة مرحلة دقيقة؛ لأنها تصل بين النص والواقع، وبين المعرفة والسلوك. وقد ينجح القارئ في فهم الآية نظريًا، لكنه يخطئ عند تنزيلها على موقف معين بسبب التسرع، أو إغفال بعض القرائن، أو الاعتماد على تشابه جزئي بين النص والواقعة.

ولذلك لا يكفي أن يسأل الإنسان: ما المعنى الذي أفهمه من الآية؟ بل يحتاج أيضًا إلى أن يسأل: ما وجه انطباق هذا المعنى على الحالة التي أريد التعامل معها؟ وما الجوانب التي تختلف فيها هذه الحالة عن السياق الذي ورد فيه النص؟ وهل توجد أدلة أخرى يجب مراعاتها؟ وهل التطبيق الذي أفكر فيه يحقق الهداية المقصودة، أم أنني أستخدم الآية لتبرير رغبة سابقة؟

ويقوم التطبيق المنضبط على ثلاثة مستويات مترابطة.

المستوى الأول: فهم النص.

ويشمل تحديد المعنى في سياقه، والرجوع إلى التفسير الموثوق، ومعرفة القيود المتعلقة به. فلا يصح أن ينتقل القارئ مباشرة من لفظة أعجبت به إلى قرار عملي دون فهم دلالتها.

المستوى الثاني: فهم الواقع.

فالتطبيق لا يتعلق بالنص وحده، بل بالواقعة التي يراد تنزيله عليها. وقد تتطلب بعض الوقائع معرفة اجتماعية أو نفسية أو طبية أو قانونية متخصصة. فإذا كان

القارئ يريد تطبيق معنى شرعي على مسألة معقدة، فقد لا تكفي معرفته العامة لتحديد الحكم المناسب.

المستوى الثالث: اختبار وجه الصلة.

بعد فهم النص والواقع، ينظر القارئ في العلاقة بينهما: هل تشترك الواقعة مع النص في الوصف المؤثر؟ وهل يوجد ما يمنع هذا التطبيق؟ وهل يترتب على الفهم المقترح إهمال حق أو مخالفة دليل آخر؟

وتظهر أهمية هذه المستويات في آيات العفو. قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]. فالآية تحث على العفو والصفح، وتربطهما برضاء مغفرة الله. ويمكن أن يهتدي القارئ بها في مراجعة موقفه من شخص أخطأ في حقه، فيسأل نفسه إن كان قادرًا على العفو، وإن كان تمسكه بالخصومة نابغًا من طلب حق مشروع أو من رغبة في الانتقام.

لكن التطبيق لا يعني أن العفو واجب في كل حالة على الصورة نفسها، أو أن المطالبة بالحقوق تناقض القرآن. فالعفو له فضله، وقد يختلف تقدير المصلحة في بعض الوقائع، ولا سيما عندما يترتب على ترك المطالبة بالحق استمرار الضرر أو الاعتداء. كما أن الآية لا تمنح أحدًا حق مطالبة المتضرر بالتنازل عن حقه، ولا تبرر لومه لمجرد أنه اختار المطالبة بالإنصاف.

ويكشف المثال أن فهم الهداية يتطلب مراعاة طبيعة العلاقة، وحجم الضرر، وإمكان الإصلاح، والآثار المترتبة على القرار. فليس كل موقف متشابه في الظاهر متماثلًا في الحكم أو المصلحة، ولا يجوز اتخاذ آية واحدة ذريعة لإلغاء بقية الاعتبارات الشرعية والأخلاقية.

ومن الضوابط العملية للتطبيق:

- ألا يفصل المعنى عن السياق الذي يحدده.
- ألا يجعل التشابه الجزئي بين واقعتين دليلًا كافيًا على تطابقهما.
- ألا يتخذ التدبر وسيلة لتبرير موقف مسبق أو إدانة شخص دون بينة.
- أن تُراعى حقوق الآخرين، وألا تتحول الدعوة إلى التسامح إلى غطاء لاستمرار الاعتداء.
- أن يُرجع إلى أهل الاختصاص في الوقائع التي تتطلب معرفة فنية أو حكمًا شرعيًا دقيقًا.
- أن يبقى التطبيق متناسبًا مع الدلالة، فلا يُحمّل النص ما لا يحتمله.

• أن يُراجع التطبيق إذا ظهرت معلومات جديدة تكشف عن خطأ في فهم الواقع أو وجه الصلة بالنص.

وتبرز أهمية هذا المنهج في القضايا المعاصرة التي تتداخل فيها العوامل الدينية والاجتماعية والقانونية والنفسية. فقد يحتاج الإنسان إلى الاستفادة من الهداية القرآنية في اتخاذ قرار أسري أو مهني، لكن تحديد القرار المناسب قد يتطلب معلومات لا توفرها الآية وحدها؛ لأن النص يقدم الأصول والقيم والتوجيهات، بينما تحتاج معرفة تفاصيل الواقع إلى وسائل أخرى مشروعة.

ولا يعني هذا الفصل بين الوحي والواقع، بل يعني إعطاء كل منهما حقه في عملية الفهم. فالنص يوجه النظر ويضبط المقاصد والحدود، والمعرفة الصحيحة بالواقع تساعد على تحديد كيفية الاستجابة. وكلما كان القارئ أدق في فهم النص والواقعة معاً، كان أقرب إلى تطبيق الهداية تطبيقاً رشيداً.

كما أن تطبيق الآية على الحياة لا يتطلب دائماً قراراً كبيراً أو تغييراً شاملاً؛ فقد يظهر أثرها في كلمة يضبطها الإنسان، أو حق يؤديه، أو عادة يراجعها، أو موقف يتوقف فيه عن التسرع. وهذه الأعمال قد تبدو صغيرة، لكنها تمثل انتقالاً حقيقياً من المعرفة إلى الاستجابة.

وبذلك لا يكون التدبر مجرد إسقاط للنص على الوقائع، بل عملية فهم مزدوجة: فهم ما يقوله القرآن، وفهم ما تتطلبه الحياة في ضوء هدايته. وهذه العملية تحتاج إلى علم وتواضع ومراجعة، حتى يبقى القرآن مصدراً لتصحيح السلوك، لا أداة لتبرير الهوى أو فرض الأحكام دون بيئة.

رابعاً: نماذج عملية لتدبر آية وتحويلها إلى سلوك

يحتاج التدبر التطبيقي إلى نماذج توضح كيفية الانتقال من قراءة الآية إلى فهم معناها، ثم تحديد هدايتها، وأخيراً ترجمتها إلى سلوك يمكن مراجعته. ولا يقصد بهذه النماذج حصر جميع وجوه الآيات في التطبيقات المذكورة، ولا الادعاء بأن التطبيق المقترح هو المعنى الوحيد للنص، وإنما بيان طريقة عملية للاستفادة من الهداية مع المحافظة على الدلالة والسياق.

النموذج الأول: تدبر آية في ضبط القول

قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

1 فهم المعنى في سياقه

تأتي العبارة ضمن سياق يتناول جملة من المواثيق والتكاليف الأخلاقية والاجتماعية، ومنها الإحسان في التعامل مع الناس. ويشير الأمر بحسن القول إلى

أهمية الكلمة في بناء العلاقات، وأن الخطاب الإنساني ينبغي أن يلتزم ما يليق من الأدب والإحسان.

ولا يقتضي ذلك أن تكون جميع الكلمات متساوية في مضمونها أو أن يُترك بيان الحق خشية مخالفة الآخرين؛ بل المقصود أن يكون القول حسنًا في مضمونه وطريقته، وألا يتحول الاختلاف إلى إهانة أو ظلم.

2 تحديد الهداية العملية

يمكن أن يستخلص القارئ من الآية ضرورة مراقبة لسانه، ومراجعة الطريقة التي يعبر بها عن رأيه، والتمييز بين نقد الفكرة وإهانة صاحبها.

3 تحويل الهداية إلى سؤال شخصي

- كيف أتحدث عندما أغضب؟
- هل أستخدم السخرية أو الألفاظ الجارحة في الخلاف؟
- هل أختار الكلمات التي توصل المعنى دون انتقاص من الآخرين؟
- هل أستطيع بيان خطأ ما دون تجريح صاحبه؟

4 تحديد الاستجابة

يمكن للقارئ أن يختار ممارسة محددة، مثل التوقف عن الرد أثناء الغضب الشديد حتى يهدأ، أو الامتناع عن الألفاظ المهينة في النقاش، أو الاعتذار عن كلمة جارحة صدرت منه.

5 مراجعة الأثر

بعد مدة مناسبة، يراجع القارئ عدد المواقف التي استطاع فيها ضبط لسانه، والمواقف التي أخفق فيها، والأسباب التي أدت إلى ذلك. ولا تكون الغاية مجرد تسجيل النجاح والإخفاق، بل فهم العادات التي تحتاج إلى تعديل.

ويظهر في هذا النموذج أن التطبيق لم يضيف إلى الآية حكمًا غريبًا عنها، وإنما نقل معنى حسن القول إلى مواقف يومية محددة. كما أن التطبيق لا يقتصر على مجال واحد؛ فقد يتعلق بالأسرة، أو العمل، أو النقاش العام، مع بقاء أصل الهداية واحدًا.

النموذج الثاني: تدبر آية في التوبة والإصلاح

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

1 فهم المعنى في سياقه

تأتي الآية بعد الدعوة إلى عدم القنوط من رحمة الله، فتنتقل من فتح باب الرجاء إلى الأمر بالإنابة والاستسلام لله. وهذا الترابط يوضح أن الرجاء لا يكتمل بمجرد الشعور بالأمل، بل يقتضي رجوعًا واستجابة قبل فوات زمن العمل.

2 تحديد الهداية العملية

تتمثل الهداية في المبادرة إلى التوبة وعدم تأجيل الإصلاح، مع إدراك أن الاعتراف بالخطأ ينبغي أن يتبعه عمل يغير مسار السلوك.

3 تحويل الهداية إلى سؤال شخصي

- هل يوجد ذنب أستمر فيه مع علمي بخطئه؟
- هل أؤجل التوبة انتظارًا لظرف مثالي؟
- هل أبرر سلوكي بدل الاعتراف بمسؤوليتي؟
- هل ترتب على خطئي حق للآخرين يحتاج إلى رد أو إصلاح؟

4 تحديد الاستجابة

إذا تبين للقارئ تقصير في عبادة واجبة، بدأ بمعالجة هذا التقصير وفق الأحكام الشرعية. وإذا تعلق الخطأ بحقوق الناس، نظر في الوسائل المشروعة لرد الحقوق أو إصلاح الضرر. وإذا كان السلوك المتكرر مرتبطًا بعادة أو بيئة معينة، عمل على تقليل أسباب تكراره، وطلب العون عند الحاجة.

5 مراجعة الأثر

يتابع القارئ ما إذا كان قد اتخذ خطوات فعلية، أو اكتفى بالندم المؤقت. كما يراجع ما إذا كان الإصلاح يحتاج إلى استكمال، مع عدم تحويل الإخفاق العارض إلى مبرر لترك التوبة.

ويبين هذا النموذج أن الرجاء القرآني يكتسب أثره العملي عندما يتحول إلى إنابة، وأن التوبة ليست مجرد حالة وجدانية، بل مسار من الاعتراف والرجوع والإصلاح.

النموذج الثالث: تدبر آية في الصبر والاستعانة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

1 فهم المعنى في سياقه

توجه الآية المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، وتربط ذلك بمعية الله للصابرين. ويشير هذا التوجيه إلى أن مواجهة المشقة تحتاج إلى ثبات وضبط للنفس، وإلى تقوية الصلة بالله من خلال العبادة.

2 تحديد الهداية العملية

الهداية هنا هي الجمع بين الصبر والاستعانة بالله عند مواجهة الصعوبات، وعدم الاستسلام للانفعال أو اليأس، مع اتخاذ الأسباب المناسبة لمعالجة المشكلة.

3 تحويل الهداية إلى سؤال شخصي

- ما المشكلة التي أواجهها حاليًا؟
- هل أدفعني الضغط إلى اتخاذ قرارات متسرفة؟
- هل أهملت عبادتي بسبب الانشغال أو الضيق؟
- ما الخطوات العملية التي يمكنني اتخاذها لتخفيف المشكلة؟

4 تحديد الاستجابة

يمكن للقارئ المحافظة على الصلاة في وقتها، والإكثار من الدعاء، وتأجيل القرار غير العاجل حتى تتضح جوانبه، ثم تقسيم المشكلة إلى خطوات قابلة للتنفيذ. وإذا كانت المشكلة تتطلب مساعدة طبية أو نفسية أو مهنية، طلب المساعدة المناسبة دون اعتبار ذلك منافيًا للصبر.

5 مراجعة الأثر

يراجع القارئ ما إذا كان قد استطاع ضبط ردود أفعاله، والمحافظة على واجباته، واتخاذ الأسباب المناسبة. وقد لا تزول المشكلة سريعًا، لكن ذلك لا يعني أن الاستجابة لم تحقق أثرًا؛ إذ يمكن أن يظهر أثرها في حسن التصرف، وتقليل الضرر، والمحافظة على الاستقامة أثناء الأزمة.

ويكشف النموذج أن الصبر ليس انتظارًا بلا فعل، وأن الصلاة ليست بديلًا عن الأسباب، بل مصدر استعانة يعين الإنسان على التعامل مع الواقع بوعي وثبات.

النموذج الرابع: تدبر آية في الشكر وحسن استعمال النعمة

قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

1 فهم المعنى في سياقه

تربط الآية الشكر بالعمل، وتوجه إلى أن الاعتراف بالنعمة يظهر في الاستجابة العملية، لا في التعبير اللفظي وحده.

2 تحديد الهداية العملية

تتمثل الهداية في مراجعة كيفية استعمال النعم التي يملكها الإنسان، والنظر في مدى توجيهها إلى الخير وأداء المسؤوليات المتعلقة بها.

3 تحويل الهداية إلى سؤال شخصي

- ما النعمة التي أملكها وأغفل عن مسؤوليتها؟
- كيف أستخدم وقتي أو علمي أو مالي؟

- هل أوجه قدرتي إلى نفع مشروع؟
- هل توجد حقوق مرتبطة بنعمتي لم أؤدها؟

4 تحديد الاستجابة

قد يختار القارئ تخصيص جزء من وقته لنفع أسرته أو مجتمعه، أو تنظيم استخدامه لعلمه وخبرته، أو مراجعة التزاماته المالية، أو المحافظة على صحته بما يعينه على أداء واجباته.

5 مراجعة الأثر

يراجع القارئ مدى التزامه بما اختاره، وهل أصبح أكثر وعيًا بمسؤولية النعمة. ولا يجعل المراجعة قائمة على مقارنة نفسه بالآخرين، بل على تقويم مدى تحسن استجابته وقدرته على الاستمرار.

ويبين هذا النموذج أن الشكر لا يقتصر على الشعور بالامتنان، بل يمتد إلى إدارة الموارد والقدرات بطريقة مسؤولة. كما أن التطبيق يتنوع بحسب طبيعة النعمة وظروف صاحبها، فلا توجد صورة واحدة للشكر العملي تناسب جميع الناس.

النموذج الخامس: تدبر آية في العدل والإحسان

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

1 فهم المعنى في سياقه

تتضمن الآية أمرًا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وهي معانٍ تؤسس لعلاقات قائمة على إعطاء الحقوق، وتجاوز مجرد المعاملة الجافة إلى الإحسان حيث يكون مشروعًا ومناسبًا.

2 تحديد الهداية العملية

تدعو الآية القارئ إلى مراجعة عدله في تعامله مع الآخرين، والتمييز بين ما يجب عليه أدائه من حقوق وما يمكنه بذله من إحسان إضافي.

3 تحويل الهداية إلى سؤال شخصي

- هل أتعامل بالعدل مع من أحب ومن أختلف معه؟
- هل ألتزم بالاتفاقات والحقوق التي عليّ؟
- هل أستعمل سلطتي أو موقعي لمحابة بعض الناس؟
- هل أستطيع الإحسان في موقف لا يترتب عليه ظلم أو إضاعة حق؟

4 تحديد الاستجابة

يمكن للقارئ الوفاء بالتزام آخره، أو تصحيح معاملة غير عادلة، أو توزيع مسؤولياته بصورة منصفة، أو تقديم مساعدة مناسبة لقريب يحتاج إليها، مع مراعاة الحقوق والواجبات.

5 مراجعة الأثر

ينظر القارئ في مدى التزامه بالعدل، وما إذا كان يتأثر بالقرابة أو الصداقة أو الخصومة عند اتخاذ القرار. كما يراجع ما إذا كان إحسانه قد وقع في موضعه، دون أن يؤدي إلى تضییع حق واجب.

ويكشف هذا النموذج أن العدل والإحسان ليسا مفهومي متعارضين؛ فالعدل يحفظ الحقوق، والإحسان يوسع دائرة الخير فيما يجوز. ولا يصح أن يُستخدم الإحسان لتبرير التهاون في حق واجب، كما لا يصح أن يتحول العدل إلى قسوة تتجاهل إمكان المعاملة الحسنة.

خلاصة منهجية للنماذج التطبيقية

توضح النماذج السابقة أن الانتقال من الآية إلى السلوك يمر بمراحل متتابعة: فهم المعنى في سياقه، وتحديد الهداية التي يدل عليها، وصياغة سؤال يرتبط بحياة القارئ، واختيار استجابة ممكنة، ثم مراجعة أثرها.

وتختلف التطبيقات باختلاف الآيات والظروف؛ فبعض الهدايات يتطلب ترك سلوك، وبعضها يقتضي أداء واجب، وبعضها يدعو إلى اكتساب عادة أو مراجعة تصور أو تحسين علاقة. ولذلك لا ينبغي أن يُفرض قالب عملي واحد على جميع الآيات، ولا أن تُقاس قيمة التدبر بكمية الأعمال التي يخرج بها القارئ، بل بسلامة الفهم وصدق الاستجابة ومناسبتها للدلالة والواقع.

ومن الضروري أن تبقى هذه التطبيقات أمثلة على الانتفاع بالهداية، لا تفسيرات حصرية للنصوص. فقد يستفيد القارئ من الآية الواحدة في أكثر من مجال، وقد يختلف التطبيق بين شخص وآخر مع اتفاقهما على أصل المعنى. كما أن بعض التطبيقات يحتاج إلى الرجوع إلى أهل العلم أو الخبرة، خصوصًا إذا تعلق بحقوق الناس أو الأحكام الشرعية أو المسائل الفنية المعقدة.

والغاية من هذه المنهجية أن يصبح التدبر ممارسة منتظمة تربط القرآن بالحياة، دون أن تختزل النصوص في خواطر شخصية أو نصائح عامة. فالقرآن يهدي إلى الحق، والتدبر يعين على إدراك هذه الهداية، والعمل الصالح يمثل إحدى أهم صور الاستجابة لها.

المراجع

أولاً: مصادر التفسير وعلوم القرآن

١. الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. يُرجع إلى الطبعة المعتمدة المتاحة عند توثيق موضع محدد.
٢. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن. يُرجع إلى الطبعة المعتمدة المتاحة عند توثيق موضع محدد.
٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. يُرجع إلى الطبعة المعتمدة المتاحة عند توثيق موضع محدد.
٤. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. يُرجع إلى الطبعة المعتمدة المتاحة عند توثيق موضع محدد.

ثانياً: مصادر الحديث وشروحه

٥. البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح.
٦. مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم.

ثالثاً: مصادر أصول التفسير وعلوم القرآن

٧. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن.
٨. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. الإتقان في علوم القرآن.

المنزل الرابع: مرآة القلب — تزكية النفس في ضوء القرآن

المبحث الأول: القرآن ومعرفة النفس

أولاً: النفس بين الاستقامة والانحراف

لا تكتمل صحبة القرآن بمجرد معرفة معاني الآيات أو استحضار دلالاتها، وإنما يظهر أثرها الأعمق حين تصبح وسيلة لفهم النفس، وكشف دوافعها، وتقويم مسارها. فالقرآن لا يقدم للإنسان خطاباً يتناول العالم من حوله فحسب، بل يوجّه نظره إلى داخله أيضاً؛ إلى ما يختلج في صدره من نيات، وما يتحرك في نفسه من رغبات، وما يتردد في قلبه من إرادات، وما يصدر عنه من أفعال تعكس حقيقة استجابته لهداية الله.

ومن هنا، فإن معرفة النفس في ضوء القرآن ليست تمريناً ذهنيّاً غايته جمع المعلومات عن الطباع البشرية، وإنما هي معرفة إصلاحية تساعد الإنسان على التمييز بين ما يقربه من الاستقامة وما يبعده عنها، وبين الدوافع التي ينبغي تنميتها وتلك التي تستلزم المراجعة والمجاهدة.

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۚ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]. وتكشف هذه الآيات عن مركزية تزكية النفس في طريق الفلاح، كما تبين أن الإنسان مسؤول عن موقفه من الاستعدادات والميول التي تتجاذبه، وأن صلاح النفس ليس أمراً يتحقق بمجرد التمني، بل يرتبط بالتزكية والمجاهدة.

ولا تعني هذه المسؤولية أن الإنسان يملك نفسه استقلالاً عن توفيق الله، وإنما تعني أنه مأمور بالأخذ بأسباب الهداية، ومجاهدتها، ومقاومة دواعي الانحراف، مع افتقاره الدائم إلى ربه. ولذلك جمع القرآن بين الأمر بالتزكية وطلب التوفيق الإلهي، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۚ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، فربط الفلاح بالتزكية والذكر والصلاة، بما يدل على أن إصلاح النفس يجري ضمن منظومة متكاملة من الإيمان والعبادة والعمل.

والنفس في التجربة الإنسانية ليست على حال واحدة؛ فقد تقوى فيها دوافع الخير في موقف، وتغلبها شهوة أو غضب في موقف آخر. وقد يكون الإنسان مستقيماً في جانب من حياته، مقصراً في جانب آخر. ومن الخطأ اختزال هذه الحركة في حكم مطلق على النفس بالصلاح الكامل أو الفساد التام؛ لأن مثل هذا التصنيف قد يحجب عن الإنسان حقيقة مواضع القوة والضعف لديه، ويعوق قدرته على الإصلاح المتدرج.

ويؤكد القرآن هذه الطبيعة البشرية حين يذكر قابلية الإنسان للضعف والاستجابة للشهوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]. والآية الثانية واردة في سياق قصة يوسف عليه السلام، وهي تنبه إلى خطورة دوافع النفس، وتؤكد أن السلامة من شرورها ليست ثمرة الثقة المجردة بالنفس، وإنما تحتاج إلى رحمة الله ومعونته.

غير أن الاعتراف بضعف النفس لا يبرر الاستسلام لها، كما أن الإقرار بقابليتها للانحراف لا يعني أن الانحراف قدر لا يمكن مقاومته. فالتكليف الشرعي قائم على إمكان المجاهدة، وطلب الهداية، والتوبة عند الخطأ، والسعي إلى تحسين السلوك. وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وعلى هذا الأساس، فإن صحبة القرآن تمنح الإنسان معيارًا يراجع به نفسه، فلا يجعل رغباته الخاصة مصدرًا وحيدًا للحكم على أفعاله، ولا يتخذ انطباعه عن ذاته دليلًا كافيًا على استقامتها. فقد يرى المرء عمله حسنًا وهو يخالف هدي الوحي، وقد يستصغر ذنبًا يترتب عليه ظلم غيره، وقد يبرر قسوةً في المعاملة باسم الصراحة، أو كبرًا باسم الثقة بالنفس، أو تقصيرًا في الحقوق باسم الانشغال بالطاعة.

وتأتي الهداية القرآنية لتعيد ترتيب هذه التصورات، وتضع النية والعمل والحق والواجب في مواضعها الصحيحة. فليست العبرة بمجرد ما يراه الإنسان في نفسه، بل بمدى موافقة فعله للحق، وصدقه في طلبه، واستعداده للاعتراف بالخطأ وتصحيحه.

ومن هنا يمكن للقارئ أن يجعل من كل قراءة فرصة لسؤال نفسه: ما الصفة التي تدعوني هذه الآيات إلى تنميتها؟ وما الخلل الذي تكشفه في سلوكي؟ وهل أتعامل مع أخطائي بصدق، أم أبحث لها عن مبررات؟ وهل أستجيب للحق حين يخالف هواي، أم أطلب من النصوص ما يؤيد ما أريد سلفًا؟

إن هذه الأسئلة ليست وسيلة للحكم على السرائر أو ادعاء معرفة ما في القلوب، وإنما هي أدوات للمحاسبة الذاتية المنضبطة. والمقصود منها أن يتحول القرآن من معرفة يتلقاها الإنسان إلى هداية يختبر أثرها في اختياراته، وأن يصبح التعرف إلى النفس مقدمة لإصلاحها، لا بابًا إلى الانشغال بها على حساب العمل.

ثانيًا: الغفلة وأثرها في السلوك

الغفلة من أبرز العوائق التي تحول دون الانتفاع المستمر بالقرآن؛ إذ قد يعرف الإنسان الحق، ويستحضر بعض أحكامه، ويقر بفضله، ثم يصدر عنه في حياته ما يناقض مقتضاه. وليس سبب هذا التناقض دائماً غياب المعرفة، فقد يكون ناشئاً عن ضعف استحضارها عند الموقف، أو غلبة العادة، أو الاسترسال مع الهوى، أو الانشغال المتواصل بما يصرف القلب عن مراجعة النفس.

وقد وصف القرآن خطر الغفلة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، كما حذر من حال من تعطلت لديهم منافذ الاعتبار، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وتشير الآية إلى أن المشكلة لا تكمن في انعدام أدوات الإدراك، وإنما في تعطيل وظيفتها التي خلقت لها؛ فوجود السمع والبصر والقلب لا يكفي ما لم تتحول المعرفة والإدراك إلى اعتبار واستجابة. وهذا المعنى وثيق الصلة بصحبة القرآن؛ لأن القارئ قد يسمع الآيات مراراً، ويألف ألفاظها، لكنه لا يمنحها من الانتباه ما يسمح لها بأن تؤثر في أحكامه وسلوكه.

وقد تتخذ الغفلة صوراً متعددة؛ فمنها الغفلة عن الله وحقوقه، ومنها الغفلة عن الآخرة وما تستلزمه من مسؤولية، ومنها الغفلة عن حقوق الآخرين، ومنها الغفلة عن عيوب النفس بسبب الانشغال بتتبع عيوب الناس. وقد يجتمع أكثر من نوع في سلوك واحد؛ فينشغل الإنسان بتقويم الآخرين، بينما يتساهل في تقصيره، أو يكثر من الحديث عن الأخلاق دون أن يراجع أثرها في معاملاته اليومية.

وتزداد خطورة الغفلة حين تتحول إلى نمط مستقر من الحياة؛ إذ يصبح السلوك الخاطئ مألوفاً، وتضعف حساسية الإنسان تجاه آثاره، ويجد لنفسه من التبريرات ما يسمح باستمراره. وقد يبدأ الأمر بتقصير عابر، ثم يتكرر حتى يصير عادة، ثم تُبنى حوله تصورات تبرره وتمنحه شرعية زائفة.

ومن هنا كان استحضار القرآن في الحياة اليومية وسيلةً لمقاومة هذا المسار. فالذكر يوقظ القلب من الاسترسال، والتدبر يعيد المعنى إلى دائرة الانتباه، والمحاسبة تكشف الفجوة بين ما يؤمن به الإنسان وما يمارسه فعلاً. وقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ولا تعني مقاومة الغفلة أن يبقى الإنسان في حالة من التوتر النفسي المستمر، أو أن يحمل نفسه ما لا تطيق من المراقبة المتكلفة؛ وإنما المقصود أن يبني في حياته مواطن منتظمة للذكر والمراجعة، وأن يتعلم التوقف قبل القرار، والنظر في عاقبة الفعل قبل الإقدام عليه، والرجوع إلى الحق عند ظهور الخطأ.

ويمكن للقارئ أن يختبر أثر صحبته للقرآن من خلال مواقف محددة: هل تساعده الآيات التي يقرأها على ضبط غضبه؟ هل تذكره بحرمة الغيبة حين يجلس في مجلس يُنتقص فيه الآخرون؟ هل يستحضر الأمانة حين يتعامل مع أموال الناس أو أسرارهم؟ هل تمنعه معاني العدل من تفضيل نفسه أو من يوافقه على حساب الحق؟

هذه الأسئلة تنقل مفهوم الغفلة من دائرة عامة يصعب قياسها إلى سلوكيات يمكن ملاحظتها ومراجعتها. فليس المقصود أن يدعي القارئ أنه تخلص من الغفلة بمجرد شعوره بالتأثر أثناء القراءة، وإنما أن ينظر في أثر التذكير القرآني على قراراته وعاداته.

كما ينبغي التمييز بين الغفلة التي تعبر عن تقصير يحتاج إلى تدارك، وبين ما قد يعرض للإنسان من شرود عابر أو نسيان طبيعي لا يملك دفعه في كل حين. فالمحاسبة النافعة لا تقوم على تضخيم الهفوات البشرية، وإنما على اكتشاف الأنماط المتكررة التي تضعف الاستقامة، والعمل على معالجتها.

وبذلك تصبح صحبة القرآن وسيلة لإحياء اليقظة الأخلاقية، فلا تبقى الآيات حاضرة في الذاكرة وغائبة عن القرار، ولا ينفصل الذكر عن المسؤولية، ولا تتحول العبادة إلى ممارسة معزولة عن بقية شؤون الحياة.

ثالثاً: محاسبة النفس في ضوء الوحي

محاسبة النفس من الوسائل الأساسية التي تعين الإنسان على معرفة مواضع التقصير، ومراجعة اختياراته، وتقدير ما يحتاج إليه من إصلاح. وهي في ضوء القرآن ليست اتهامًا دائمًا للذات، ولا انشغالاً مفرطاً بالأخطاء، وإنما نظر صادق في العمل والنية والنتائج، بقصد التوبة والإصلاح والاستعداد للقاء الله.

وقد أرشد القرآن إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وتتضمن الآية دعوة إلى النظر فيما قدم الإنسان لمستقبله الأخروي، وهو نظر يتجاوز مجرد تذكر الأعمال إلى تقويمها واستحضار عواقبها. كما أن إعادة الأمر

بالتقوى في الآلية تؤكد أن المحاسبة ليست غاية مستقلة، بل وسيلة لتعميق المسؤولية واستقامة العمل.

ومن المهم هنا التمييز بين محاسبة النفس وبين محاكمة الآخرين؛ فالمحاسبة التي يقصد بها الإصلاح تبدأ من المجال الذي يملك الإنسان مراجعته، وهو عمله وقراراته وحقوق من يتعامل معهم. أما تحويل الانشغال بالنفس إلى وسيلة لتتبع عيوب الناس، فإنه يقلب المقصود من المحاسبة ويجعلها بابًا للتعالي بدل التواضع.

وتقوم المحاسبة الرشيدة على النظر في ثلاثة مجالات مترابطة:

المجال الأول: النية والدافع. يسأل الإنسان نفسه عن المقصد الذي حمله على العمل: هل طلب به وجه الله، أم أراد ثناء الناس؟ وهل دفعه إلى موقف معين نصح صادق، أم رغبة في الانتصار للنفس؟ وهل كان اعتراضه على الخطأ قائمًا على الحق، أم على خصومة شخصية؟

ولا تعني هذه الأسئلة الجزم بنوايا النفس أو ادعاء الوصول إلى حقيقة باطنها؛ فالنيات قد تختلط على الإنسان، وقد يحتاج إلى وقت ومجاهدة حتى يميز دوافعه. والمقصود أن يتعامل مع نفسه بصدق، وألا يجعل مجرد انتسابه إلى مقصد صالح دليلاً كافياً على سلامة عمله.

المجال الثاني: الفعل ومدى موافقته للحق. قد تكون النية حسنة، لكن الوسيلة خاطئة، وقد يقصد الإنسان النصح ثم يسيء التعبير عنه، أو يريد الإصلاح فيتجاوز حقوق الآخرين، أو يسعى إلى منفعة مشروعة بوسيلة محرمة. ولهذا لا تكفي النية وحدها لتقويم السلوك، بل لا بد من النظر في مشروعية العمل وعدالته وآثاره.

المجال الثالث: النتائج والحقوق. لا تنتهي المحاسبة عند اكتشاف الخطأ، وإنما تمتد إلى ما ترتب عليه. فإذا ترتب على القول أذى، أو على التصرف ضياع حق، أو على الإهمال ضرر بالآخرين، وجب النظر في إمكان إصلاح الأثر ورد الحق إلى صاحبه. فالتوبة الصادقة لا تكتفي بالشعور بالندم مع ترك المظالم على حالها.

ومن هذا المنطلق، يمكن أن تتحول القراءة اليومية إلى مناسبة لمراجعة العمل؛ فإذا قرأ الإنسان آيات العدل، نظر في عدله مع من يخالفه. وإذا مر بآيات الأمانة، راجع التزامه بالعهود والمسؤوليات. وإذا قرأ آيات العفو، تأمل ما إذا كان يحمل في نفسه خصومات يمكن معالجتها، مع عدم إهدار حق مشروع أو التنازل عن واجب لازم.

ولا ينبغي أن تتحول هذه المراجعة إلى عملية شكلية يكتفي فيها الإنسان بكتابة الأخطاء دون اتخاذ خطوات لتصحيحها. فالقيمة الحقيقية للمحاسبة تظهر في انتقالها إلى قرار عملي، ولو كان محدودًا: اعتذار عن إساءة، أو رد مال، أو وقف عادة مؤذية، أو ضبط كلمة، أو إعادة حق، أو وضع خطة لتدارك تقصير متكرر.

كما أن المحاسبة تحتاج إلى ميزان عادل، فلا يقتصر الإنسان فيها على تضخيم أخطائه وإغفال ما أنعم الله به عليه من فرص الخير، ولا يكتفي بتذكر حسناته لتبرير تقصيره. والمطلوب أن يرى الواقع بقدر من الصدق والالتزان، فيشكر على التوفيق، ويستغفر من التقصير، ويواصل العمل دون غرور أو قنوط.

ويكتمل هذا المعنى باستحضار أن الله تعالى يعلم ظاهر الإنسان وباطنه، وأن محاسبته لنفسه لا تغني عن محاسبة الله له، وإنما هي من أسباب الاستعداد للموقف الذي لا تخفى فيه خافية. وقد قال سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وعليه، فإن محاسبة النفس في صحبة القرآن ليست طقسًا يوميًا منفصلًا عن بقية الحياة، وإنما هي طريقة في النظر إلى العمل، تجعل الإنسان أكثر استعدادًا للاعتراف بالخطأ، وأبعد عن التبرير، وأقدر على إصلاح ما يمكن إصلاحه. وكلما تحولت المحاسبة إلى خطوات عملية قابلة للمراجعة، ازداد اتصالها بمقصد التزكية، وابتعدت عن مجرد التأثير العابر.

رابعًا: التمييز بين محاسبة النفس والوقوع في اليأس أو جلد الذات

قد يخطئ الإنسان في فهم محاسبة النفس، فيظن أن صدق التوبة يقتضي أن يبقى أسير الشعور بالذنب، أو أن الاعتراف بالتقصير لا يكون صادقًا إلا إذا بالغ في لوم ذاته. وقد يقوده هذا الفهم إلى تضخيم الأخطاء، أو استحضارها بصورة تعطل قدرته على الإصلاح، أو الاعتقاد بأنه غير جدير بالهداية مهما بذل من جهد.

وهذا المسار لا ينسجم مع المنهج القرآني الذي يجمع بين الاعتراف بالخطأ وفتح باب الرجوع، وبين الخوف من عاقبة الذنب والرجاء في رحمة الله. فالتزكية ليست دعوةً إلى تحطيم النفس، بل إلى إصلاحها، وليست إنكارًا للضعف البشري، بل إلى التعامل معه بمسؤولية.

وقد جاء النهي الصريح عن القنوط في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وتدل الآية على أن كثرة الذنوب لا تبرر إغلاق باب الرجاء، بل تدعو إلى العودة إلى الله وعدم الاستسلام لليأس.

ولا يعني ذلك أن الرجاء يبيح التهاون بالمعصية أو تأجيل التوبة؛ فالآية التالية تدعو إلى الإنابة إلى الله والاستسلام له قبل مجيء العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]. وبذلك يجتمع في الخطاب القرآني رفض القنوط ورفض الاسترسال في الذنب. ويقتضي هذا الجمع التمييز بين ثلاثة أحوال:

الحال الأولى: الندم الذي يقود إلى الإصلاح. يشعر الإنسان بخطئه، ويعترف بمسؤوليته، ثم يبادر إلى التوبة وتصحيح الأثر، ويستفيد من التجربة في تقليل احتمال تكرارها. وهذا هو المسار الذي ينبغي أن تتجه إليه المحاسبة؛ لأن الندم فيه ليس غاية مستقلة، بل دافع إلى تغيير حقيقي.

الحال الثانية: التبرير الذي يعطل التوبة. يعرف الإنسان أنه أخطأ، لكنه يحمل الآخرين مسؤولية فعله، أو يستحضر أخطاءهم لتخفيف مسؤوليته، أو يجعل ظروفه مبررًا دائمًا للاستمرار. وفي هذه الحال تتحول المحاسبة إلى اعتراف لفظي لا يترتب عليه إصلاح.

الحال الثالثة: جلد الذات الذي يعطل العمل. يستغرق الإنسان في لوم نفسه، ويكرر استحضار خطئه دون أن يتخذ خطوات لمعالجته، وقد يصل إلى اعتقاد أنه لا يستطيع التغيير. وفي هذه الحال يصبح الشعور بالذنب عائقًا أمام التوبة بدل أن يكون باعثًا عليها.

والفارق بين المحاسبة النافعة وجلد الذات ليس في مقدار الألم النفسي وحده، بل في اتجاه العملية ونتائجها. فالمحاسبة النافعة تقود إلى تحمل المسؤولية، وتحديد موضع الخلل، واتخاذ إجراء مناسب لإصلاحه، بينما قد يقود جلد الذات إلى اجترار الخطأ دون معالجة أسبابه أو آثاره.

ومن المهم كذلك ألا يخلط الإنسان بين التواضع واحتقار النفس؛ فالتواضع هو قبول الحق وعدم التعالي على الخلق، أما احتقار النفس فليس شرطًا للتوبة ولا دليلًا على صلاح القلب. كما أن الاعتراف بوجود صفات حسنة أو نجاحات مشروعة لا يناقض التواضع، ما دام الإنسان لا يجعلها وسيلة للغرور أو الاستعلاء على الآخرين.

ويقتضي هذا التوازن أن يفرّق القارئ بين الذنب الذي يحتاج إلى توبة، والحق الذي يحتاج إلى رد، والعادة التي تحتاج إلى تدريب، والضعف العابر الذي يحتاج إلى صبر وتنظيم. فليست كل مشكلة تعالج بالاستغفار وحده دون اتخاذ أسباب عملية، كما أن الاستعانة بالأسباب لا تغني عن التوبة والرجوع إلى الله.

ويمكن تطبيق ذلك عند اكتشاف عادة متكررة، كالغضب السريع أو كثرة المقاطعة أو التأخر في أداء الحقوق. فبدل الاكتفاء بلوم النفس، يحدد الإنسان المواقف التي تتكرر فيها المشكلة، والعوامل التي تزيد احتمال وقوعها، ثم يضع إجراءً عملياً لتقليلها، كالتريث قبل الرد، أو تجنب النقاش في وقت الانفعال، أو تنظيم الالتزامات، أو طلب المشورة عند الحاجة.

أما إذا ترتب على الخطأ ضرر بالآخرين، فلا ينبغي أن ينشغل الإنسان بمشاعره تجاه نفسه حتى ينسى حق المتضرر. فقد يكون الاعتذار، أو رد المال، أو تصحيح المعلومة، أو إزالة الضرر، هو الخطوة العملية الأهم في طريق التوبة. وهكذا تضع صحبة القرآن محاسبة النفس في موضعها الصحيح: لا هي غفلة عن العيوب، ولا استغراق فيها، وإنما وعي بالمسؤولية يتبعه عمل، وخوف يمنع الاسترسال، ورجاء يمنع القنوط، ومجاهدة تتجدد كلما ظهر ضعف أو وقعت زلة.

المبحث الثاني: أمراض القلب ووسائل علاجها أولاً: الكبر والتواضع

من أخطر ما يعوق الانتفاع بالقرآن أن تتحول المعرفة الدينية إلى وسيلة لتعظيم الذات بدل إصلاحها. فقد يزداد الإنسان اطلاعاً على النصوص، ويحسن الحديث عن الفضائل، ويكثر من تذكير الآخرين بالواجبات، ثم لا ينعكس ذلك على قدرته على قبول الحق، أو احترام الناس، أو الاعتراف بالخطأ. وفي هذه الحال لا تكمن المشكلة في نقص المعلومات بالضرورة، وإنما في خلل العلاقة بين العلم والعمل، وبين معرفة الحق والاستجابة له.

ويأتي الكبر في مقدمة الأمراض التي تكشف هذا الخلل؛ لأنه لا يقتصر على مظهر خارجي من مظاهر التعالي، بل قد يتصل بطريقة الإنسان في النظر إلى نفسه والآخرين، وبقدرته على قبول ما يخالف رأيه، وبمدى استعداده للاعتراف بأن الحق قد يظهر على لسان من هو أقل منه منزلةً أو علماً أو خبرة.

وقد نهى القرآن عن الكبر في مواضع متعددة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]. ويجمع هذا التوجيه بين مظهر التعامل مع الناس، وما قد يعكسه من استعلاء داخلي، كما يربط النهي عن الخيلاء والفخر بوجوب مراعاة كرامة الآخرين.

وفي السنة النبوية بيان جامع لحقيقة الكبر، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» (١). ويكشف هذا التعريف عن بُعدين متلازمين: رد الحق واحتقار الناس. فقد يتجلى الكبر في رفض النصيحة لأن قائلها أقل منزلةً في نظر المرء، أو في الاستعلاء على من يختلف معه، أو في التعامل مع المكانة الاجتماعية والعلمية باعتبارها مبرراً لانتقاص الآخرين.

ومن هنا، فإن علاج الكبر لا يتحقق بمجرد ارتداء هيئة متواضعة أو استعمال عبارات لطيفة، وإنما يحتاج إلى مراجعة المعايير التي يقيس بها الإنسان قيمة نفسه والناس. فليس ارتفاع المنزلة العلمية دليلاً على استحقاق الاستعلاء، ولا كثرة العبادة مبرراً لاحتقار المقصرين، ولا امتلاك المال أو النفوذ سبباً لانتقاص من لا يملكونه.

ويظهر أثر الكبر بوضوح في المواقف التي يواجه فيها الإنسان ما يخالف هواه. فإذا تلقى نصيحةً، فهل ينظر في مضمونها أم ينشغل بمكانة الناصح؟ وإذا أخطأ، فهل يبادر إلى التصحيح أم يبحث عن وسيلة لحفظ صورته أمام الناس؟ وإذا نجح

غيره، فهل يعترف بفضلله أم يحاول التقليل من شأنه؟ إن هذه المواقف تكشف عن حقيقة التواضع أكثر مما تكشف عنها المظاهر المجردة.

أما التواضع في ضوء القرآن، فليس إلغاءً لقدرات الإنسان، ولا إنكاراً لما لديه من علم أو خبرة، وإنما وضع كل شيء في موضعه الصحيح، مع الاعتراف بفضل الله، واحترام حقوق الآخرين، وعدم اتخاذ ما يملكه المرء وسيلةً للتعالي عليهم.

وقد جاء في وصية لقمان لابنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. ويعيد هذا التوجيه الإنسان إلى إدراك حدوده، ويواجه وهم العظمة الذي قد يدفعه إلى تجاوز قدره أو احتقار من حوله.

ولا يتعارض التواضع مع الثقة بالنفس أو الدفاع عن الحقوق؛ فقد يحتاج الإنسان إلى بيان علمه وخبرته عند أداء مسؤولية، أو إلى رفض الظلم، أو إلى توضيح خطأ شائع. وإنما الممنوع أن تتحول هذه المواقف إلى باب للتعالي أو انتقاص الآخرين. فالفرق قائم بين بيان الحق واحتكار الحقيقة، وبين الاعتزاز بالمسؤولية وادعاء التفوق المطلق.

ويمكن أن يبدأ علاج الكبر بممارسات عملية محددة، منها: تدريب النفس على قبول النصيحة قبل الرد عليها، والاعتراف الصريح بالخطأ عند ثبوته، وإعطاء الآخرين حقهم من التقدير، والامتناع عن السخرية من ضعفهم أو جهلهم، ومراجعة الدوافع التي تحمل الإنسان على طلب الظهور أو الانتصار للنفس.

كما ينبغي للقارئ أن ينتبه إلى أن الحديث عن الكبر قد يتحول هو نفسه إلى وسيلة للكبر، حين يتخذ الإنسان من معرفته بهذا المرض معياراً للحكم على الناس، ويغفل عن احتمال وجوده في نفسه. ولذلك فإن الأولى أن يبدأ من سلوكه ودوافعه، وألا يجعل الحديث عن آفات القلوب ذريعةً إلى تفتيش السرائر.

والمعيار العملي للانتفاع بآيات التواضع ليس مجرد الشعور بالخشوع عند قراءتها، بل أن يصبح الإنسان أقدر على قبول الحق، وأقل احتقاراً للناس، وأسرع رجوعاً عن الخطأ، وأكثر اعترافاً بأن ما لديه من فضل هو نعمة تستوجب الشكر لا الاستعلاء.

ثانيًا: الرياء والإخلاص

الإخلاص من المعاني المركزية في صحبة القرآن؛ لأنه يتعلق بالغاية التي يتوجه إليها الإنسان بعمله، وبالجهة التي يطلب رضاها وثوابها. وقد يقرأ المرء القرآن، أو يعلم الناس، أو يشارك في أعمال الخير، ثم يدخل على قصده طلب السمعة أو الثناء أو المكانة. ولا يلزم من وقوع مثل هذه الخواطر أن يحكم الإنسان على جميع عمله

بالبطلان، لكنه مطالب بأن يجاهد نفسه، ويصحح قصده، ويحذر من اتخاذ نظر الناس معياراً لقيمة العمل.

وقد قرر القرآن هذا الأصل في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]. فالإخلاص ليس أمراً زائداً على العبادة، وإنما هو من مقاصدها المؤسسة، وبه يتحدد اتجاه القلب في طلب رضا الله. وقال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وفي ذلك تأكيد أن العبادة ينبغي أن تتجه إليه وحده، وألا تتحول إلى وسيلة لاسترضاء الخلق أو تحصيل منزلة بينهم على حساب المقصد الشرعي.

والرياء هو أن يقصد الإنسان بعمله أن يراه الناس فيمدحوه أو يعظموه، وهو يختلف عن مجرد ظهور العمل أو حصول الثناء عليه من غير أن يقصده العامل. فقد يكون العمل معلناً لمصلحة معتبرة، كتعليم الناس أو تشجيعهم على الخير، وقد يثني الناس على إنسان دون أن يكون قد عمل لأجل ثنائهم. لذلك لا يصح الحكم على النيات من المظاهر وحدها، كما لا ينبغي أن يتحول الخوف من الرياء إلى ذريعة لترك الأعمال النافعة التي تقتضي طبيعتها الإعلان.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الرياء، وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح مسلم أن الله تعالى يقول يوم القيامة لمن أشرك في عمله غيره: «أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً» (٢). والحديث يبين أن تعليق العمل بمدح الناس يجعله متعلقاً بمن لا يملك جزاءه، ويكشف عن خطورة تحويل العبادة إلى استثمار في المكانة الاجتماعية.

ويحتاج علاج الرياء إلى تمييز دقيق بين أصل النية والخواطر التي قد تعرض أثناء العمل. فقد يبدأ الإنسان عملاً بقصد صالح، ثم يطرأ عليه شعور بالسرور إذا أثنى الناس عليه، أو رغبة في أن يكون عمله مقبولاً في أعينهم. ولا يصح أن يسوّي بين كل خاطر عابر وبين قصد العمل من أجله؛ إذ المقصود هو المجاهدة الصادقة، وعدم الاسترسال مع الدوافع التي تفسد الغاية.

ومن الوسائل العملية لتقوية الإخلاص أن يستحضر الإنسان المقصد الشرعي قبل العمل، وأن يراجع نفسه عند ظهور الرغبة في الثناء، وأن يعتاد بعض أعمال الخير التي لا يطلع عليها الناس متى تيسر ذلك، وأن يحذر من ترك العمل الصالح لمجرد خوفه من اتهام الناس له بالرياء. فكما أن طلب المدح قد يفسد النية، فإن ترك الخير خوفاً من كلام الناس قد يجعل نظرهم هي الأخرى متحكمة في القرار.

ويظهر أثر الإخلاص في صحبة القرآن من خلال علاقة القارئ بعمله بعد القراءة. فإذا تعلم معنى، فهل يسعى إلى تطبيقه ولو لم يطلع عليه أحد؟ وإذا دعا إلى خلق، فهل يجاهد نفسه في التحلي به في الخفاء كما يدعو إليه في العلن؟ وإذا قصر، فهل يبادر إلى الإصلاح أم ينشغل بحماية صورته أمام الآخرين؟

ومن المهم كذلك ألا يتخذ الإنسان من الإخلاص حكمًا يصدره على غيره. فالنية من أمور الباطن التي لا يحيط بها إلا الله، ولا يكفي اختلاف الأساليب أو ظهور العمل لإثبات الرياء. وإنما يكون التركيز على تهذيب القصد الشخصي، وضبط العمل بالشرع، وعدم استغلال الدين لتحقيق أغراض تناقض مقاصده.

وبهذا المعنى، لا ينفصل الإخلاص عن التواضع؛ لأن المخلص يدرك أن قبول العمل وفضله من الله، فلا يجعل الطاعة سببًا للاستعلاء، ولا يتعامل مع المعرفة القرآنية بوصفها شهادة تفوق على الآخرين. وكلما صلحت النية، أمكن أن تصبح القراءة بابًا لإصلاح العلاقة بالله وبالخلق معًا.

ثالثًا: الحسد والرضا بقسمة الله

الحسد من أمراض القلب التي قد تفسد علاقة الإنسان بالآخرين، وتجعله ينظر إلى النعم التي أنعم الله بها عليهم بوصفها تهديدًا لمكانته أو انتقاصًا من قدره. وقد يظهر الحسد في تمني زوال النعمة عن صاحبها، أو في الضيق من نجاحه، أو في التقليل من إنجازاته، أو في السعي إلى تعطيل مصلحته.

وقد استعاذ القرآن من شر الحاسد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]. والاستعاذة هنا تدل على أن الحسد ليس مجرد شعور عابر لا أثر له، بل قد يرتبط بأقوال وأفعال تضر بالمحسود، ولذلك يحتاج الإنسان إلى مقاومة دوافعه قبل أن تتحول إلى اعتداء.

ولا بد من التمييز بين الحسد والغبطة؛ فالحسد يتضمن تمني زوال نعمة الغير أو كراهة بقائها، أما الغبطة فتتمثل في تمني مثل النعمة مع عدم تمني زوالها عن صاحبها. وقد جاء في الحديث المتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ» (٣)، ثم ذكر الرجل الذي آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، والرجل الذي آتاه الله مَالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار. والمراد هنا الغبطة المحمودة، أي تمني مثل الخير الذي عند الغير دون الرغبة في زواله عنه.

ويكشف هذا التفريق عن أهمية توجيه الرغبة بدل محاولة إلغائها. فالإنسان قد يرى نجاح غيره في العلم أو العبادة أو العمل، فيشعر بأنه يتمنى أن يبلغ مثل منزلته.

ويمكن لهذا الشعور أن يتحول إلى دافع إيجابي للتعلم والاجتهاد، إذا خلا من تمني زوال النعمة أو الانتقاص من صاحبها.

أما الحسد فيرتبط غالبًا بالمقارنة التي تجعل قيمة الإنسان رهينة بما يملكه الآخرون. فينظر إلى نجاح غيره فيرى فيه فشلًا شخصيًا، أو يظن أن تكريم شخص آخر ينتقص من قدره، أو يتعامل مع النعمة باعتبارها موردًا محدودًا لا يتسع لغيره. وهذه النظرة لا تضر بالعلاقات الاجتماعية فحسب، بل تحرم صاحبها من الاستمتاع بما لديه، وتدفعه إلى الانشغال بمراقبة الآخرين بدل تنمية قدراته.

ويعالج القرآن هذا الخلل بتوجيه الإنسان إلى سؤال الله من فضله، بدل الانشغال بتمني ما عند الآخرين، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

ولا تعني الآية أن يتخلى الإنسان عن الطموح أو يرضى بالكسل، وإنما توجهه إلى أن يطلب الخير من الله، ويسعى إلى أسبابه المشروعة، دون أن يجعل نجاح الآخرين سببًا للعداوة أو السخط. فالرضا بقسمة الله لا يناقض العمل لتحسين الحال، كما أن السعي إلى الرزق والعلم والنجاح لا يستلزم الحسد أو احتقار من سبق.

ومن الوسائل العملية لعلاج الحسد أن يتدرب الإنسان على الاعتراف بنعمة الله على غيره، وأن يدعو لصاحبها بالبركة، وأن يلاحظ النعم التي يملكها بدل اختزال حياته في المقارنة، وأن يحول إعجابه بإنجاز الآخرين إلى سؤال عملي: ما الذي يمكنني تعلمه من تجربتهم؟ وما الخطوة التي أستطيع اتخاذها لتحسين أدائي؟

كما ينبغي له أن يراجع العبارات التي تصدر عنه عند الحديث عن الناجحين؛ فقد يكشف التكرار المستمر للتقليل من إنجازاتهم عن خلل يحتاج إلى معالجة. ومن ذلك نسبة نجاحهم إلى الحظ وحده دون دليل، أو التشكيك في نياتهم بلا بينة، أو تضخيم أخطائهم لإلغاء فضلهم.

وفي المقابل، لا يعني الرضا بقسمة الله السكوت عن الظلم أو قبول التمييز غير المشروع. فإذا حُرِمَ الإنسان حقًا ثابتًا، فله أن يطلبه بالطرق المشروعة، دون أن يتحول طلبه للعدل إلى حسد لمن لم يتعرض للظلم نفسه. فالمطلوب هو الجمع بين الرضا بالله، والسعي المشروع، والعدل في النظر إلى الآخرين.

وهكذا تساعد صحبة القرآن على إعادة بناء علاقة الإنسان بنعم الله؛ فيتعلم أن نجاح غيره ليس بالضرورة خسارة له، وأن اختلاف الأرزاق والمواهب لا يبرر

الاعتداء، وأن الخير الذي يطلبه يمكن أن يكون دافعًا للعمل بدل أن يتحول إلى وقود للضغينة.

رابعًا: الغل والحقد وسلامة الصدر

قد ينشأ بين الناس خلاف بسبب كلمة أو موقف أو حق ضائع، ثم يبقى أثره في النفس بعد انتهاء الموقف. فإذا لم يُعالج، فقد يتحول إلى غلٍّ يستقر في القلب، أو حقد يدفع صاحبه إلى استحضار الإساءة باستمرار، أو رغبة في الانتقام تتجاوز حدود الحق المشروع. وعندئذ لا يعود الخلاف محصورًا في واقعة محددة، بل يصبح عدسةً ينظر الإنسان من خلالها إلى كل تصرف يصدر عن الطرف الآخر.

وقد جعل القرآن سلامة الصدر من المعاني المرتبطة بكمال الإيمان في دعاء المؤمنين الذين يأتون بعد السابقين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ويجمع هذا الدعاء بين طلب المغفرة للنفس وللآخرين، وطلب تطهير القلب من الغل. وفي ذلك إشارة إلى أن سلامة الصدر ليست مجرد امتناع عن التصريح بالعداوة، بل هي مقصد يحتاج إلى سؤال الله، ومجاهدة النفس، وإعادة النظر في طريقة التعامل مع الخلافات.

ولا يعني ذلك أن الإنسان لا يتألم من الإساءة، أو أنه مطالب بإنكار ما وقع عليه من ظلم. فالمشاعر الإنسانية لا تزول دائمًا بمجرد القرار، وقد يحتاج المتضرر إلى وقت حتى يستعيد توازنه. كما أن حفظ الحقوق واجب لا يسقط لمجرد الدعوة إلى التسامح. وإنما المقصود ألا يتحول الألم إلى رغبة دائمة في الإضرار، وألا تصبح الخصومة مبررًا لتجاوز حدود العدل.

وقد قرر القرآن هذا التوازن في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. فالآية تثبت حق المعاملة بالمثل في حدوده، ثم تفتح باب العفو المقترن بالإصلاح، وتؤكد في الوقت نفسه أن الظلم مرفوض.

والعفو في هذا السياق ليس مجرد ترك المطالبة بالحق في كل الأحوال، وإنما موقف أخلاقي يختاره الإنسان حين يكون فيه وجه للإصلاح، ولا يترتب عليه تمكين المعتدي من مواصلة الظلم أو إضاعة حقوق الآخرين. ولذلك ينبغي أن يكون الحديث عن سلامة الصدر متوازنًا، فلا يُحمّل المظلوم مسؤولية إساءة غيره، ولا يُستخدم التسامح لإسكات المطالب المشروعة.

ومن جهة أخرى، فإن استمرار الغل قد يضر بصاحبه قبل أن يضر بمن يحمل عليه. إذ يستنزف انتباهه، ويشغله عن مسؤولياته، ويجعله يعيد بناء الموقف في ذهنه مرارًا، وربما دفعه إلى تفسير كل فعل يصدر عن خصمه على أسوأ وجه. وهنا تظهر الحاجة إلى التفريق بين حفظ الذاكرة التي تعين على التعلم والحذر، وبين الاستغراق في الضغينة الذي يعطل القدرة على مواصلة الحياة بصورة متوازنة. وتبدأ المعالجة من تحديد حقيقة النزاع: هل يتعلق بحق يمكن رده؟ أم بسوء فهم يحتاج إلى توضيح؟ أم بإساءة تستلزم اعتذارًا؟ أم بعلاقة لا يمكن إصلاحها في الوقت الحاضر؟ فليس كل خلاف يعالج بالطريقة نفسها، ولا تكون المصالحة ممكنة دائمًا، لكن يمكن للإنسان أن يجاهد نفسه حتى لا يجعل العداوة مبررًا للظلم.

ومن الوسائل النافعة أن يكتب الإنسان ما وقع من غير مبالغة أو تعميم، ويميز بين الفعل الذي صدر عن الطرف الآخر وبين الأحكام المطلقة التي قد يبنينا عليه، ثم يحدد الخطوة المناسبة: حوار هادئ، أو مطالبة بحق، أو اعتذار متبادل، أو وضع حدود تحفظ السلامة والكرامة، أو ترك الخصومة دون استمرار في تأجيحها. كما أن الدعاء للمؤمنين، كما ورد في آية الحشر، يمكن أن يكون تدريبًا على مقاومة الضغينة. ولا يعني ذلك تكلف مشاعر لا يملكها الإنسان، بل أن يطلب من الله إزالة الغل، وأن يمتنع عن تحويل الألم إلى اعتداء، وأن يترك لنفسه فرصة للشفاء دون أن يبرر الظلم.

وتظهر ثمرة صحبة القرآن في هذا الباب عندما يصبح الإنسان أقدر على ضبط ردود أفعاله، وأكثر حرصًا على العدل حتى مع خصومه، وأقل استرسالًا مع الرغبة في التشفي، مع محافظته على حقه في طلب الإنصاف. فسلامة الصدر ليست ضعفًا أمام الظلم، وإنما تحرر من أن يصبح الظلم الذي وقع على الإنسان هو الذي يحدد أخلاقه وسلوكه.

خامسًا: سوء الظن والغيبة وحفظ حقوق الآخرين

تتصل أمراض القلب بالأخلاق الظاهرة اتصالًا وثيقًا؛ فسوء الظن قد يكون مقدمةً للتجسس، والتجسس قد يقود إلى الغيبة، والغيبة قد تتحول إلى وسيلة للإضرار بالسمعة أو تأليب الآخرين. ولهذا لا يكفي في إصلاح العلاقات الاجتماعية أن يمنع الإنسان لسانه من بعض الألفاظ، بل يحتاج إلى مراجعة الطريقة التي يفسر بها أفعال الناس، وإلى التثبت قبل إصدار الأحكام، وإلى احترام ما لا يملك حق الاطلاع عليه.

وقد وضع القرآن قاعدة واضحة في هذا الباب، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

ويلاحظ أن الآية تجمع بين النهي عن كثير من الظن، والنهي عن التجسس، والنهي عن الغيبة. وهذا الجمع يكشف عن ترابط هذه الممارسات في إفساد العلاقات؛ إذ قد يبدأ الأمر بتفسير غير مثبت لتصرف شخص، ثم يدفع إلى البحث عن تفاصيل حياته، ثم ينتهي إلى نقل ما يكره أن يُذكر به.

ولا يعني النهي عن كثير من الظن أن الإنسان مطالب بإلغاء التقدير العقلاني للمواقف أو تجاهل القرائن المعتبرة. فالتعامل مع الناس يحتاج أحياناً إلى الحذر والتحقيق، ولا سيما في المسائل التي تتعلق بالأمانة أو السلامة أو الحقوق. وإنما الممنوع أن يتحول الاحتمال إلى يقين بلا دليل، أو أن تُفسر تصرفات الآخرين دائماً على أسوأ وجه، أو أن تُبنى الاتهامات على الشائعات والتخمينات.

ومن هنا ينبغي للقارئ أن يفرق بين الاحتياط المشروع وسوء الظن المحرم. فالاحتياط يستند إلى قرائن معتبرة، ويتناسب مع طبيعة الخطر، ويهدف إلى منع الضرر. أما سوء الظن فقد ينشأ عن خصومة أو حسد أو تجربة سابقة، ثم يُستخدم لتبرير اتهام لا يملك الإنسان عليه دليلاً كافياً.

أما التجسس، فيتعلق بتتبع ما استتر من أحوال الناس على وجه لا يجيزه الشرع. وهو اعتداء على الخصوصية، وقد يفتح أبواباً من الأذى لا تتناسب مع الدافع الذي بدأ به. ولا يصح أن يجعل الإنسان فضوله أو شكوكه مبرراً لاختراق خصوصيات الآخرين أو جمع أخبارهم ونقلها.

وتأتي الغيبة بوصفها أحد المظاهر العملية لهذا الخلل. وقد عرّفها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» (٤)، ولما سئل عن كون ما يقال في الشخص موجوداً فيه، بيّن أن ذلك غيبة، وأنه إن لم يكن فيه فقد بهته. والحديث يوضح أن صدق الكلام لا يجعله مباحاً تلقائياً؛ فقد يكون الكلام صحيحاً ومع ذلك محرماً بسبب ما يتضمنه من انتقاص وذكر لما يكره صاحبه.

وقد صوّر القرآن قبح الغيبة بصورة بالغة التأثير، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]. فالتشبيه ينقل الغيبة من كونها حديثاً قد يبدو عابراً إلى إدراك ما تنطوي عليه من انتهاك لكرامة الإنسان في غيبته، حين يعجز عن الدفاع عن نفسه في المجلس الذي يُذكر فيه.

ولا يقتصر أثر الغيبة على المتحدث والمذكور؛ فقد تفسد ثقة الناس بعضهم ببعض، وتغذي النزاعات، وتحوّل المجالس إلى مساحات لتبادل الاتهامات، كما قد تنقل معلومات خارج سياقها فتؤثر في قرارات الآخرين. ولذلك فإن حفظ اللسان جزء من حفظ الحقوق، وليس مجرد فضيلة فردية معزولة عن المجتمع.

ومع ذلك، فإن الحكم على الكلام بأنه غيبة محرمة يحتاج إلى مراعاة السياق والمقصد والضوابط الشرعية. فقد ذكر العلماء مواضع يُرخص فيها بذكر الشخص بقدر الحاجة، كالتظلم وطلب الاستعانة على إزالة المنكر والاستفتاء والتحذير المشروع، وفق شروطها وضوابطها. ولا يجوز توسيع هذه الاستثناءات حتى تصبح ذريعةً للنيل من الناس أو نشر عيوبهم بلا حاجة معتبرة.

ويقتضي التثبت قبل الكلام أن يسأل الإنسان نفسه: هل أملك دليلاً على ما أنقله؟ وهل توجد حاجة معتبرة لذكره؟ وهل أستطيع معالجة الأمر بطريقة أقل ضرراً؟ وهل يترتب على كلامي دفع ظلم أو تحقيق مصلحة مشروعة، أم أنه مجرد تفرغ للغضب أو مشاركة في حديث المجلس؟

ويمكن تحويل هذه الأسئلة إلى ممارسة عملية عند سماع خبر عن شخص غائب. فلا يبادر المرء إلى نشره، ولا يجزم بصحته لمجرد أن ناقله موثوق في نظره، بل يتثبت بحسب طبيعة الخبر، ويمتنع عن نقل ما لا حاجة إليه، ويغيّر مسار الحديث إذا تحول إلى انتقاص أو تشهير.

ومن وسائل العلاج كذلك أن يتعلم الإنسان إيقاف الحديث قبل أن يتوسع في ذكر العيوب، وأن يستبدل التعليق على الأشخاص بمناقشة الأفعال أو المشكلات نفسها، وأن يراجع الدافع الذي يحمله على الحديث عن الآخرين. فقد يتذرع بعض الناس بالنصيحة، بينما يكون المقصود الحقيقي هو إظهار التفوق أو الانتقام من خصم أو كسب قبول المجلس.

وإذا وقع الإنسان في الغيبة، فالمطلوب أن يتوب إلى الله، وأن يعزم على عدم العودة، وأن ينظر في أثر كلامه: فإن ترتب عليه ضرر أو انتشرت بسببه معلومة غير صحيحة، سعى إلى تصحيحها وإزالة الضرر بحسب الاستطاعة. أما ما يتعلق بتفاصيل الاعتذار للمغتتاب أو عدمه عند خشية ترتب مفسدة، ففيه تفصيل فقهي، ولا يصح تقديم حكم واحد لجميع الصور دون مراعاة أحوالها.

إن صحبة القرآن في هذا الباب تعني أن يتعلم القارئ حماية كرامة الناس كما يحمي كرامته، وألا يجعل الغياب فرصةً للانتقاص، وألا يتعامل مع الظنون بوصفها حقائق، وألا يخلط بين النصح والتشهير. فسلامة القلب لا تنفصل عن سلامة

اللسان، وكمال الانتفاع بالوحي يظهر في حفظ حقوق الآخرين، لا في مجرد معرفة النصوص التي تنهى عن الاعتداء عليهم.

المبحث الثالث: الأخلاق العملية في ضوء القرآن والسنة أولاً: حفظ اللسان

اللسان من أكثر وسائل الإنسان تأثيراً في علاقاته بالآخرين؛ فقد يكون سبباً في نشر العلم، وإصلاح ذات البين، ومواساة المحتاج، والدفاع عن المظلوم، وقد يتحول إلى وسيلة للكذب والغيبة والسخرية والإيذاء. ولهذا لا يمكن فصل تزكية النفس عن تهذيب الكلام؛ لأن كثيراً من أمراض القلوب لا تبقى حبيسة الداخل، بل تظهر في العبارات والأحكام وطريقة الحديث عن الناس.

وقد قرر القرآن أصل المسؤولية عن القول في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وتذكر الآية الإنسان بأن كلامه ليس أمراً عابراً ينتهي أثره بمجرد صدوره، بل هو داخل في دائرة المسؤولية، وقد يترتب عليه خير أو ضرر يتجاوز لحظة النطق به.

كما وضع القرآن معياراً عاماً للكلام، فقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. ولا يقتصر هذا التوجيه على انتقاء الكلمات اللطيفة، بل يشمل طريقة مخاطبة الناس، والعدل في وصفهم، وتجنب الإهانة، والحرص على أن يكون القول متناسباً مع المقصد المشروع.

وفي السنة النبوية قاعدة جامعة، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» (٥). ويكشف الحديث أن الكلام ليس مطلوباً لذاته؛ فقد يكون الصمت أرجح حين لا تتحقق مصلحة من القول، أو حين يغلب على الظن أن يؤدي إلى خصومة أو ظلم أو فتنة.

ولا يعني ذلك الدعوة إلى الصمت عن الحق أو ترك النصيحة أو الامتناع عن الشهادة عند وجوبها. وإنما المقصود أن يزن الإنسان كلامه بميزان النفع والمشروعية، فلا يجعل الرغبة في التعليق أو الظهور أو الانتصار للنفس سبباً في إطلاق الكلام دون نظر في عواقبه.

ومن الأخطاء الشائعة أن يظن الإنسان أن صدقه يبيح له كل أسلوب، فيتخذ الصراحة ذريعةً للقسوة، أو يبرر الإهانة بأنها مواجهة للواقع. والحقيقة أن الصدق وحسن الخطاب لا يتعارضان بالضرورة؛ فقد يستطيع المرء بيان الخطأ بوضوح، مع تجنب السخرية والتجريح، وقد يرفض موقفاً دون أن ينتقص من كرامة صاحبه.

كما أن حفظ اللسان لا يقتصر على الكلمات التي تصدر في المجالس، بل يشمل ما يكتبه الإنسان وينشره، وما يعيد تناوله من أخبار، وما يعلق به على الآخرين في

البيئات الرقمية. فوسيلة النشر لا تغير طبيعة المسؤولية الأخلاقية عن الكذب أو التشهير أو انتهاك الخصوصية.

ومن الناحية العملية، يمكن للقارئ أن يدرّب نفسه على ثلاث مراحل قبل الكلام: التثبت من المعلومة، وفحص المقصد، وتقدير الأثر المتوقع. فإذا كان الكلام غير ثابت، وجب الحذر من نقله. وإذا كان المقصد مجرد الانتقام أو الإحراج، احتاج إلى مراجعة. وإذا كان الأسلوب مؤدياً إلى ضرر غير لازم، أمكن البحث عن صياغة تحقق الغرض المشروع بقدر أقل من الأذى.

ويستفيد الإنسان من مراجعة كلامه بعد المواقف التي يكثر فيها الانفعال. فقد يكتشف أنه يرفع صوته عند الاختلاف، أو يكرر المقاطعة، أو يستخدم عبارات تقلل من شأن الآخرين، أو يبالغ في نقل أخبار لم يتحقق منها. ولا تكفي معرفة هذه الأنماط، بل ينبغي وضع بدائل عملية لها، مثل التوقف قبل الرد، أو طلب توضيح المقصود، أو الاعتذار عند التجاوز، أو تأجيل النقاش حتى يهدأ الانفعال.

ومن هنا، فإن حفظ اللسان مقياس عملي لصحبة القرآن؛ لأن الآيات التي تدعو إلى العدل والرفق والصدق ينبغي أن تظهر في طريقة الإنسان في الحديث عن الناس ومخاطبتهم. وكلما ازداد وعيه بمسؤولية الكلمة، أصبح أقدر على استخدام لسانه في الإصلاح، وأبعد عن أن يكون سبباً في جرح الآخرين أو انتهاك حقوقهم.

ثانياً: صيانة الحقوق

لا تكتمل الأخلاق القرآنية بالعبادات الفردية وحدها، بل تمتد إلى أداء الحقوق، وحفظ الأمانات، والوفاء بالعهود، والعدل في المعاملة. فالإنسان قد يكون حريصاً على كثير من أعمال الخير، لكنه يفرط في حق عامل يعمل لديه، أو يؤخر ديناً مع القدرة على أدائه، أو يخالف اتفاقاً التزم به، أو يستغل موقعه لتحقيق منفعة على حساب غيره. وفي هذه الحالات يظهر أن الخلل الأخلاقي لا يعالج بكثرة الحديث

عن الفضائل، وإنما بأداء الواجبات التي يطالب بها الإنسان في علاقاته اليومية.

وقد أمر القرآن بأداء الأمانات إلى أهلها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وتجمع الآية بين حفظ الأمانة والعدل في الحكم، وهما أصلان يتجاوزان نطاق المعاملات المالية إلى مختلف صور المسؤولية.

فالأمانة قد تكون مالا أو وثيقة أو معلومة أو سراً أو مهمة وظيفية. وقد تكون في أداء العمل المتفق عليه، أو في حفظ الممتلكات العامة، أو في عدم استغلال النفوذ،

أو في نقل المعرفة بأمانة. وفي جميع هذه الصور، لا تكفي سلامة النية إذا لم يصاحبها أداء فعلي لما يقتضيه التكليف.

كما أن العدل لا يختص بالتعامل مع من نحبهم أو نوافقهم، بل يظهر صدقه عند الاختلاف وتعارض المصالح. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٓأَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. فالعداوة لا تبرر الجور، كما أن المحبة لا تبرر منح القريب ما لا يستحقه أو حرمان غيره من حقه.

وهذا المبدأ مهم في حياة الإنسان اليومية؛ فقد يطالب بالعدل حين يكون مظلوماً، ثم يتساهل فيه حين يكون صاحب القرار. وقد يرفض المحاباة عندما تضره، ثم يمارسها عندما تحقق له مصلحة. ولذلك فإن الانتفاع بالقرآن يتطلب مراجعة المعايير التي يستخدمها الإنسان في الحكم على نفسه والآخرين، حتى لا يجعل الحق تابعاً لمصلحته.

وتشمل صيانة الحقوق أيضاً الوفاء بالعهود والالتزامات، وقد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. فالالتزام ليس مجرد وعد لفظي، بل مسؤولية تترتب عليها مصالح الناس وتوقعاتهم، وقد يؤدي الإخلال به إلى أضرار مادية أو معنوية.

ولا يعني الوفاء أن يستمر الإنسان في التزام محرم أو يرضى بظلم ثابت؛ وإنما أن يتعامل مع التزاماته المشروعة بجدية، وألا يتراجع عنها لمجرد ظهور مصلحة شخصية جديدة. وإذا تعذر الوفاء لسبب معتبر، فعليه أن يتواصل مع الطرف المعني، ويبين ما يستطيع بيانه، ويسعى إلى معالجة الأثر بقدر الإمكان.

وتظهر أهمية هذا المبحث عند النظر في العلاقة بين العبادات وحقوق الخلق. فقد يقرأ الإنسان آيات التقوى ويحرص على النوافل، لكنه لا يراجع التزامه بأداء الديون أو احترام الوقت أو حفظ أسرار الناس. وهذا التناقض يدل على ضرورة توسيع مفهوم الانتفاع بالقرآن ليشمل جميع المجالات التي تتعلق بها المسؤولية الشرعية والأخلاقية.

ويمكن ترجمة معاني الأمانة والعدل إلى مراجعة عملية تشمل: الالتزامات المالية، والواجبات المهنية، والعهود الأسرية، والحقوق المعنوية، والمسؤوليات العامة. فيحدد الإنسان ما عليه من حقوق، وما تأخر منها، وما يحتاج إلى تصحيح، ثم يضع خطوات واقعية لأدائها.

كما ينبغي أن يتجنب الإنسان اختزال صيانة الحقوق في المسائل الكبيرة وحدها؛ فقد يبدأ الإخلال بالأمانة من استهانة متكررة بمواعيد الناس، أو من استعمال

ممتلكات لا يملك الإذن باستعمالها، أو من نقل معلومات خاصة، أو من نسب جهد غيره إلى نفسه. ومثل هذه الممارسات قد تبدو صغيرة منفردة، لكنها تكشف عن خلل في احترام حقوق الآخرين.

إن صيانة الحقوق هي المجال الذي تختبر فيه الأخلاق القرآنية خارج لحظات التأثير والعبادة. فصدق التزكية يظهر حين يصبح الإنسان أكثر أمانة وعدلاً ووفاءً، لا حين يكتفي بالإقرار بفضل هذه القيم.

ثالثاً: الرحمة والرفق

الرحمة من القيم التي تمنح الأخلاق القرآنية بعدها الإنساني، فهي توجه الإنسان إلى مراعاة أحوال الآخرين، وتمنعه من التعامل معهم باعتبارهم مجرد موضوعات للأحكام أو أهداف للنقد. ولا تعني الرحمة إلغاء الحدود أو تعطيل المسؤولية، بل تعني أن يلتزم الإنسان بالحق دون قسوة غير لازمة، وأن يسعى إلى الإصلاح دون إذلال، وأن يراعي ضعف الناس وحاجاتهم دون أن يبرر الخطأ أو يتنازل عن الواجب.

وقد وصف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وترتبط الآية بين الرحمة واللين من جهة، واستمرار العلاقة بالناس وقدرتهم على الاستجابة من جهة أخرى. فالغلظة قد تدفع الناس إلى النفور، حتى حين يكون أصل الدعوة صحيحاً.

ويؤكد هذا المعنى أن أسلوب التعامل ليس أمراً ثانوياً منفصلاً عن مقصد الإصلاح. فقد يكون الإنسان محققاً في مضمون كلامه، لكنه يفسد أثره بسبب الإهانة أو التحقير أو التسرع في الحكم. ولا يعني ذلك أن نجاح الدعوة يتوقف على رضا الجميع، وإنما أن الرفق من الوسائل الشرعية التي ينبغي مراعاتها عند توجيه الناس وتعليمهم.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الرُّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا رَأْنُهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَأْنُهُ» (٦). ويبين الحديث فضل الرفق بوصفه خلقاً يزين التعامل، ويقلل من آثار العنف والاندفاع. والرفق هنا لا يقتصر على اللين في الصوت، بل يشمل التدرج في التعليم، واختيار الوقت المناسب للنصيحة، ومراعاة قدرة المخاطب على الفهم والاستجابة.

وتظهر الحاجة إلى هذا الخلق في الأسرة، ومواقع العمل، والعلاقات التعليمية، والدعوة، ومعالجة الأخطاء. فقد يحتاج الوالد إلى تصحيح سلوك ابنه، ويحتاج

المعلم إلى تنبيه الطالب، ويحتاج المسؤول إلى مساءلة المقصر. وفي جميع هذه المواقف، يمكن الجمع بين وضوح الموقف واحترام كرامة المخاطب.

ومن الأخطاء التي ينبغي التنبيه لها الخلط بين الرفق والتساهل. فالرفق لا يعني ترك المنكر دون معالجة، أو تعطيل النظام، أو السماح باستمرار الاعتداء على الآخرين. وإنما يعني اختيار الوسيلة المناسبة لتحقيق المقصد المشروع، بحيث لا يضاف إلى الخطأ ضرر آخر يمكن تجنبه.

كما لا يصح أن يتحول خطاب الرحمة إلى مطالبة المظلوم بتحمل الأذى بلا حدود. فمراعاة المعتدي لا تكون على حساب حقوق المتضرر، واللين لا يمنع وضع حدود واضحة عند الحاجة. وقد يكون إيقاف الضرر، أو منع تكراره، أو اللجوء إلى جهة مسؤولة، هو التصرف الأرحم في المآل.

ومن الوسائل العملية لتنمية الرفق أن يتعلم الإنسان الاستماع قبل الحكم، وأن يطلب توضيح الوقائع قبل توجيه الاتهام، وأن يميز بين نقد الفعل والحكم على صاحبه، وأن يختار كلمات تحفظ كرامة المخطئ وتوضح له ما ينبغي تغييره. كما أن الاعتراف بإمكان الخطأ الشخصي يعين على تقليل التعالي في النصيحة.

ويستطيع قارئ القرآن أن يختبر أثر هذه المعاني بسؤال نفسه: هل أصبحت أكثر صبراً على ضعف الآخرين؟ هل أراعي اختلاف مستويات الفهم والخبرة؟ هل أستخدم سلطتي لتيسير الإصلاح أم لإذلال المقصر؟ وهل أستطيع تصحيح الخطأ دون تحويله إلى مناسبة لإظهار التفوق؟

إن الرحمة والرفق ليسا مظهرين تجميليين في الأخلاق، بل عنصران أساسيان في تحويل الهداية إلى معاملة. وكلما ازداد الإنسان صحبةً للقرآن، وجب أن يزداد وعيه بأثر كلماته وقراراته في حياة الناس، وأن يتعلم الجمع بين الحزم في الحق والرفق في الوسيلة.

رابعاً: العفو والإحسان

يمثل العفو والإحسان مرحلة متقدمة من تهذيب السلوك؛ إذ لا يقتصر الأمر فيهما على الامتناع عن الاعتداء، بل يتجاوز ذلك إلى القدرة على تجاوز بعض الإساءة، ومقابلة الخطأ بما يصلح أثره، وتقديم الخير حيث يكون ذلك مشروعاً ومناسباً.

وقد دعا القرآن إلى العفو والإحسان في قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وتربط الآية بين ضبط الغضب والعفو والإحسان، بما يدل على أن حسن الاستجابة للمواقف المؤذية يحتاج إلى مجاهدة النفس، ولا يتحقق دائماً بصورة تلقائية.

وكظم الغيظ هو ضبط النفس عند اشتداد الغضب، بحيث لا يدفعها الانفعال إلى قول أو فعل محرم. أما العفو فهو التجاوز عن المؤاخذه في موضع يملك فيه الإنسان ذلك، والإحسان يتجاوز مجرد ترك العقوبة إلى فعل الخير. وهذه المعاني متقاربة، لكنها ليست مترادفة تمامًا؛ فقد يضبط الإنسان غضبه دون أن يعفو، وقد يعفو دون أن تتحقق مصالحه كاملة، وقد يختار الإحسان في موقف لا يكون فيه العفو عن جميع الحقوق مناسبًا.

وقد قرر القرآن أصل المقابلة بالعدل، ثم رغب في العفو الذي يحقق الإصلاح، فقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. فالعفو الممدوح مرتبط بالإصلاح، وليس مجرد تنازل شكلي قد يؤدي إلى استمرار الظلم أو ضياع الحقوق.

وتنبع أهمية هذا القيد من أن بعض المواقف تحتاج إلى معالجة تتجاوز التسامح اللفظي. فإذا كان هناك اعتداء متكرر، فقد يتطلب الإصلاح وضع حدود تمنع تكراره. وإذا تعلق الأمر بحقوق الغير، فلا يملك الإنسان أن يتنازل عنها نيابةً عن أصحابها. وإذا كان العفو سيؤدي إلى تمكين المعتدي من مواصلة الضرر، فقد تكون وسائل الحماية والإنصاف أرجح في تحقيق العدل.

ومن جهة أخرى، فإن التمسك بالحق لا يقتضي أن يعيش الإنسان أسيرًا للانتقام. فقد يستطيع المطالبة بحقه، مع الامتناع عن التشهير أو الإساءة غير المشروعة، وقد يضع حدًا للعلاقة المؤذية دون أن يسعى إلى الإضرار بالطرف الآخر. وهذه القدرة على الفصل بين استرداد الحق والتشفي تمثل جانبًا مهمًا من النضج الأخلاقي.

أما الإحسان، فيظهر في صور كثيرة، منها مساعدة المحتاج، وإغاثة الملهوف، وإكرام الضيف، وإتقان العمل، وبذل النصيحة الصادقة، والإحسان إلى من تجب رعايتهم. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]. وتجمع الآية بين العدل والإحسان، فلا يفهم الإحسان على أنه بديل عن العدل، بل هو مرتبة أخلاقية تزيد عليه في مواضعها المشروعة.

ويحتاج الانتقال إلى العفو والإحسان إلى مقاومة بعض الدوافع، مثل الرغبة في رد الإهانة بمثلها، أو المبالغة في العقوبة، أو اعتبار الاعتذار ضعفًا، أو الإصرار على الخصومة حتى بعد زوال أسبابها. وقد تساعد صحبة القرآن على إعادة النظر في هذه التصورات، وتذكير الإنسان بأن القدرة على الرد لا تجعل كل رد مشروعًا، وأن الانتصار للنفس ليس دائمًا هو التصرف الأرجح.

ويمكن تطبيق ذلك في مواقف الحياة اليومية من خلال تأخير الرد عند الغضب، والتحقق من حقيقة الإساءة قبل اتخاذ موقف، والتفريق بين الخطأ العابر والسلوك المتكرر، والبحث عن وسيلة تحقق الإصلاح وتحفظ الحقوق. فإذا أمكن العفو دون ضرر معتبر، كان باباً للفضل. وإذا تعذر، أمكن للإنسان أن يطلب الإنصاف دون تجاوز.

إن قيمة العفو والإحسان في صحبة القرآن تظهر حين تتحول الآيات من معانٍ يتأثر بها القارئ إلى اختيارات أخلاقية في المواقف الصعبة. فالمعيار ليس أن يتحدث الإنسان عن التسامح فحسب، بل أن يعرف متى يعفو، وكيف يحفظ الحق، وكيف يمنع الغضب من دفعه إلى الظلم.

خامساً: أثر الأخلاق في صدق الانتفاع بالقرآن

لا يُقاس الانتفاع بالقرآن بكمية ما يحفظه الإنسان أو بعدد المرات التي يتأثر فيها عند التلاوة وحدها، وإنما يدخل في ذلك أثر القرآن على فهمه، وقراراته، وعبادته، ومعاملاته، وطريقة تعامله مع نفسه والآخرين. فالمعرفة والتأثر من الوسائل المهمة، لكنهما لا يحققان المقصد التربوي كاملاً إذا لم يصاحبهما قدر من الاستجابة العملية.

وقد ربط القرآن بين التلاوة والعمل في مواضع متعددة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]. وتدل الآية على مكانة التلاوة التي تؤدي على وجهها، مع الإيمان بالكتاب والاستجابة له. وقد اختلفت عبارات المفسرين في بيان معنى حق التلاوة وتفصيلاته، ولذلك لا ينبغي حصر دلالاته في تفسير واحد دون الرجوع إلى أقوالهم. كما وصف الله تعالى كتابه بقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. فالآية تجمع بين التدبر والتذكر، وتوجه إلى الانتفاع بالمعنى، لا إلى الاقتصار على مجرد المرور بالألفاظ.

ومن هنا، فإن الأخلاق العملية تمثل مجاًلاً مهماً لاختبار أثر صحبة القرآن. فإذا قرأ الإنسان آيات الصدق، ثم استمر في الكذب لتحقيق مصالحه، فثمة فجوة تحتاج إلى معالجة بين المعرفة والعمل. وإذا تدبر آيات العدل، ثم جار في حكمه على من يخالفه، وجب أن يراجع أثر المعنى في قراراته. وإذا تأثر بآيات الرحمة، ثم اعتاد إهانة الضعفاء، فإن التأثر لم يتحول بعد إلى خلق مستقر.

لكن من الضروري ألا يتحول هذا المعيار إلى حكم متعجل على إيمان الأشخاص أو قبول أعمالهم عند الله. فالناس يتفاوتون في أحوالهم، وقد يعرف الإنسان الحق

ويجاهد نفسه لتحقيقه، ثم يضعف في بعض المواقف. كما أن الحكم على القبول والثواب من أمور الغيب التي لا يجوز الجزم بها بناءً على مظهر منفرد. والمقصود إذن أن تكون الأخلاق أداةً للمراجعة الذاتية، لا وسيلةً لتصنيف الناس أو ادعاء التفوق عليهم. فينظر القارئ إلى أثر القرآن في نفسه، وقيس تقدمه بمقدار ما يكتسبه من صدق وتواضع وعدل ورحمة وأمانة، مع إدراك أن التزكية عملية مستمرة قد تحتاج إلى سنوات من المجاهدة والتصحيح.

ويقتضي ذلك التمييز بين ثلاثة مستويات من الانتفاع:

المستوى الأول: المعرفة. وهو أن يفهم الإنسان معنى الآية، ويعرف ما تدعو إليه أو تنهى عنه، ويدرك موقعها في سياقها.

المستوى الثاني: الاستحضار. وهو أن يتذكر هذا المعنى عند مواجهة الموقف المناسب، فلا تبقى المعرفة محصورةً في وقت التلاوة أو الدراسة، بل تحضر حين يحتاج إليها في الحكم أو الاختيار.

المستوى الثالث: الاستجابة. وهو أن يترجم المعنى إلى فعل، كترك الكذب، أو أداء الحق، أو ضبط الغضب، أو الاعتذار، أو التوبة، أو اتخاذ إجراء يمنع تكرار الخطأ.

وهذه المستويات ليست منفصلةً تمامًا؛ فقد يعود الإنسان من العمل إلى المعرفة ليصح فهمه، وقد تكشف له التجربة عن حاجة إلى مزيد من التدبر، وقد يتطلب التطبيق مراجعةً لأقوال أهل العلم. لكن هذا التصنيف يساعد على اكتشاف موضع الخلل: هل المشكلة في عدم فهم المعنى، أم في نسيانه عند الموقف، أم في ضعف الإرادة، أم في غياب الوسائل العملية؟

ومن التطبيقات المفيدة أن يختار القارئ خلقًا واحدًا يركز عليه خلال مدة محددة، كحفظ اللسان أو أداء الأمانة أو ضبط الغضب. ثم يحدد معنى قرآنياً موثوق الدلالة يرتبط به، ويلاحظ المواقف التي يحتاج فيها إلى تطبيقه، ويسجل ما نجح فيه وما أخفق، ثم يراجع خطته في نهاية المدة.

ولا ينبغي أن يتعامل الإنسان مع هذا الأسلوب بوصفه مقياسًا شرعيًا مستقلًا أو ضمانًا للقبول، وإنما باعتباره وسيلة تربوية لتنظيم المجاهدة وملاحظة التغير. فالتقييم هنا يهدف إلى تحسين السلوك، لا إلى إصدار أحكام نهائية على النفس.

إن صدق الانتفاع بالقرآن يظهر في اتجاه الحياة، لا في دعوى الكمال. فقد يتقدم الإنسان في خلق، ويحتاج إلى مزيد من العمل في خلق آخر. وقد ينجح في موقف

ويضعف في موقف، ثم يعود إلى التوبة والإصلاح. والمهم ألا تتحول العثرة إلى مبرر للاستسلام، ولا يتحول النجاح الجزئي إلى ذريعة للغرور. وبذلك تصبح الأخلاق العملية جزءاً أصيلاً من صحبة القرآن؛ إذ تتجلى الهداية في طريقة الإنسان في كسبه، وبيته، وعلاقاته، وخلافاته، ومسؤولياته. وكلما اقتربت هذه المجالات من قيم الوحي، أمكن للقارئ أن يرى أثر القرآن في حياته بصورة أعمق من مجرد المعرفة النظرية أو التأثير المؤقت.

المبحث الرابع: المحاسبة والتوبة والتغيير

أولاً: مراجعة النفس في ضوء المعاني القرآنية

تحتاج التزكية إلى مراجعة مستمرة؛ لأن الإنسان قد يتعلم قيمةً أخلاقيةً، ثم ينسى تطبيقها تحت ضغط العادة أو الغضب أو المصلحة. وقد ينجح في تغيير سلوك فترةً من الزمن، ثم يعود إلى بعض أنماطه السابقة. ولهذا لا يكفي أن يتخذ المرء قراراً عاماً بأن يكون أفضل، بل يحتاج إلى وسيلة منظمة يراجع بها عمله، ويحدد مواضع التقصير، ويصل المعاني القرآنية بمواقفه اليومية.

وقد أرشد القرآن إلى هذا الأصل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. فالآية تدعو إلى النظر في العمل المقدم، بما يقتضي تجاوز الانطباعات العامة إلى مراجعة ما فعله الإنسان بالفعل. ويمكن أن تقوم المراجعة اليومية على أسئلة محددة، مثل: ما العمل الذي أحسنت فيه اليوم؟ وما الخطأ الذي وقعت فيه؟ وهل ترتب عليه ضرر يحتاج إلى معالجة؟ وما الموقف الذي كان يمكن أن أتصرف فيه بطريقة أفضل؟ وما الخطوة التي أستطيع اتخاذها غداً لتقليل احتمال تكرار الخطأ؟

وتنبع أهمية هذه الأسئلة من أنها تحول المحاسبة من شعور عام إلى معرفة قابلة للتطبيق. فقول الإنسان: «أحتاج إلى أن أكون أكثر تواضعاً» لا يكفي وحده لتحديد موضع التغيير، بينما يمكنه أن يلاحظ مثلاً أنه يرفض النصيحة حين تصدر عن شخص أصغر منه سناً، ثم يتخذ قراراً بأن يستمع إلى مضمون النصيحة قبل الحكم عليها.

وبالمثل، فإن الرغبة في حفظ اللسان تصبح أكثر عملية عندما يحدد الإنسان المواقف التي يكثر فيها من الكلام المؤذي، كالنقاشات الحادة أو مجالس الغيبة أو التفاعل السريع مع الأخبار. وعندئذ يستطيع أن يضع إجراءات مناسبة، مثل تأخير الرد، أو تغيير موضوع الحديث، أو التحقق من المعلومات قبل نشرها.

ومن الضروري أن ترتبط المراجعة بمعيار شرعي صحيح؛ فلا يكتفي الإنسان بأحكامه الشخصية على نفسه، ولا يجعل الأعراف الاجتماعية وحدها مصدراً للحكم على السلوك. فقد يشيع في بيئة ما نمط من السخرية أو التهاون بحقوق العاملين، لكنه لا يصبح مشروعاً لمجرد اعتياد الناس عليه. ولذلك ينبغي الرجوع إلى القرآن والسنة وفهم العلماء المعتبرين عند الحاجة إلى تحديد الحكم أو ضبط دلالاته.

كما أن المراجعة لا تقتصر على اكتشاف الأخطاء، بل تشمل ملاحظة مواطن التوفيق وشكر الله عليها. فقد يساعد استحضار ما أنعم الله به على الإنسان من فرص الخير على تقوية الدافعية، ويمنعه من اختزال حياته في الإخفاقات. وليس المقصود جمع الحسنات لتبرير السيئات، بل النظر المتوازن الذي يجمع بين الشكر والاستغفار.

ومن المهم أيضًا أن تكون المراجعة متناسبة مع قدرة الإنسان وظروفه؛ فلا يحولها إلى مشروع مرهق يستهلك وقته كله، ولا يجعل كل هفوة موضوعًا لاجترار طويل. وقد تكفي في بعض الأيام دقائق معدودة يحدد فيها أبرز موقف يحتاج إلى إصلاح، ثم يتخذ خطوة واحدة واضحة.

ويمكن أن تكون المراجعة أسبوعية أيضًا، ينظر فيها الإنسان إلى الأنماط المتكررة بدل التركيز على الوقائع المنفردة. فإذا لاحظ أنه يكرر التأخر عن الوفاء بالتزاماته، أو يتسرع في الحكم على الناس، أو يؤجل الاعتذار، استطاع أن يضع خطة لمعالجة السبب المتكرر بدل الاكتفاء بالندم على كل واقعة بعد حدوثها.

وهكذا تصبح المعاني القرآنية معايير حاضرة في حياة الإنسان، يستعين بها على مراجعة نفسه دون أن يدعي الكمال أو ييأس من التغيير. والمقصود من المحاسبة أن تزيد قدرته على العمل، وأن تقوده من معرفة الخلل إلى إصلاحه، لا أن تبقى أسيرًا لتقييم نفسه دون تقدم.

ثانيًا: التوبة من الذنوب ورد الحقوق

التوبة من أعظم أبواب الإصلاح في الإسلام؛ لأنها تتيح للإنسان الرجوع إلى الله بعد التقصير، وتمنعه من الاستسلام للماضي، وتفتح أمامه طريقًا جديدًا للعمل. غير أن التوبة ليست مجرد شعور بالندم، ولا عبارة يقولها الإنسان ثم يستمر في أسباب الذنب دون محاولة جادة لتغييرها، بل هي رجوع يقتضي الاعتراف بالخطأ، والإقلاع عنه، والعزم على عدم العودة إليه.

وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]. ويشير وصف التوبة بالنصوح إلى التوبة الصادقة الخالصة التي يرجع بها الإنسان إلى ربه، وقد ذكر أهل العلم في بيان حقيقتها معاني تتصل بالإخلاص والصدق والإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العودة إليه.

وتقوم التوبة في الجملة على أركان معروفة عند أهل العلم، هي: الإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، والعزم الصادق على عدم العودة إليه. وإذا تعلق الذنب بحقوق

العباد، انضاف إلى ذلك ما يلزم من رد الحق أو طلب المسامحة بحسب نوع الحق والظروف المتعلقة به.

ويستند هذا التفصيل إلى ضرورة التمييز بين الذنوب التي تتعلق بحق الله تعالى، والذنوب التي تتضمن اعتداءً على حقوق الآخرين. فقد يكون الذنب في صورته الظاهرة معصيةً فردية، بينما يترتب عليه ضرر مالي أو معنوي لغير الفاعل، فلا تكتمل معالجة آثاره بمجرد شعور صاحبه بالندم.

فمن أخذ مالا بغير حق، وجب عليه رد المال إلى صاحبه أو إلى من يقوم مقامه بحسب الأحكام ذات الصلة. ومن أتلف مالا، نظر في الضمان الواجب. ومن أخل بالتزام ترتب عليه حق ثابت للغير، وجب عليه السعي إلى الوفاء أو التسوية المشروعة. أما تفاصيل كل صورة، فقد تختلف باختلاف نوع الحق، وإمكان الوصول إلى صاحبه، والظروف المؤثرة في الحكم.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ» (٧). ويؤكد الحديث خطورة المظالم، وأن الحساب الأخروي لا يقتصر على الأعمال التي تتعلق بعلاقة الإنسان بربه بمعزل عن حقوق الخلق.

وتبرز أهمية رد الحقوق في أنه ينقل التوبة من دائرة المشاعر الشخصية إلى مجال الإصلاح الفعلي. فقد يندم الإنسان على غيبة، لكن كلامه يكون قد وصل إلى أشخاص آخرين وأسهم في تكوين صورة خاطئة عن إنسان. وهنا يحتاج إلى النظر في إمكان تصحيح ما نشره، وإزالة أثره، والامتناع عن تكراره، مع مراعاة ما قرره أهل العلم في تفاصيل التوبة من الغيبة والمظالم.

ولا ينبغي أن يؤدي تعقيد بعض الصور إلى تأجيل التوبة كلها؛ فمن لم يعرف الإجراء الشرعي المناسب في مسألة محددة، أمكنه أن يبدأ بالإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم العودة، ثم يسأل أهل العلم عن كيفية معالجة الحق المتعلق بالآخرين.

كما لا يصح أن يجعل الإنسان خوفه من الإحراج الاجتماعي مبرراً لترك رد الحقوق. فقد يكون الاعتذار صعباً، وقد يتطلب تصحيح الخطأ الاعتراف بالتقصير، لكن هذه الصعوبة لا تلغي المسؤولية. وفي المقابل، ينبغي أن تتم معالجة الحقوق بحكمة، وبطريقة لا تنشئ ضرراً جديداً يمكن تجنبه.

وتحتاج التوبة من الذنوب المتكررة إلى جانب إضافي، هو معالجة الأسباب التي تدفع إلى العودة. فقد يكون سبب الذنب صحبةً غير مناسبة، أو بيئةً تيسر

المعصية، أو عادةً متجذرة، أو انفعلاً متكرراً، أو غياباً لخطئة واضحة. ولذلك لا يكفي أن يقرر الإنسان التوبة ثم يعود إلى الظروف نفسها دون تغيير أي شيء يمكن تغييره.

فمن يريد الإقلاع عن الغيبة، مثلاً، يحتاج إلى مراجعة المجالس التي يكثر فيها هذا السلوك، وتعلم كيفية الانسحاب من الحديث المؤذي أو تحويل مساره. ومن يريد ضبط الغضب، يحتاج إلى التعرف إلى المواقف التي تثيره، وتدريب نفسه على التوقف قبل الرد، وربما الاستعانة بالمشورة إذا كان الأمر متكرراً ومؤثراً في علاقاته. وتتطلب التوبة كذلك عدم القنوط عند تكرار السقوط. فإذا تاب الإنسان توبةً صادقة، ثم غلبته نفسه فعاد إلى الذنب، وجب عليه أن يجدد التوبة، وألا يتخذ وقوعه مرة أخرى دليلاً على استحالة الإصلاح. لكن تجديد التوبة لا يعني الاستهانة بالذنب أو التساهل في أسبابه، بل يعني العودة إلى الله مع مراجعة ما يحتاج إلى تعديل في السلوك والبيئة.

وهكذا تجمع التوبة القرآنية بين الرجوع إلى الله وإصلاح الواقع، وبين الندم على الماضي والاستعداد للمستقبل. فهي لا تنكر المسؤولية، ولا تغلق باب الرحمة، ولا تكتفي بالعاطفة دون العمل، بل تدعو الإنسان إلى أن يبدأ من موضعه الحالي، ويعالج ما يستطيع من آثار خطئه، ويواصل المجاهدة بصدق.

ثالثاً: بناء العادات الأخلاقية

تحتاج الأخلاق إلى ما يتجاوز المعرفة النظرية والقرارات المؤقتة؛ إذ قد يعرف الإنسان فضيلة الصبر، لكنه يضعف عند تكرار الاستفزاز، وقد يقتنع بأهمية الأمانة، لكنه يتساهل في بعض صورها اليومية، وقد يقرر حفظ لسانه، ثم يجد نفسه يعود إلى العادات الكلامية نفسها. ولهذا فإن بناء الخلق يحتاج إلى تكرار الممارسة، ومراجعة السلوك، وتهيئة الظروف التي تساعد على الاستقامة.

ولا يعني ذلك أن الأخلاق مجرد عادات آلية منفصلة عن النية والإيمان، بل إن الممارسة المتكررة يمكن أن تعين الإنسان على تثبيت الاستجابة الصحيحة، بشرط أن تبقى مرتبطة بالوعي بالمقصد، والالتزام بالشرع، ومجاهدة النفس. فالتكرار وسيلة للتربية، وليس بديلاً عن الإخلاص أو الفهم.

وقد دعا القرآن إلى الاستمرار في العبادة والطاعة، فقال تعالى: ﴿وَاَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وتدل الآية على استمرار العبودية ما دام الإنسان حياً، فلا ينحصر الالتزام في فترة حماس عابرة، ولا ينتهي بمجرد تحقيق قدر من التقدم.

وتظهر أهمية الاستمرار في بناء الأخلاق؛ لأن السلوك يتأثر بما يعتاده الإنسان من استجابات. فمن اعتاد الرد السريع عند الغضب، قد يجد صعوبة في التوقف عند أول محاولة، لكنه يستطيع بالتدريب المتكرر أن يخلق مسافةً بين الانفعال والاستجابة. ومن اعتاد تأجيل الاعتذار، يمكنه أن يتدرب على المبادرة إلى إصلاح الخطأ فور إدراكه، ما لم توجد موانع معتبرة.

ويبدأ بناء العادة الأخلاقية بتحديد الخلق المراد تنميته تحديداً واضحاً. فبدل أن يقول الإنسان: «أريد أن أصلح أخلاقي»، يمكنه أن يحدد هدفاً مثل: «أريد أن أتوقف عن مقاطعة الآخرين أثناء الحديث»، أو «أريد أن أتحقق من الأخبار قبل نشرها»، أو «أريد أن أفي بالتزاماتي في مواعيدها».

ثم ينتقل إلى تحديد المواقف التي يظهر فيها الخلل، والعوامل التي تزيد احتمال وقوعه، والبديل السلوكي الذي يريد التدرب عليه. فإذا كان يقاطع الآخرين بسبب استعجاله في الرد، فقد يكون البديل هو الانتظار حتى ينتهي المتحدث، ثم تلخيص ما فهمه قبل تقديم الاعتراض. وإذا كان ينسى بعض التزاماته، فقد يحتاج إلى تدوينها ومراجعتها في وقت ثابت.

ويساعد ربط العادة بمعنى قرآني على إبقاء الممارسة متصلة بالمقصد الإيماني. فالتدرب على حفظ اللسان لا يكون مجرد تحسين للتواصل، بل استجابةً لأمر الله بحفظ القول. والوفاء بالمواعيد ليس مجرد تنظيم للوقت، بل يدخل في احترام العهد وحقوق الناس. وضبط الغضب ليس مجرد مهارة اجتماعية، بل صورة من صور مجاهدة النفس والالتزام بالعدل.

ومن المفيد أن يركز الإنسان على عدد محدود من الأهداف في كل مرحلة، بدل أن يضع قائمة طويلة من التغييرات التي يصعب المحافظة عليها. فقد يبدأ بخلق واحد، ويستمر في مراجعته حتى يتحسن أداؤه فيه، ثم ينتقل إلى غيره. ولا يلزم أن يكون التقدم خطياً أو متساوياً في جميع الظروف؛ فقد يتأثر الإنسان بالتعب والضغوط والتغيرات الحياتية، ويحتاج إلى تعديل خطته.

كما أن الاستفادة من البيئة المحيطة أمر مهم. فإذا أراد الإنسان تقليل الغيبة، فقد يحتاج إلى اختيار المجالس المناسبة، أو تجنب الأحاديث التي تثير الخصومات، أو مصاحبة من يعينونه على الخير. وإذا أراد المحافظة على أداء حقوق الآخرين، فقد يحتاج إلى نظام واضح لتسجيل الالتزامات ومتابعتها. فالمجاهدة الفردية لا تتعارض مع الاستعانة بالوسائل التنظيمية المشروعة.

ويجب ألا يخلط الإنسان بين بناء العادة وبين ادعاء ضمان النتائج. فليس كل سلوك يتغير في مدة محددة، ولا يمكن تحديد زمن ثابت يصلح لجميع الناس والطباع والظروف. وإنما المقصود أن يعتمد الإنسان على خطة واقعية، ويتابع تقدمه، ويستفيد من الإخفاقات في تعديل أسلوبه.

ومن الوسائل المفيدة أيضًا أن يحدد القارئ مؤشرًا عمليًا يراجع به تقدمه، مثل عدد المرات التي استطاع فيها ضبط غضبه في مواقف محددة، أو مدى انتظامه في أداء التزاماته، أو قدرته على الامتناع عن نشر أخبار غير متحقق منها. وينبغي أن تستخدم هذه المؤشرات للتعليم والتحسين، لا للحكم النهائي على قيمة الإنسان أو صلاحه.

إن بناء العادات الأخلاقية هو أحد الجسور التي تصل بين التدبر والسلوك؛ إذ يحول المعاني القرآنية إلى ممارسات متكررة، ويقلل الفجوة بين ما يقر به الإنسان وما يفعله. وكلما كانت الخطة واضحة، والهدف محددًا، والمراجعة متوازنة، زادت فرصة أن يصبح الخلق جزءًا من طريقة الإنسان في التعامل مع الحياة.

رابعًا: معالجة الانتكاس وتجديد التوبة

لا يسير التغيير الأخلاقي دائمًا في خط مستقيم؛ فقد يتقدم الإنسان في خلق، ثم يضعف في موقف، أو ينجح في الابتعاد عن ذنب مدةً من الزمن، ثم يعود إليه تحت ضغط ظرف أو انفعال أو صحبة غير مناسبة. ولا يصح أن يفهم هذا التفاوت على أنه دليل قاطع على استحالة الإصلاح، كما لا ينبغي أن يكون مبررًا للتساهل أو الاستسلام.

والانتكاس في السلوك يحتاج إلى معالجة تجمع بين التوبة ومراجعة الأسباب. فالتوبة تعالج علاقة الإنسان بالذنب، أما مراجعة الأسباب فتساعده على تقليل احتمال تكراره. وإذا اكتفى بالندم دون النظر في الظروف التي أدت إلى السقوط، فقد يعود إلى المشكلة نفسها مع بقاء العوامل المؤثرة كما هي.

وقد فتح القرآن باب الرجاء أمام المذنبين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا يُلَاحِظْ إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وتبرز الآية جملة من المعاني المتكاملة: وقوع الإنسان في الخطأ، وتذكره لله، واستغفاره، وعدم إصراره على الذنب. وهي بذلك لا تشترط أن يكون الإنسان معصومًا من الزلل حتى يرجع إلى الله، لكنها توجهه إلى ألا يجعل الذنب حالة مستقرة يصير عليها دون توبة.

ولا يعني عدم الإصرار أن الإنسان لا يمكن أن يضعف مرةً أخرى بعد التوبة؛ فالضعف البشري واقع، والتوبة المتجددة مشروعة. وإنما المقصود ألا يتخذ الإنسان من تكرار الذنب موقفاً من الاستباحة أو الاستسلام، وألا يصير عليه مع علمه بحرمة وإعراضه عن أسباب الإصلاح.

وعند حدوث الانتكاس، يمكن للإنسان أن يتبع خطوات متتابعة:
أولاً: إيقاف السلوك الخاطئ بقدر الاستطاعة. فكلما بادر إلى التوقف عن الذنب، قل احتمال اتساع آثاره أو ترتب أضرار إضافية عليه.

ثانياً: التوبة الصادقة. وذلك بالندم والإقلاع والعزم على عدم العودة، مع معالجة حقوق الآخرين إذا كان الذنب متعلقاً بها.

ثالثاً: مراجعة ما سبق السقوط. فينظر الإنسان إلى الظروف التي أحاطت بالموقف، مثل الانفعال أو العزلة أو الصحبة أو التساهل المتكرر، دون أن يحول هذه الظروف إلى مبررات تلغي مسؤوليته.

رابعاً: تعديل الخطة. فإذا اكتشف أن وسيلةً معينة لم تساعد على التغيير، بحث عن بديل أكثر واقعية، أو طلب مشورةً مناسبة، أو اتخذ إجراءات تحد من تكرار الموقف.

خامساً: مواصلة العمل. فلا يجعل الإخفاق سبباً لترك الطاعات أو إهمال بقية جوانب الإصلاح، ولا يختزل نفسه في الخطأ الذي وقع فيه.

وتتضح أهمية هذه الخطوات في التعامل مع العادات المتكررة. فمن اعتاد الغيبة، ثم وقع فيها بعد مدة من المجاهدة، لا ينبغي أن يكتفي بقول: «لقد فشلت»، وإنما يسأل: ما الذي حدث؟ هل دخلت في مجلس كنت أعرف أنه يكثر فيه الانتقاص من الناس؟ هل تكلمت بدافع الغضب؟ هل أخفقت في تغيير مسار الحديث؟ وما الإجراء الذي يمكنني اتخاذه في المرة المقبلة؟

وكذلك من يكرر التقصير في أداء الحقوق، يحتاج إلى مراجعة نظامه في الالتزامات، لا إلى تكرار الوعود وحدها. فقد تكون المشكلة متعلقةً بالإهمال أو سوء التقدير أو غياب المتابعة، فيحتاج إلى وسيلة عملية تساعد على الوفاء بما التزم به.

ومن المهم أن يميز الإنسان بين التوبة وبين الثقة المفرطة بالقدرة على تجنب الذنب مستقبلاً. فالعزم الصادق مطلوب، لكنه لا يقتضي أن يدعي الإنسان أنه أصبح بمنأى عن الضعف. وإنما عليه أن يجمع بين حسن القصد، والأخذ بالأسباب، والاستعانة بالله، والحذر من الظروف التي تزيد احتمال الوقوع في الخطأ.

كما ينبغي ألا يتحول الحديث عن الانتكاس إلى تشجيع ضمني على التساهل؛ فكلما تكرر الذنب، ازدادت الحاجة إلى مراجعة أعمق للأسباب والوسائل. ولا يكفي أن يقول الإنسان إنه سيجدد التوبة إذا عاد، بل ينبغي أن يتعامل مع احتمال العودة بوصفه خطرًا يسعى إلى تقليله، لا أمرًا يقبله دون مقاومة.

وفي المقابل، لا يصح أن يقطع الإنسان علاقته بالقرآن أو يترك الدعاء والطاعة لأنه يشعر بالتقصير. فالهداية والتوبة من أعظم ما يحتاج إليه المذنب، والبعد عن أسباب الخير قد يزيد المشكلة بدل أن يحلها. وإنما المطلوب أن يواصل صحبته للقرآن بقلب أكثر صدقًا، وأن يجعل ما يتعلمه منه وسيلة لفهم الخل وتصحيح المسار.

وتكتمل معالجة الانتكاس حين يراجع الإنسان آثار الذنب على الآخرين، لا مشاعره الخاصة وحدها. فإذا أفسد علاقة، أو ضيع حقًا، أو تسبب في ضرر، وجب أن ينظر في إمكان إصلاح ما ترتب على فعله. فالتوبة ليست مجرد استعادة للراحة النفسية، وإنما رجوع إلى الله يتضمن تحمل المسؤولية عن العمل وآثاره.

إن تجديد التوبة يجعل طريق التزكية طريقًا مفتوحًا لا ينقطع عند أول عثرة، لكنه في الوقت نفسه طريق مسؤولية لا يسمح بتحويل الرحمة إلى تبرير دائم. فالمؤمن يجمع بين الرجاء والخوف، وبين الاعتراف بالضعف ومجاهدة النفس، وبين طلب المغفرة والعمل على تغيير الأسباب.

وبذلك تصبح صحبة القرآن عونًا على الاستمرار في الإصلاح؛ فلا يتوهم الإنسان أنه بلغ الكمال، ولا يظن أن الخطأ أغلق أمامه باب الهداية، بل يعود إلى الوحي ليصحح فهمه، ويجدد توبته، ويعالج موضع الخل، ثم يمضي في عمله مستعينًا بالله.

المراجع

أولاً: القرآن الكريم

١. القرآن الكريم.

ثانيًا: كتب التفسير

٢. الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم.

٤. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن.

٥. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

ثالثًا: كتب الحديث وشروحه

٦. البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح.

٧. مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم.

٨. النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

رابعاً: كتب التزكية والأخلاق

٩. ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد. جامع العلوم والحكم.

١٠. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين.

مواضع الإحالات الحديثية

(1) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

(2) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله.

(3) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

(4) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة.

(5) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير.

(6) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق.

(7) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المظالم والغصب، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له

المنزل الخامس: القرآن في الحياة — من التدبر إلى العمل

المبحث الأول: بناء الصلوة اليومية

أولاً: تنظيم الورد اليومي

إن صلوة القرآن لا تتحقق بمجرد الإقبال عليه في أوقات النشاط، أو الإكثار من تلاوته في المواسم الفاضلة، ثم الانقطاع عنه في سائر الأيام، وإنما تقوم على صلوة مستمرة تجعل القرآن حاضرًا في حياة المسلم، ومؤثرًا في وعيه وسلوكه واختياراته. فالصلوة، بهذا المعنى، ليست لحظة عابرة من التأثير، بل علاقة تتجدد بالتلاوة والتدبر والاستجابة، حتى يصبح الرجوع إلى القرآن جزءًا من البناء اليومي للإنسان. وقد أرشد القرآن إلى المداومة على تلاوته بحسب الاستطاعة، فقال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ (المزمل: ٢٠). ويظهر في هذا التوجيه مراعاة أحوال المكلفين واختلاف قدراتهم، دون أن يعني ذلك الاستغناء عن المجاهدة أو اتخاذ التيسير ذريعة إلى الانقطاع. فالمقصود أن يظل للقرآن نصيب ثابت من حياة المسلم، يتناسب مع قدرته وظروفه، ويتيح له الجمع بين دوام الصلة وحسن الانتفاع.

وتنظيم الورد اليومي ليس مسألة كمية فحسب، بل هو اختيار واعٍ لطريقة الاستمرار. فقد يقرأ الإنسان صفحات كثيرة دون أن يستحضر معانيها، وقد يقرأ مقدارًا أقل فيتوقف عند دلالاته، ويراجع فهمه، ويستخرج منه توجيهًا يطبقه في حياته. وليس المقصود المفاضلة المطلقة بين كثرة القراءة وقلة المقدار؛ إذ لكل منهما موضعه وفضله، وإنما المقصود ألا تتحول الكثرة إلى غاية مستقلة عن الهداية، وألا يصبح التدبر مبررًا لترك التلاوة والمراجعة.

ويحتاج المسلم، لذلك، إلى تحديد ورد يومي واقعي، يراعي أوقات العمل والنوم والالتزامات الأسرية، مع الحرص على ألا يكون الورد أول ما يسقط عند ازدحام الأعمال. ويمكن أن يختار وقتًا ثابتًا في بداية يومه، أو بعد إحدى الصلوات، أو في فترة هادئة تناسب ظروفه، بحيث يرتبط القرآن بعادة مستقرة يسهل المحافظة عليها.

ويُستحسن أن يتضمن الورد ثلاثة عناصر متكاملة:

١. التلاوة: وهي الأصل الذي تتجدد به الصلة المباشرة بكلام الله.
٢. التدبر: ويكون بالتوقف عند المعاني الواضحة، وربط الآيات بسياقها، ومراجعة ما يحتاج إلى تفسير.

٣. الاستجابة: وذلك بتحديد توجيه عملي واحد على الأقل، حين يكون في الآيات ما يستدعي ذلك، والعمل على تحقيقه.

ولا يلزم أن تتساوى هذه العناصر في المقدار كل يوم؛ فقد يكون يومًا مناسبًا للإكثار من التلاوة، ويكون آخر أنسب للمراجعة والتدبر، بحسب الوقت والحاجة. لكن ينبغي أن تظل الغاية الجامعة حاضرة، وهي أن تقود التلاوة إلى الفهم، وأن يفتح الفهم باب العمل.

ومن المهم كذلك أن يدرك القارئ أن انتظام الورد لا يعني الجمود على خطة لا تتغير مهما تغيرت الأحوال، وإنما يعني وجود أصل ثابت يمكن تعديله دون التفريط في المقصد. فإذا طرأت ظروف استثنائية، خفف القارئ المقدار مع المحافظة على أصل الصلة، ثم عاد إلى برنامج المعتاد متى زال العارض. وبهذا يتحول الورد من تكليف ثقیل يشعر الإنسان بالعجز عن الوفاء به إلى ممارسة مستقرة تنمو مع الزمن.

ثانيًا: اختيار وقت مناسب للتلاوة

للوقت أثر في جودة القراءة وحضور القلب، وإن لم يكن الانتفاع بالقرآن مقصودًا على وقت بعينه. فقد أثنى الله تعالى على قيام الليل، ويبيّن ما فيه من مواطاة القلب للقول، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ٦). وتشير الآية إلى مزية هذا الوقت في اجتماع القلب واللسان، واستقرار التلقي، بعيدًا عن كثير من مشاغل النهار.

غير أن دلالة الآية لا تعني أن الليل هو الوقت الوحيد الذي يصلح فيه التدبر، أو أن القراءة في سائر الأوقات أقل نفعًا على الإطلاق؛ فالأحوال تختلف، وما يصلح لشخص قد لا يصلح لآخر. وقد يكون أول الصباح أنسب لمن يجد في آخر النهار إرهاقًا، وقد تكون فترة ما بعد إحدى الصلوات أيسر لمن لا يستطيع تخصيص وقت طويل، وقد يجد بعض الناس في هدوء الليل مجالًا أوسع للتأمل والمراجعة. والأصل في اختيار الوقت أن يُنظر إلى ثلاثة أمور: توافر القدرة على القراءة، وقلة المشتتات، وإمكان الاستمرار. فالوقت المثالي الذي لا يستطيع الإنسان المحافظة عليه أقل نفعًا من وقت مناسب يلتزم به في معظم أيامه. كما ينبغي ألا يؤدي تخصيص وقت للقرآن إلى الإخلال بالواجبات الأخرى، أو التفريط في حقوق الأسرة والعمل والعبادة.

ومن آداب الصلحة اليومية ألا يجعل القارئ انتظار الحالة النفسية المثالية شرطًا لفتح المصحف؛ لأن النشاط يتفاوت، وحضور القلب قد يقوى ويضعف. بل

يجاهد نفسه على أصل التلاوة في أوقات الفتور، مع مراعاة قدرته وعدم تحميلها ما يعجزها. وقد تكون القراءة في بعض الأيام أقرب إلى المجاهدة منها إلى اللذة، ومع ذلك يبقى لها أثرها في حفظ الصلة، إذا اقترنت بالإخلاص والحرص على الفهم والعمل.

وينبغي أيضًا أن ينتبه القارئ إلى أثر البيئة المحيطة في قراءته؛ فإبعاد الهاتف، واختيار مكان هادئ، والاستعداد المسبق للمقدار المراد قراءته، كلها وسائل عملية تقلل التشتت. وليس المقصود أن تتوقف التلاوة على توافر مكان مثالي، وإنما أن يبذل المسلم ما يستطيع من الأسباب التي تعينه على حسن الإقبال. وهكذا يصبح اختيار الوقت جزءًا من فقه النفس وإدارة الحياة، لا مجرد مسألة تنظيمية؛ إذ يتعلم المسلم أن يهيئ لكتابه العزيز موضعًا ثابتًا في يومه، بدل أن يترك علاقته به لما يتبقى من الوقت بعد استنفاد الجهد في سائر الأعمال.

ثالثًا: الموازنة بين القراءة والتدبر والمراجعة

قد ينشغل القارئ بزيادة المقدار الذي يقرؤه، حتى يصبح إنجاز الصفحات هو المعيار الوحيد لتقييم علاقته بالقرآن. وقد يقع في الطرف المقابل، فيتوقف طويلًا عند بعض المعاني دون أن يحافظ على قدر منتظم من التلاوة والمراجعة. وكلا المسلكين يحتاج إلى تقويم؛ لأن الصحبة القرآنية علاقة متعددة الجوانب، لا تختزل في عنصر واحد.

فالتلاوة تحفظ الصلة بالنص، والتدبر يفتح باب فهم معانيه ومقاصده، والمراجعة تعين على تثبيت المحفوظ واستدامة الانتفاع به. وإذا كان الحفظ داخلًا في برنامج القارئ، كانت المراجعة ضرورة للمحافظة عليه؛ لأن المحفوظ الذي يُهمل معرض للتفلت، ولأن استحضار الآيات يعين على دوام الصلة بها في الصلاة والتأمل والعمل.

وقد جمع القرآن بين القراءة والإنصات والتفكير في مواضع متعددة، فقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩). فالآية تجعل التدبر مقصدًا أصيلًا من مقاصد إنزال القرآن، وتربط به التذكر والانتفاع، بما يدل على أن التلاوة المقصودة ليست حركة لسان مجردة عن الوعي بالمعنى. ومع ذلك، فإن التدبر لا ينحصر في استنباط فوائد جديدة في كل جلسة؛ فقد يكون في إعادة قراءة آية معروفة، واستحضار معناها، ومراجعة مدى الالتزام بمقتضاها، من النفع ما يفوق الانشغال بتكثير الخواطر. كما أن المراجعة لا تقتصر على

استذكار الألفاظ، بل يمكن أن تتسع لمراجعة المعاني التي سبق للقارئ أن فهمها، والنظر في أثرها في سلوكه.

ويمكن تحقيق التوازن بين هذه الجوانب من خلال توزيعها على أوقات مختلفة؛ فيخصص القارئ وقتًا للتلاوة المتتابة، ووقتًا آخر لمراجعة المحفوظ، ويجعل لنفسه مساحة يتوقف فيها عند الآيات التي تحتاج إلى مزيد من الفهم. وقد يجمع بين هذه العناصر في جلسة واحدة، إذا سمح الوقت بذلك.

ومن الخطأ أن يُقاس الانتفاع بالقرآن بمقدار ما يشعر به القارئ من التأثير في كل مرة؛ فالتأثر الوجداني يتفاوت، وليس غيابه الظاهر دليلاً قاطعاً على انعدام الفائدة. وقد يظهر أثر القراءة في ثبات عادة صالحة، أو تحسن خلق، أو تراجع عن خطأ، أو زيادة في الصبر وضبط النفس. وهذه آثار تحتاج إلى متابعة ومحاسبة، لا إلى انطباعات عابرة.

والموازنة الصحيحة، إذن، هي التي تحفظ لكل عنصر وظيفته، وتمنع أن يطغى جانب على بقية الجوانب. فالقراءة بلا عناية بالمعنى قد تفقد جانباً من مقصدها، والتدبر بلا تثبت قد يفضي إلى الخطأ، والمراجعة بلا استجابة قد تتحول إلى ممارسة منفصلة عن غاية الهداية.

رابعاً: استعادة الاستمرارية بعد الانقطاع

قد يمر القارئ بفترات من الانتظام، ثم تعرض له ظروف أو فترات فتور ينقطع فيها عن ورده المعتاد. والمشكلة لا تكمن دائماً في وقوع الانقطاع نفسه، بل في الطريقة التي يتعامل بها الإنسان معه؛ فقد يحول أيام التفریط إلى سبب لترك البرنامج كله، ويستسلم لشعور بالتقصير يمنعه من العودة، وكأن عليه أن يستأنف من نقطة مثالية لا يقدر عليها.

والمنهج الأقوم أن يُنظر إلى الانقطاع بوصفه خللاً يحتاج إلى معالجة، لا حكماً نهائياً على علاقة الإنسان بالقرآن. فالمطلوب هو العودة الصادقة، وتحديد الأسباب التي أدت إلى الانقطاع، ثم تعديل الخطة بما يجعل الاستمرار ممكناً. وإذا كان السبب ازدحام الأعمال، فقد يحتاج القارئ إلى تخفيف المقدار أو تقسيمه. وإذا كان السبب التشتت، فقد يحتاج إلى تغيير المكان أو الوقت. وإذا كان السبب فتور الهمة، فقد يعينه استحضار مقصد الصحبة، والقراءة في معاني الآيات التي تجدد الرجاء وتذكر بالمسؤولية.

ولا ينبغي أن يجعل الإنسان تعويض ما فاتته شرطاً للعودة؛ لأن تراكم المقدار المؤجل قد يزيد العبء النفسي ويطيل الانقطاع. بل يبدأ بما يستطيع في يومه، ثم

ينظر في إمكان التعويض دون مشقة أو إخلال بالواجبات. والمقصود هنا تنظيم الورد المعتاد، أما ما كان متعلقًا بنذر أو واجب شرعي مخصوص فله حكمه الذي يُرجع فيه إلى أهل العلم.

ومن الوسائل النافعة لاستعادة الاستمرارية أن يبدأ القارئ بمقدار يسير يلتزم به، ثم يزيده عند استقرار العادة، بدل أن يعود إلى برنامج كبير لا يستطيع المحافظة عليه. كما يمكنه ربط القراءة بعادة يومية ثابتة، والاستعانة بالتذكير، وتسجيل أيام الانتظام، دون أن تتحول المتابعة إلى غاية شكلية تستغرق الاهتمام كله.

ويحتاج القارئ كذلك إلى التمييز بين الندم الذي يدفع إلى الإصلاح، واللوم الذي يستهلك طاقته دون أن يغير سلوكه. فالندم النافع يقوده إلى التوبة وتصحيح المسار، أما الاستغراق في الشعور بالفشل فقد يزيده بعدًا عن العمل. ومن ثم، فإن استعادة الصحبة لا تكون بإنكار التقصير، ولا بتضخيمه حتى يعطل العودة، وإنما بالاعتراف به، ومعالجة أسبابه، والبدء من جديد.

وتؤكد هنا قيمة الاستمرار على العمل الصالح، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» (رواه البخاري ومسلم). وليس معنى ذلك أن القليل أفضل من الكثير في جميع الأحوال، بل إن الحديث يبرز قيمة المداومة، وأن العمل الذي يستقر في حياة الإنسان ويستمر عليه له منزلة عظيمة، بخلاف نشاط عابر يعقبه انقطاع طويل.

خامسًا: بناء خطة شخصية تناسب قدرة القارئ

تختلف أحوال القراء من حيث العمر، والقدرة على القراءة، والمسؤوليات اليومية، ومستوى المعرفة باللغة العربية، ومقدار المحفوظ، والخبرة بالتفسير. ولذلك لا يصح أن تُفرض خطة واحدة على الجميع، أو أن يُجعل برنامج شخص معين معيارًا لازمًا لنجاح الآخرين. وإنما يحتاج كل قارئ إلى خطة تراعي واقعه، وتستند إلى غاية واضحة، وتتيح له التطور التدريجي.

وتبدأ الخطة بتحديد المقصد؛ فهل يريد القارئ المحافظة على التلاوة اليومية؟ أم تحسين قراءته؟ أم مراجعة حفظه؟ أم التوسع في فهم المعاني؟ أم الجمع بين هذه الأهداف؟ وكلما كان المقصد محددًا، أمكن اختيار الوسائل المناسبة له، وتقييم مدى تحقق التقدم.

ثم ينتقل إلى تقدير الوقت المتاح تقديرًا واقعيًا، لا يقوم على الحماس المؤقت. فإذا كان لا يستطيع تخصيص نصف ساعة يوميًا، فلا معنى لبناء خطة تعتمد على

هذا المقدار ثم تؤدي إلى الإحباط عند تعذر الوفاء بها. والأولى أن يبدأ بمقدار يقدر على المحافظة عليه، مع إمكان الزيادة إذا استقرت العادة. ويمكن أن تتضمن الخطة الشخصية العناصر الآتية:

- **ورد التلاوة:** مقدار ثابت يناسب الوقت والقدرة.
- **وقت التدبر:** مساحة للتوقف عند الآيات وفهم معانيها، بحسب الحاجة.
- **المراجعة:** لمن يحفظ القرآن أو بعضه، مع مراعاة مقدار المحفوظ.
- **التعلم:** الرجوع إلى تفسير موثوق أو درس علمي عند وجود إشكال في المعنى.

- **المتابعة:** مراجعة الخطة دوريًا لمعرفة ما نجح وما يحتاج إلى تعديل.
 - **العمل:** اختيار توجيه عملي من الآيات، ومتابعة أثره في السلوك.
- ولا يلزم أن تتحقق جميع هذه العناصر بالمقدار نفسه يوميًا؛ فالمقصود أن تشكل في مجموعها برنامجًا متوازنًا على المدى القريب والبعيد. وقد يحتاج المبتدئ إلى التركيز على تصحيح التلاوة، بينما يحتاج من يحسن القراءة إلى مزيد من العناية بالفهم والتدبر، ويحتاج الحافظ إلى برنامج منتظم للمراجعة.
- كما ينبغي أن تتصف الخطة بالمرونة المنضبطة؛ فهي قابلة للتعديل إذا تغيرت ظروف الإنسان، لكنها لا تُترك مع كل تغير يسير في المزاج. ويمكن مراجعتها في نهاية كل أسبوع أو شهر، لا لمحاسنة النفس على الأرقام وحدها، بل للنظر في مدى الاستمرار، وجودة القراءة، وحصول الفهم، وظهور أثر عملي في الحياة.
- والغاية من الخطة ليست تحويل القرآن إلى مهمة إدارية جامدة، ولا إشغال القارئ بتسجيل الإنجازات على حساب حضور القلب، وإنما إزالة العوائق التي تحول بينه وبين صحبته. فإذا أعانت الوسائل التنظيمية على الاستمرار فهي نافعة، وإذا تحولت إلى عبء أو مظهر مستقل عن المقصد وجب إعادة النظر فيها.
- وبذلك يصبح الورد اليومي بابًا للاستقرار الروحي والتربوي، لا مجرد عادة منفصلة عن الحياة؛ إذ يتعلم القارئ أن يخصص للقرآن مكانًا ثابتًا في يومه، وأن ينظم وقته على أساسه، وأن يقيس نجاحه بقدر ما يجمع بين دوام التلاوة وصحة الفهم وصدق الاستجابة.

المبحث الثاني: القرآن في أحوال الإنسان

أولاً: القرآن في أوقات الضيق والابتلاء

يمر الإنسان في حياته بأحوال تتفاوت بين السعة والضيق، والصحة والمرض، والأمن والخوف، والنجاح والتعثر. وفي أوقات الابتلاء قد تضيق قدرته على التفكير المتزن، ويشتد اضطرابه النفسي، وتكثر الأسئلة التي لا يجد لها جواباً عاجلاً. وهنا تظهر حاجة الإنسان إلى خطاب الوحي الذي يعيد ترتيب نظرتة إلى الحياة، ويذكره بحقيقة الدنيا، وسعة رحمة الله، ومعنى الصبر، وحدود قدرته على التحكم في الأحداث.

وقد قرر القرآن أن الابتلاء سنة من سنن الحياة، فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥). فالآية لا تنكر ألم الابتلاء، ولا تطالب الإنسان بالتظاهر بأنه لا يتأثر، بل تضع المعاناة في إطار أوسع، وتربط الصبر بالبشارة، وتفتح أمام المبتلى أفقاً يتجاوز اللحظة الراهنة.

ويظهر أثر الصحبة القرآنية في هذه الحال من خلال معانٍ متعددة. أولها أن القرآن يحرر الإنسان من الاعتقاد بأن وقوع المصيبة يعني بالضرورة الهوان أو انعدام الرعاية الإلهية؛ فالابتلاء قد يقع في حياة المؤمن مع صدقه واستقامته، ولا يصح الحكم على منزلة الإنسان عند الله بمجرد ما يصيبه من رخاء أو شدة.

وثانيها أن القرآن يوجه الإنسان إلى الصبر الذي يجمع بين الثبات والقيام بالواجب، لا إلى الاستسلام السلبي. فالصبر لا يعني ترك الأسباب المشروعة، أو السكوت عن الظلم، أو الامتناع عن طلب العلاج والمساعدة، وإنما يعني ضبط النفس على مقتضى الشرع، والاستمرار في العمل النافع مع احتمال المشقة.

وثالثها أن القرآن يعيد إلى الإنسان معنى الرجاء، ويذكره بأن العسر ليس نهاية الطريق، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥-٦). وهذا الوعد لا يبيح الجزم بأن كل مشكلة ستنتهي بالطريقة التي يتصورها الإنسان أو في الوقت الذي يريده، لكنه يفتح باب الأمل، ويمنع اليأس من أن يتحول إلى رؤية شاملة للحياة.

ومن الخطأ أن يُستعمل الخطاب القرآني في أوقات الشدة لإسكات مشاعر المبتلى أو لومه على حزنه. فالحزن في ذاته لا يناقض الإيمان، وقد حكى القرآن حزن يعقوب عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦).

فالمذموم ليس كل حزن أو ألم، وإنما ما يقود إلى اعتراض محرم، أو قنوط من رحمة الله، أو ترك للواجبات، أو اعتداء على الآخرين.

وتتجلى الصحبة القرآنية كذلك في الجمع بين الدعاء والأخذ بالأسباب. فمن أصابه المرض قرأ ما يعينه على الرجاء، وطلب العلاج المناسب، ومن واجه مشكلة أسرية سعى إلى الإصلاح، ومن تعرض لضيق مالي بحث عن الوسائل المشروعة لتجاوزه. فالقرآن لا يعزل الإنسان عن الواقع، وإنما يرشده إلى التعامل معه في ضوء الإيمان والمسؤولية.

ويمكن للقارئ، عند نزول البلاء، أن يتعامل مع القرآن من خلال خطوات عملية:

١. أن يقرأ الآيات التي تتناول الصبر والرجاء والابتلاء، مع فهمها في سياقها.
٢. أن يحدد ما يستطيع فعله في الواقع، بدل الاستغراق في الأسئلة التي لا يملك جوابها.

٣. أن يستعين بالدعاء والصلاة والذكر، دون إهمال الأسباب العملية.

٤. أن يتجنب تنزيل آية معينة على مصيبتة تنزيلاً جازماً دون دليل.

٥. أن يطلب المشورة والمساندة المناسبة إذا تجاوزت المعاناة قدرته على الاحتمال أو أثرت بشدة في حياته.

ومن المهم التنبيه إلى أن القرآن لا يُقدَّم هنا بوصفه بديلاً عن العلاج الطبي أو النفسي عند الحاجة، بل بوصفه مصدراً للهداية والطمأنينة والمعنى، يمكن أن يجتمع أثره مع الاستعانة بالمتخصصين. فالإيمان لا يقتضي إنكار المعاناة، كما أن طلب المساعدة لا ينافي التوكل على الله.

إن القرآن في أوقات الضيق لا يمنح الإنسان بالضرورة تفسيراً تفصيلياً لكل ما يقع له، لكنه يمنحه ميزاناً لفهم الابتلاء، ومصدراً للرجاء، وتوجيهاً إلى ما ينبغي فعله، وأفقاً إيمانياً يعينه على مواصلة الحياة دون أن تتحول المحنة إلى قنوط أو انهيار.

ثانياً: القرآن في أوقات الفرح والنعمة

قد يكون تعامل الإنسان مع الشدة أسهل من تعامله مع النعمة من بعض الوجوه؛ لأن الشدة تستدعي منه طلب العون، بينما قد تدفعه السعة إلى الغفلة أو الشعور بالاستحقاق أو نسبة النجاح إلى قدراته وحدها. ومن هنا، لا تقتصر وظيفة القرآن على مواساة الإنسان عند الألم، بل تمتد إلى تهذيب نظرته إلى النعم، وتوجيهه إلى شكر المنعم، وحسن الانتفاع بما أُعطي.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧). وتدل الآية على منزلة الشكر في علاقة العبد بربه، وعلى أن النعمة ليست مجرد متاع ينتفع به الإنسان، بل أمانة تقتضي الاعتراف بفضل الله واستعمال ما أُعطي في وجوه الخير. والشكر أوسع من التلفظ بالحمد؛ إذ يتضمن اعتراف القلب بالنعمة، والثناء على الله بها، واستعمالها في الطاعة والخير. فمن أُعطي علمًا كان من شكره أن ينتفع به وينفع غيره، ومن أُعطي مالا كان من شكره أداء الحقوق الواجبة فيه، ومن أُعطي صحة كان من شكره أن يستعملها فيما ينفعه ولا يضر الآخرين.

وتساعد الصحبة القرآنية على تصحيح التصور عن النجاح؛ فلا يرى الإنسان تفوقه ثمرة جهده وحده، ولا ينكر دوره في السعي، وإنما يجمع بين الاعتراف بالفضل الإلهي وتحمل مسؤوليته عن العمل. وهذا الجمع يقيه الغرور من جهة، ويحفظ له قيمة الاجتهاد من جهة أخرى.

كما يربي القرآن الإنسان على أن النعمة لا تُقاس بكثرتها المادية وحدها؛ فقد يكون المال واسعًا مع اضطراب القلب، وقد يكون المقدار أقل مع قيام الإنسان بحقوقه ورضاه بما قسم الله له. ولا يعني ذلك ذم المال أو التقليل من أهمية السعي إلى الرزق، وإنما يعني ألا يتحول المقياس المادي إلى معيار وحيد للحكم على نجاح الحياة.

ومن معاني الشكر أيضًا ألا يقود الفرح إلى الغفلة عن حقوق الآخرين. فصاحب النعمة مسؤول عن مراعاة ما أوجبه الشرع في ماله وعلمه ومكانته، كما أن عليه ألا يجعل ما لديه وسيلة للتعالي أو الانتقاص من الناس. وكلما أدرك أن النعمة فضل وأمانة، كان أقدر على الانتفاع بها دون أن تستعبده.

ويستطيع القارئ أن يحول معاني الشكر إلى ممارسات عملية، من خلال تسجيل النعم التي اعتادها ولم يعد يستحضرها، والقيام بحقوقها، ومراجعة طريقة استخدام وقته وماله وقدراته، والسعي إلى نفع الآخرين بما يستطيع. كما يمكنه أن يتوقف عند الآيات التي تذكر بالنعم، ويسأل نفسه: ما الحق الذي يترتب على هذه النعمة؟ وهل أستعملها في الخير؟ وهل دفعني اتساعها إلى مزيد من التواضع أم إلى الغفلة؟

ولا ينبغي أن يفهم الشكر على أنه مطالبة للإنسان بإخفاء كل ألم أو إنكار ما يواجهه من نقص؛ فقد تجتمع النعمة والابتلاء في حياة واحدة. وإنما المقصود ألا يمنع وجود بعض الصعوبات من إدراك أوجه الخير، وألا يحجب التعلق بما ينقص الإنسان ما بين يديه من نعم.

إن صحبة القرآن في أوقات الفرح تعلم الإنسان أن يستقبل النعمة بالتواضع، وأن يحافظ عليها بالطاعة، وأن يجعلها وسيلة للخير، وأن يتذكر أن دوامها ليس مضموناً بمجرد امتلاك أسبابها. وبذلك يصبح الشكر سلوكاً مستمراً، لا عبارة تقال عند حصول مكسب ثم تُنسى في تفاصيل الحياة.

ثالثاً: القرآن عند اتخاذ القرارات

تتخذ حياة الإنسان شكلها من خلال قرارات متتابعة، بعضها يسير يومي، وبعضها يترتب عليه أثر بعيد في الأسرة والعمل والمال والعلاقات. وقد يقع الإنسان في الحيرة حين تتعارض الخيارات، أو يشتد تأثير العاطفة والضغط الاجتماعي، أو يجهل بعض العواقب. وتتمثل إحدى وظائف صحبة القرآنية في بناء الميزان الذي ينظر الإنسان من خلاله إلى قراراته، لا في تقديم جواب تفصيلي جاهز لكل مسألة.

فالقرآن كتاب هداية يقرر أصولاً عامة، ويضبط القيم، ويبين الواجبات والمحرمات، ويرشد إلى العدل والأمانة والوفاء وتحمل المسؤولية. لكنه لا يعفي الإنسان من التفكير، ولا يغنيه عن الاستشارة أو التخصص في المسائل التي تحتاج إلى معرفة فنية أو خبرة واقعية.

ومن هنا ينبغي التمييز بين نوعين من القرارات: قرارات تتعلق بأحكام شرعية واضحة، فيلتزم الإنسان فيها بما دل عليه الدليل، وقرارات اجتهادية أو تنظيمية تتعدد فيها الخيارات المباحة، فيحتاج إلى الموازنة بينها وفق المقاصد والمصالح والنتائج المتوقعة.

فعندما يواجه الإنسان قراراً مالياً، لا يكفي أن يسأل عما يحقق له الربح الأكبر، بل ينظر أيضاً في مشروعية الوسيلة، والحقوق المترتبة، ومقدار المخاطرة، وأثر القرار فيمن يعول. وعندما يتخذ قراراً أسرياً، لا ينبغي أن يحصر نظره في راحته الفردية، بل يراعي العدل والرحمة والوفاء بالحقوق. وعندما يختار مساراً مهنيّاً، يجمع بين القدرة والمصلحة والاستقامة، بدل أن يجعل المكانة الاجتماعية أو المكسب العاجل معياراً وحيداً.

وتساعد آيات الشورى على ترسيخ هذا المنهج، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨). فالآية تشير إلى قيمة التشاور في تدبير الشؤون، وتدل على أن الاستقلال بالرأي ليس دائماً علامة على القوة أو الحكمة. وقد يحتاج الإنسان إلى استشارة أهل الخبرة، أو من يعرفون ظروفه، أو من تتأثر مصالحهم بالقرار، بحسب طبيعة المسألة.

كما أن الاستخارة من الوسائل المشروعة التي يلجأ إليها المسلم عند تردد الخيارات المباحة، بعد النظر في الأسباب والاستشارة. وليست الاستخارة بديلاً عن التفكير أو جمع المعلومات، ولا يلزم أن يعقبها حلم أو علامة خارقة، وإنما هي دعاء لله بأن ييسر الخير ويصرف الشر، مع المضي في الأسباب المشروعة. ويمكن تنظيم عملية اتخاذ القرار في خطوات مترابطة:

١. **تحديد المسألة:** ما القرار المطلوب؟ وما حدود الخيارات المتاحة؟
 ٢. **تحرير الحكم الشرعي:** هل يتضمن الخيار أمراً محرماً أو تفريطاً في واجب أو اعتداءً على حق؟
 ٣. **جمع المعلومات:** ما الحقائق المتاحة؟ وما الذي يحتاج إلى تحقق أو استشارة متخصصة؟
 ٤. **الموازنة:** ما المصالح والمفاسد المتوقعة؟ وما آثار القرار القريبة والبعيدة؟
 ٥. **الاستشارة والاستخارة:** طلب الرأي ممن يحسن النظر، مع اللجوء إلى الله بالدعاء.
 ٦. **العزم والتنفيذ:** اختيار ما ترجح بالدليل والنظر، ثم تحمل المسؤولية عن آثاره.
 ٧. **المراجعة:** تقويم النتائج والاستفادة من التجربة، دون ادعاء أن كل نتيجة غير مرغوبة دليل على خطأ القرار السابق.
- وينبغي الحذر من اقتطاع آية من سياقها لتبرير قرار اتخذه الإنسان مسبقاً، أو الادعاء بأن آية معينة تشير إلى خيار شخصي بعينه دون دليل. فالقرآن ليس وسيلة لإضفاء المشروعية على الرغبات، بل ميزان لمراجعتها وضبطها. وإذا احتاج القرار إلى حكم شرعي تخصصي، رجع الإنسان إلى أهل العلم، وإذا تعلق بمسألة طبية أو مالية أو قانونية فنية، استعان بأهل الاختصاص فيها.
- إن صحبة القرآن عند اتخاذ القرار لا تعني انتظار إجابة غيبية عن كل تفصيل، وإنما تعني أن يدخل الإنسان إلى قراراته بقيم قرآنية تضبط مقاصده، وتعينه على التمييز بين المصلحة العاجلة والحق الواجب، وبين الرغبة الشخصية والمسؤولية، وبين التوكل المشروع وترك الأسباب.

رابعاً: القرآن في أوقات القلق والخوف

القلق من التجارب الإنسانية التي قد ترتبط بانتظار نتيجة، أو توقع خطر، أو تحمل مسؤولية، أو مواجهة أمر مجهول. وقد يكون القلق عابراً يتناسب مع الموقف، وقد يشتد أو يستمر حتى يؤثر في النوم والتركيز والعلاقات والقدرة على أداء

الأعمال. وفي كلا الحالين، يحتاج الإنسان إلى وسائل تعينه على استعادة التوازن، ومن بينها صلته بالقرآن، مع مراعاة أن الحالات الشديدة أو المستمرة قد تحتاج إلى تقييم وعلاج متخصص.

ومن المعاني القرآنية المركزية في هذا الباب قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨). فالآية تربط طمأنينة القلب بذكر الله، وتوجه الإنسان إلى مصدر يتجاوز تقلبات الأحداث ومحدودية السيطرة البشرية. غير أن هذا المعنى لا ينبغي أن يُحوّل إلى وعد بأن كل قلق سيزول فورًا بمجرد القراءة، أو إلى اتهام للمصاب بالقلق بضعف الإيمان؛ فالأحوال النفسية تتفاوت، وقد تتداخل فيها أسباب متعددة.

وتتمثل إحدى صور الانتفاع بالقرآن في إعادة توجيه الانتباه من الاستغراق في المخاوف إلى ما يستطيع الإنسان فعله. فالخوف من المستقبل قد يدفعه إلى تصور أسوأ الاحتمالات، وتكرارها ذهنيًا، حتى يعجز عن التعامل مع الحاضر. وتذكره آيات التوكل بأن علم الإنسان محدود، وأن عليه بذل السبب المشروع، ثم تفويض ما يخرج عن قدرته إلى الله.

ولا يعني التوكل ترك التخطيط أو تجاهل المخاطر، بل يجمع بين الاستعداد المعقول وعدم الاستسلام للوهم. فمن يخشى الفشل في عمله يستعد له ويتعلم، ومن يقلقه أمر صحي يطلب التقييم المناسب، ومن يواجه مشكلة أسرية يسعى إلى حلها، ثم لا يجعل الخوف من النتائج المحتملة سببًا لتعطيل حياته.

كما يمكن للتلاوة المتأنية أن توفر لحظة من التوقف عن ضجيج الأفكار، خصوصًا إذا اختار القارئ آيات يفهم معناها، وقرأها بتمهل، واستحضر ما تدل عليه من الرجاء والرحمة والتوكل. ولا يلزم أن يبحث في كل جلسة عن إحساس قوي بالطمأنينة؛ فقد يكون نفع القراءة في إعادة تنظيم التفكير، أو تذكير النفس بمعنى غاب عنها، أو إعانتها على احتمال الموقف حتى تتضح أسبابه.

ومن الوسائل العملية التي يمكن الجمع بينها وبين التلاوة:

- تحديد المخاوف الواقعية التي تحتاج إلى إجراء، وتمييزها من الاحتمالات المتخيلة التي لا تستند إلى قرائن واضحة.
- تخصيص وقت للقرآن والذكر، مع تقليل المشتتات التي تزيد اضطراب الانتباه.
- تنظيم النوم والنشاط اليومي، وعدم إهمال الحاجات الأساسية للجسم.

• طلب المساندة من شخص موثوق عند الحاجة، وعدم الانعزال الكامل بسبب الخوف.

• الاستعانة بمختص صحي أو نفسي إذا استمر القلق أو اشتد أو عطل جوانب مهمة من الحياة.

ويحتاج القارئ كذلك إلى تجنب تحويل الآيات إلى وسائل للضغط على النفس؛ فليس مطلوبًا منه أن يخفي خوفه أو ينكر اضطرابه كي يثبت حسن صلته بالقرآن. وإنما المطلوب أن يتعامل مع خوفه بصدق، وأن يستمد من الوحي ما يعينه على حسن النظر والعمل، وأن يأخذ بالأسباب التي يحتاج إليها.

وهكذا تصبح الصحبة القرآنية في أوقات القلق طريقًا إلى استعادة التوازن بين الرجاء والمسؤولية؛ فلا يترك الإنسان نفسه للأوهام، ولا يدعي امتلاك السيطرة الكاملة على المستقبل، بل يعمل في حدود قدرته، ويستعين بالله، ويطلب العون المناسب حين يحتاج إليه.

خامسًا: القرآن في أوقات السكينة والخلوة

قد يعتني الإنسان بالقرآن حين تضيق به الحياة، ثم تقل عنايته به عندما تستقر أموره ويشعر بالراحة. غير أن السكينة ليست مجرد فرصة للراحة، بل هي مجال يمكن أن تتعمق فيه الصلة بالقرآن، ويتسع فيه فهم الإنسان لنفسه، وتتجدد فيه مراجعة مقاصده وأولوياته.

وتتيح الخلوة الهادئة للقارئ أن يقرأ بعيدًا عن ضغط الاستجابة العاجلة للمشكلات، وأن يتأمل في المعاني التي ربما مر عليها سريعًا أثناء الانشغال. وقد يتوقف عند آيات تتناول خلق الإنسان، أو سنن الحياة، أو صفات المؤمنين، أو عواقب الأعمال، فيعيد النظر في عاداته وقراراته، دون أن تكون هناك أزمة طارئة تدفعه إلى ذلك.

وقد ورد التوجيه إلى قيام الليل والتلاوة فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ (الإسراء: ٧٩). ويظهر في الآية فضل العبادة في جزء من الليل، وما تتيحه من إقبال ومناجاة. ولا يقتصر الانتفاع بالخلوة على قيام الليل، بل يتحقق كذلك في أوقات أخرى يجد فيها الإنسان فرصة للهدوء والمراجعة.

لكن الخلوة النافعة ليست انقطاعًا دائمًا عن الناس أو انسحابًا من المسؤوليات؛ فالقرآن الذي يدعو إلى التفكير والعبادة يوجه الإنسان أيضًا إلى أداء الحقوق، والإحسان إلى الوالدين، وصلة الرحم، والتعاون على البر، والقيام بمصالح الحياة.

ومن ثم، فإن قيمة الخلوة تُقاس بقدر ما تعين على إصلاح العلاقة بالله وبالخلق، لا بقدر ما تطيل عزلة الإنسان.

وقد يجد القارئ في أوقات السكينة فرصة لقراءة متأنية لسورة كاملة، أو مراجعة موضوع قرآني، أو تدوين الأسئلة التي تحتاج إلى رجوع إلى التفسير، أو محاسبة النفس على خلق معين. وتكون هذه الممارسة أنفع حين لا تتحول الخواطر الشخصية إلى تفسيرات جازمة للآيات، بل تظل مرتبطة بالمعنى الصحيح، مع التمييز بين دلالة النص وما يثيره في النفس من تأملات.

ومن المهم كذلك ألا يجعل الإنسان السكينة شرطًا للتلاوة، ولا يجعل عدم شعوره بلذة خاصة دليلاً على ضعف انتفاعه. فالأحوال الوجدانية تتغير، وقد يكون القارئ في بعض الأوقات أكثر حضورًا وتأثرًا، وفي أوقات أخرى أقل تأثرًا، مع استمرار صدقه ومجاهدته.

إن القرآن في أوقات السكينة يمنح الإنسان فرصة لإعادة ترتيب حياته قبل أن تضطره الأزمات إلى ذلك، ويعينه على استحضار الغاية من العمل، ومراجعة اتجاهاته، وتنمية شكره، وتصحيح عاداته. وبذلك لا تبقى الخلوة مجرد استراحة من الحياة، بل تصبح وسيلة للعودة إليها بقلب أكثر وعيًا ومسؤولية.

المبحث الثالث: القرآن في البيت والمجتمع

أولاً: بناء البيئة القرآنية في الأسرة

الأسرة هي البيئة الأولى التي تتكون فيها كثير من عادات الإنسان واتجاهاته، ومنها علاقته بالقراءة والعبادة والمعرفة. ولذلك فإن بناء البيئة القرآنية داخل البيت لا يقتصر على وجود المصحف أو تشغيل التلاوة، بل يتصل بما يراه الأبناء من سلوك الوالدين، وبطبيعة الحوار الأسري، وبكيفية التعامل مع الخلافات، وبمدى حضور القيم القرآنية في الحياة اليومية.

فالقرآن يوجه إلى مسؤولية الرعاية والتربية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحریم: ٦). وتقتضي هذه المسؤولية بذل أسباب التعليم والتوجيه والقدوة، لا الاكتفاء بإلقاء الأوامر أو مطالبة أفراد الأسرة بممارسات لا يرون أثرها في حياة من يوجههم.

وتبدأ البيئة القرآنية من القدوة؛ فإذا رأى الأبناء أحد والديهم يقرأ القرآن بانتظام، ويحرص على فهمه، ويستجيب لتوجيهاته، كان لذلك أثر تربوي يتجاوز التوجيه اللفظي. أما إذا ارتبط القرآن في أذهانهم بالصراخ أو العقاب أو التوبيخ المستمر، فقد تنشأ بينهم وبينه علاقة نفسية منفرة، وإن كان المقصود من الوالدين هو الحث على الخير.

ولا يعني هذا أن التربية القرآنية تخلو من التوجيه أو المحاسبة، بل إن التوجيه ينبغي أن يجمع بين الوضوح والرحمة، وأن يراعي العمر والقدرة، وأن يميز بين الخطأ الذي يحتاج إلى تصحيح، والشخص الذي لا ينبغي اختزاله في خطئه. فالمقصود بناء علاقة مستقرة بالقرآن، لا تحقيق استجابة شكلية مؤقتة تقوم على الخوف من العقوبة وحدها.

ومن الوسائل العملية لبناء هذه البيئة أن يُخصص في البيت وقت مناسب للتلاوة، وأن تتاح المصاحف والكتب المناسبة لأعمار أفراد الأسرة، وأن يُشجع الأبناء على طرح الأسئلة، وأن تُناقش بعض المعاني القرآنية في مواقف الحياة اليومية. ويمكن للأسرة أن تتناول معنى الصدق عند الحديث عن الأمانة، أو معنى الصبر عند مواجهة التأخر أو الفشل، أو معنى العفو عند وقوع الخلاف، مع تجنب التكلف في ربط كل حادثة بآية لا تدل عليها دلالة واضحة.

كما ينبغي أن تكون البيئة القرآنية بيئة أمانة وعدل واحترام؛ فلا يستقيم أن يكثر الحديث عن الأخلاق في المجلس، ثم تُهدر الحقوق داخل البيت. وإذا أخطأ أحد

الوالدين، فإن اعترافه بالخطأ واعتذاره عند الحاجة قد يكون درسًا تربويًا عميقًا في التواضع وتحمل المسؤولية.

ومن المهم مراعاة الفروق بين أفراد الأسرة؛ فقد يختلف الأبناء في سرعة التعلم، والقدرة على الحفظ، والميول، والظروف الدراسية. ولا ينبغي أن تتحول المقارنة المستمرة بينهم إلى مصدر للإحباط أو التنافس المؤذي. بل يُشجع كل فرد على التقدم بحسب قدرته، مع المحافظة على أصل الاحترام والعدل.

إن البيئة القرآنية الناجحة ليست التي يكثر فيها الحديث عن القرآن فحسب، وإنما التي يظهر فيها أثره في طريقة إدارة الخلاف، وتوزيع المسؤوليات، وصيانة الحقوق، والتعامل مع الضعف والخطأ. فحين يرى أفراد الأسرة أن القرآن يغير أسلوب الحياة، يصبح أقرب إلى قلوبهم من مجرد مادة تُلقن لهم.

ثانيًا: القراءة والتعلم داخل البيت

تتجاوز الصحة القرآنية داخل الأسرة مجرد التلاوة الفردية، إذ يمكن للبيت أن يصبح مجالًا للتعلم المشترك، وتبادل الفهم، وتنمية الفضول المعرفي، وتربية الأبناء على الرجوع إلى المصادر الموثوقة. وتحقيق هذه الغاية عندما تكون القراءة الأسرية منظمة ومناسبة للقدرات، دون أن تتحول إلى درس ثقيل ينافس الواجبات الدراسية أو يفرض على الجميع طريقة واحدة في التعلم.

ويمكن للأسرة أن تخصص وقتًا أسبوعيًا لقراءة مقدار محدد من القرآن، ثم مناقشة معناه العام بالرجوع إلى تفسير موثوق. ويُراعى في ذلك أن تكون الأسئلة مناسبة لأعمار المشاركين، وأن يُسمح للأبناء بالتعبير عن فهمهم، مع تصحيح الخطأ بلطف، وبيان ما يحتاج إلى بحث بدل تقديم إجابات غير متحققة.

ومن المفيد أن يتعلم الأبناء منذ الصغر أن السؤال عن المعنى ليس عيبًا، وأن عدم معرفة الإجابة أمر طبيعي، وأن الرجوع إلى أهل العلم وكتب التفسير جزء من طلب المعرفة. فبهذا يتربون على التواضع العلمي، ويتعدون عن الاعتقاد بأن كل خاطر يخطر لهم يمثل تفسيرًا صحيحًا للآية.

ولا يشترط أن تكون الجلسة الأسرية طويلة؛ فقد يكون المقدار اليسير المنتظم أنفع من لقاءات مطولة تتكرر على فترات متباعدة. ويمكن أن تتضمن الجلسة قراءة الآيات، وبيان معناها الإجمالي، واستخراج قيمة عملية واضحة، ثم مراجعة ما سبق في اللقاء التالي.

ويُستحسن كذلك ألا يقتصر التعليم على المعاني الوعظية العامة، بل يشمل ما يحتاج إليه أفراد الأسرة من تصحيح التلاوة، وفهم المفردات، والتعرف إلى سياق

الآيات، والتمييز بين التفسير المعتمد والتأمل الشخصي. وكلما ارتفع مستوى المتعلم، أمكن توسيع مجال القراءة إلى أسباب النزول أو وجوه الدلالة أو الموضوعات القرآنية، بحسب الحاجة والقدرة.

ومن الوسائل النافعة أن يحتفظ أفراد الأسرة بدفتر مشترك للفوائد والأسئلة، بحيث تُسجل المسائل التي تحتاج إلى تحقق، وتُراجع الإجابات لاحقًا. لكن ينبغي ألا يتحول التسجيل إلى عبء، أو يُشترط أن يكتب كل فرد فائدة بعد كل جلسة؛ فالغرض هو التعلم والانتفاع، لا استكمال نماذج شكلية.

كما يمكن للأسرة أن تستفيد من التقنيات الحديثة في الوصول إلى التلاوات والتفاسير والدروس الموثوقة، مع ضرورة التحقق من المصادر، وعدم الاكتفاء بمقاطع مجهولة أو عبارات منتشرة بلا سند. فسهولة الوصول إلى المعلومات لا تعني بالضرورة صحة ما يُنشر فيها.

إن التعلم القرآني داخل البيت يثمر حين يجمع بين صحة المعلومة وحسن العلاقة، وبين احترام النص وفتح المجال للسؤال، وبين المعرفة والتطبيق. وبهذا يتعلم الأبناء أن القرآن ليس كتابًا يقرؤونه في أوقات محدودة فقط، بل مصدر هداية يعودون إليه لفهم أنفسهم وحياتهم، ضمن الضوابط العلمية والشرعية.

ثالثًا: صحة القرآن في المسجد والمجالس العلمية

للمسجد مكانة بارزة في حياة المسلم، فهو موضع للعبادة والتعلم والاجتماع، ويمكن أن يكون بيئة تعزز الصلة بالقرآن من خلال حلقات التلاوة، ودروس التفسير، ومجالس المراجعة، والتعليم على أيدي المؤهلين. وتزداد قيمة هذه المجالس حين تجمع بين صحة التلاوة، وسلامة الفهم، وحسن الأدب، والربط بين العلم والعمل.

وقد ورد في صحيح مسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده». ويبين الحديث فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ومدارسه، وما يرتبط به من معاني إيمانية وتربوية.

وتتضمن المدارس أكثر من مجرد اجتماع الأشخاص في مكان واحد؛ فهي تقتضي قدرًا من القراءة والتعلم والتفاعل المنضبط مع المعاني. وقد تكون المدارس بتصحيح التلاوة، أو مراجعة الحفظ، أو شرح المعنى، أو مناقشة مسألة تفسيرية، بحسب طبيعة المجلس ومستوى المشاركين.

ومن أهم ما ينبغي مراعاته في المجالس العلمية أن يتولى التعليم من يحسن ما يقدمه، وأن يميز بين المسائل المتفق عليها والمسائل التي وقع فيها الخلاف، وأن يحيل ما يجهله إلى أهل الاختصاص. فالمجلس القرآني ليس مجالاً لتداول التفسيرات الشخصية بلا ضوابط، ولا لتقديم الوعظ على حساب صحة المعلومة.

كما ينبغي أن تُراعى آداب التعلم؛ فينصت المشاركون إلى القارئ، ويحترم بعضهم بعضاً، ويتجنبون السخرية من أخطاء المبتدئين، ويقبلون التصحيح، ولا يحولون اختلاف الفهم إلى خصومة. فالمقصود من المجلس تعظيم كلام الله والتعلم منه، لا إثبات التفوق الشخصي أو إحراج الآخرين.

ومن المهم كذلك أن تتصل المجالس القرآنية بحاجات الناس الواقعية؛ فالتفسير الذي يوضح أثر الصدق في المعاملات، أو معنى العدل في العلاقات، أو واجب صيانة الحقوق، أقرب إلى إظهار شمول الهداية من الاقتصار على معلومات لا تُربط بأي أثر عملي. ومع ذلك، ينبغي ألا يُختزل التفسير في التطبيقات المعاصرة وحدها، بل تُحفظ للآيات دلالاتها وسياقاتها، ثم تُستخرج منها الهدايات المناسبة. ويستطيع المسلم أن يختار المجلس الذي يناسب حاجته؛ فالمبتدئ يحتاج إلى تصحيح التلاوة وتعلم الأساسيات، والحافظ يحتاج إلى مراجعة دقيقة، ومن أراد فهم المعاني يحتاج إلى درس تفسيري موثوق، ومن كان متقدماً في العلم قد ينتفع بمجالس أوسع في علوم القرآن. ولا يلزم أن يجمع الإنسان جميع هذه الأنواع في وقت واحد.

وتظهر قيمة المجالس القرآنية أيضاً في أثر الصحبة الصالحة؛ إذ يشجع انتظامها على الاستمرار، ويتيح للمتعلم أن يجد من يعينه على المراجعة، ويصحح له أخطاءه، ويذكره بالمقصد من التعلم. غير أن الاعتماد على الجماعة لا يغني عن المسؤولية الفردية، فلا بد لكل مشارك من مراجعة ما يتعلمه، والعمل بما يفهمه على وجه صحيح.

وهكذا يسهم المسجد والمجلس العلمي في نقل القرآن من علاقة فردية محدودة إلى بيئة تعلم وتعاون، تحفظ العلم من الخطأ، وتدعم المداومة، وتعين على أن تتحول المعرفة إلى أخلاق وممارسات داخل المجتمع.

رابعاً: القراءة الجماعية وحدودها وآدابها

تتعدد صور القراءة الجماعية للقرآن، فمنها ما يكون بقصد التعليم وتصحيح التلاوة، ومنها ما يكون للمراجعة والحفظ، ومنها ما يتخذ صورة يتناوب فيها القراء

على القراءة، ومنها ما يقرأ فيه كل مشارك لنفسه في مجلس واحد. وتختلف الأحكام والتوجيهات بحسب الصورة والكيفية والمقصد؛ ولذلك ينبغي عدم إطلاق حكم واحد على جميع الممارسات دون تحرير صورتها.

والأصل أن تلاوة القرآن وتعليمه من الأعمال الفاضلة، وأن التعاون على الخير مقصد شرعي. لكن فضل الاجتماع لا يعني أن كل هيئة جماعية مستحدثة تصبح سنة مخصوصة بمجرد اشتغالها على القراءة، كما لا يعني اختلاف الهيئات أن جميعها ممنوعة. بل تحتاج كل صورة إلى النظر في مقصدها، وكيفية أدائها، وما يترتب عليها، ومدى التزامها بالضوابط الشرعية.

فإذا كان الاجتماع لتصحيح التلاوة، أو مراجعة الحفظ، أو تعليم المبتدئين، أو مدارس المعاني، كان المقصد واضحاً، وتُراعى فيه الوسائل المناسبة. أما إذا ارتبطت صورة معينة باعتقاد فضل مخصوص أو عدد أو وقت أو هيئة على وجه التعبد، فإن هذا التخصيص يحتاج إلى دليل، ولا يكفي فيه مجرد الاستحسان أو شيوع الممارسة.

ومن آداب القراءة الجماعية احترام التلاوة، وتجنب التشويش على القارئ، وإعطاء المبتدئ فرصة للتعلم دون إحراج، وعدم تحويل المجلس إلى منافسة في رفع الصوت أو إظهار المهارة. كما ينبغي مراعاة أحوال الحاضرين، وعدم إطالة الجلسة على نحو يوقعهم في المشقة، خصوصاً إذا كان في المجلس أطفال أو كبار سن أو أشخاص ذوو قدرات متفاوتة.

ويجب التفريق بين رفع الصوت في القراءة حين يكون مناسباً، وخفضه حين يترتب على الجهر تشويش على المصلين أو القراء الآخرين. فحسن الأداء لا ينفصل عن مراعاة حقوق الآخرين، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يجهر بعض الناس على بعض بالقراءة، كما ورد في الحديث الذي رواه مالك في الموطأ وأحمد في المسند بألفاظ متقاربة. والمقصود منع التشويش والتنازع في القراءة، لا إلغاء صور التعليم الجماعي المشروعة.

كما أن القراءة الجماعية لا ينبغي أن تحل محل التعلم الفردي، ولا أن تجعل القارئ يعتمد على صوت الآخرين دون أن يتأكد من إتقانه. فلكل صورة وظيفتها؛ إذ تعين الجماعة على التصحيح والتشجيع، بينما تتيح القراءة الفردية فرصة للتركيز والمراجعة والتأمل الخاص.

ويُستحسن قبل تنظيم أي مجلس جماعي تحديد الغاية منه، ثم اختيار الهيئة التي تخدمها، وتعيين من يشرف على التصحيح أو التعليم عند الحاجة، وتوضيح آداب

المشاركة. وإذا ظهرت خلافات في بعض الممارسات، فمن الأنسب الرجوع إلى أهل العلم الموثوقين، مع تجنب التبديع أو التصحيح المتسرع قبل فهم حقيقة الممارسة وأدلتها.

إن المقصود من القراءة الجماعية أن تعين على التعلم والتعاون وتعظيم القرآن، لا أن تتحول إلى عادة شكلية أو مجال للمفاخرة. وحين تضبط بالعلم والأدب، يمكن أن تكون وسيلة نافعة لتوسيع دائرة الصحبة القرآنية، مع بقاء المسؤولية الفردية عن التلاوة والفهم والعمل.

خامسًا: دور القدوة في تعزيز الصلة بالقرآن

لا تتشكل العلاقة بالقرآن من خلال المعلومات وحدها، بل تتأثر كذلك بالنماذج البشرية التي يرى الإنسان أثر الوحي في حياتها. فالقدوة تجعل القيم المجردة سلوكًا مشاهدًا، وتبين كيف يمكن للقراءة والفهم أن ينعكسا على المعاملة، وضبط النفس، وتحمل المسؤولية، واحترام الآخرين.

وقد أثنى الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤). وتبرز هذه الآية منزلة الخلق في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، كما تذكر بأن الدعوة لا تقوم على البيان اللفظي وحده، بل يظهر صدقها في السلوك الذي يراه الناس ويعاملونه.

وتبدأ القدوة من البيت، حيث يتعلم الأبناء من أفعال الوالدين بقدر ما يتعلمون من أقوالهما. فإذا رأوا أن القرآن يدعو إلى الصدق، ثم شاهدوا الصدق في معاملات والديهم، تقوى الصلة بين النص والواقع في أذهانهم. وإذا سمعوا عن الرحمة، ثم وجدوا الرفق في التعامل مع الضعيف والمخطئ، أدركوا أن القيم القرآنية قابلة للتطبيق وليست مجرد شعارات.

ويمتد أثر القدوة إلى المعلم والإمام والمربي وصاحب المجلس القرآني. فالمعلم الذي يصحح الخطأ باحترام، ويعترف بما لا يعلم، وينصف من يختلف معه، يقدم درسًا عمليًا في الأمانة والتواضع. والإمام الذي يراعي أحوال الناس، ويربط التوجيه بالعلم والرحمة، يعينهم على فهم الدين بعيدًا عن التشدد أو التهاون.

غير أن القدوة لا تعني عصمة الأشخاص أو قبول كل ما يصدر عنهم؛ فالمرجع في صحة الفهم هو الدليل المعتبر، وليس مكانة الشخص أو محبة الناس له. وقد يقع الصالح أو المعلم في خطأ، ويكون من تمام التربية أن يتعلم الناس التفريق بين احترام الشخص ومراجعة قوله، وبين الاستفادة من تجربته واتباعه في كل ما يقول.

كما ينبغي الحذر من تحويل القدوة إلى أداة للمقارنة المحبطة؛ فلكل إنسان قدرته وظروفه ومسار تعلمه. والمقصود من مشاهدة النماذج الصالحة أن يتعلم الإنسان منها ما يستطيع، لا أن يقيس بداياته بما بلغه غيره بعد سنوات من المجاهدة. ومن أهم علامات القدوة القرآنية أن يظهر أثر القرآن في المواقف التي تتعارض فيها المصلحة الشخصية مع الحق، أو حين يملك الإنسان القدرة على الانتقام فيختار العفو المشروع، أو حين يستطيع إخفاء الخطأ فيعترف به، أو حين تختلف الآراء فيحفظ للآخرين حقوقهم. ففي هذه المواقف يتجلى الانتقال من معرفة المعاني إلى تحمل تبعاتها العملية.

ويستطيع القارئ أن ينتفع بالقدوات من خلال التأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وسير الصحابة، وما ثبت من أخبار الصالحين، مع التحقق من الروايات وعدم بناء الأحكام على القصص غير الموثقة. كما ينبغي أن يوازن بين الاستفادة من التجارب البشرية والرجوع إلى النصوص الصحيحة، حتى لا تصبح الحكاية المؤثرة بديلاً عن الدليل.

إن القدوة الصالحة تجعل القرآن حاضرًا في السلوك اليومي، وتمنح التعلم صورة عملية يمكن الاقتداء بها. وحين تجتمع القدوة مع صحة العلم والرفق في التربية، تصبح البيئة الأسرية والاجتماعية أكثر قدرة على تنمية صحة قرآنية متوازنة ومستقرة.

المبحث الرابع: صحة القرآن عبر مراحل العمر

أولاً: الطفولة وبناء الألفة بالقرآن

تمثل الطفولة مرحلة مهمة في تكوين العادات والانطباعات الأولى، ولذلك فإن بناء علاقة إيجابية بالقرآن في هذه المرحلة يحتاج إلى مراعاة طبيعة النمو، وقدرات الطفل، وحاجته إلى اللعب والتشجيع والأمان. ولا ينبغي أن يُختزل تعليم القرآن للطفل في سرعة الحفظ أو كثرة المقدار، بل يشمل تنمية الألفة بكلام الله، وتصحيح النطق تدريجيًا، وربط التعلم بالمحبة والاحترام.

وتبدأ هذه الألفة غالبًا من البيئة الأسرية؛ إذ يسمع الطفل القرآن في البيت، ويرى والديه يقرآن، ويشارك في أوقات مناسبة من التلاوة. ومع تكرار هذه الممارسات، يصبح القرآن جزءًا مألوفًا من الحياة الأسرية، لا نشاطًا غريبًا يُفرض عليه في أوقات محددة.

وينبغي أن يكون تعليم الطفل متدرجًا؛ فيبدأ بما يناسب عمره وقدرته على النطق والانتباه، مع مراعاة أن الأطفال يختلفون في سرعة التعلم. ولا يصح أن تُجعل

سرعة الحفظ معيارًا وحيدًا لتقييم الطفل، أو أن يُقارن باستمرار بإخوته وأقرانه، لأن ذلك قد يضعف ثقته بنفسه، ويحول التعلم إلى مصدر للضغط.

ومن المفيد أن يجمع التعليم بين الاستماع والترديد والشرح المبسط. فالطفل الذي يحفظ سورة قصيرة يمكن أن يتعلم معناها العام، وأن يعرف ما تدعو إليه من عبادة أو خلق، بالقدر الذي يناسب فهمه. ولا يُطلب منه استيعاب التفاصيل التفسيرية المعقدة، وإنما يُبنى فهمه تدريجيًا مع نمو قدرته العقلية واللغوية.

كما ينبغي استخدام التشجيع دون إفراط في ربط قيمة الطفل بالمكافأة المادية أو التفوق على الآخرين. فالمكافأة قد تكون وسيلة تربوية مناسبة في بعض الأحوال، لكن الغاية الأبعد أن يتعلم الطفل احترام القرآن، والفرح بتعلمه، والشعور بأن القراءة عبادة نافعة. ويمكن تعزيز ذلك بالثناء على الاجتهاد والانتظام وحسن الاستماع، لا على مقدار الحفظ وحده.

ومن الأخطاء التربوية أن يرتبط القرآن في ذهن الطفل بالعقوبة أو الحرمان المستمر، أو أن يُجبر على جلسات طويلة تتجاوز قدرته على التركيز. فالمطلوب هو الجدية التي تناسب عمره، لا المشقة التي تنفره. كما ينبغي ألا يُترك الطفل دون تصحيح لتلاوته بدعوى المحافظة على محبته؛ إذ يمكن الجمع بين الرفق والتوجيه الدقيق.

وتسهم القصص القرآنية في تنمية فهم الطفل للقيم والمعاني، بشرط عرضها وفق ما ثبت في القرآن والسنة، وتجنب إضافة تفاصيل غير موثقة أو تقديم الخيال على أنه جزء من النص. ويمكن أن يتعلم الطفل من قصة يوسف عليه السلام معنى الصبر، ومن قصة موسى عليه السلام بعض معاني الثقة بالله، ومن مواقف الأنبياء أهمية الصدق والأمانة، دون تحميل القصص معاني لا يدل عليها سياقها.

ولا تنتهي المسؤولية التربوية عند الحفظ؛ بل ينبغي أن يرى الطفل أثر المعاني القرآنية في البيت، كصدق الوالدين، وعدلها بين الأبناء، ورفقهما بالمحتاج، واعتذارهما عند الخطأ. فهذه المواقف تساعد على إدراك أن القرآن ليس نصًا يتلوه ثم ينساه، بل هداية تتجسد في التعامل.

إن بناء الألفة بالقرآن في الطفولة استثمار تربوي طويل المدى، يحتاج إلى الصبر والتدرج والقُدوة. وكلما ارتبط التعلم بالمعنى والرحمة والاستمرار، ازدادت فرص بقاء هذه الصلة مع الطفل حين ينتقل إلى مراحل عمرية تتسع فيها أسئلته ومسؤولياته.

ثانيًا: الشباب وأسئلة الهوية والمعنى

تتسم مرحلة الشباب بتوسع الأسئلة المتعلقة بالهوية والمستقبل والاستقلال والمسؤولية، كما تتزايد فيها المؤثرات الاجتماعية والثقافية، وتتعدد مصادر المعرفة، وقد يواجه الشاب أسئلة تتصل بالدين أو القيم أو الغاية من الحياة. وفي هذه المرحلة، لا يكفي أن يُطلب منه الإقبال على القرآن دون مساعدته على فهم معانيه، أو أن تُواجه أسئلته بالتوبيخ بدل الحوار المنضبط.

فالقرآن يقدم تصورًا متكاملًا عن الإنسان وغاية وجوده، وعن مسؤوليته الأخلاقية، وعلاقته بالله والناس، وحدود الحرية، ومعنى العمل الصالح. وهو يوجه الإنسان إلى التفكير والنظر، ولا يجعل الإيمان مجرد ميراث اجتماعي منفصل عن الوعي. ومن ثم، فإن صحبة القرآن في مرحلة الشباب تحتاج إلى الجمع بين التلاوة، والفهم، والحوار، والقدوة، وتعلم كيفية التعامل مع الأسئلة الصعبة.

ومن المهم أن يُفتح المجال للشباب لطرح أسئلته بوضوح، وأن يُفرَّق بين السؤال الذي يقصد به الفهم، والشبهة التي تحتاج إلى تحرير، والسلوك الذي يحتاج إلى تقويم. وليس من الحكمة أن يُعامل كل سؤال بوصفه علامة على ضعف الإيمان، كما لا يصح أن تُقبل كل فكرة لمجرد أنها تُطرح في سياق البحث عن الهوية.

ويحتاج الشاب إلى تعلم منهج التحقق من المعلومات، والتمييز بين النصوص الصحيحة والضعيفة، وبين التفسير المعتبر والتأويل المتكلف، وبين النقد العلمي والتشكيك غير المنهجي. وتزداد أهمية ذلك في بيئة رقمية تنتشر فيها المقاطع المختصرة والاقتباسات المجتزأة، التي قد تقدم الآيات في غير سياقها أو تنسب إلى الدين أقوالًا لم تثبت.

كما يعينه القرآن على ضبط علاقته بالنجاح والطموح؛ فلا يكون التفوق المادي أو المكانة الاجتماعية معيارًا وحيدًا لقيمة الحياة، ولا يُفهم الزهد على أنه ترك العمل أو تعطيل القدرات. بل يتعلم أن يسعى في طلب العلم والرزق، وأن يلتزم بالأمانة، وأن يحفظ حقوق الآخرين، وأن يربط أهدافه بالقيم التي يؤمن بها.

وفي العلاقات الاجتماعية، يوجهه القرآن إلى العفة والصدق والعدل وحفظ اللسان، ويعينه على مقاومة ضغط الجماعة حين يدعوه إلى ما يخالف قناعاته الدينية والأخلاقية. غير أن هذه التوجيهات تحتاج إلى شرح واقعي يبين كيفية تطبيقها في العلاقات والدراسة والعمل، لا إلى الاكتفاء بالأوامر العامة.

ومن وسائل تعزيز الصحبة القرآنية للشباب إشراكهم في حلقات تعلم جادة، وإتاحة التفاسير والدروس المناسبة لمستواهم، وتشجيعهم على تدوين الأسئلة والبحث عن إجابات موثوقة، وربطهم بقدوات تجمع بين العلم والخلق. كما ينبغي أن يُراعى

اختلاف اهتماماتهم وقدراتهم، فلا يُفرض على الجميع برنامج واحد دون نظر إلى حاجاتهم.

ويحتاج الشباب كذلك إلى إدراك أن بناء العلاقة بالقرآن لا يتطلب بلوغ مستوى علمي متقدم قبل البدء؛ فالتلاوة اليومية، وفهم المعاني الأساسية، والرجوع إلى المصادر الموثوقة عند الإشكال، كلها وسائل متاحة للتعلم المستمر. ومن المهم ألا يتحول الشعور بوجود أسئلة لم تُحل إلى مبرر لقطع الصلة بالقرآن، بل يمكن أن يكون دافعًا إلى تعلم أعمق وأكثر انضباطًا.

إن صحبة القرآن في مرحلة الشباب تسهم في بناء هوية تجمع بين الإيمان والوعي، وبين الطموح والمسؤولية، وبين الانفتاح على الأسئلة والثبات على الأصول. وبهذا يصبح القرآن مرجعًا يهدي التفكير والسلوك، لا مجرد شعار يُرفع في مواجهة المؤثرات المعاصرة.

ثالثًا: مرحلة النضج والمسؤوليات

تزداد في مرحلة النضج مسؤوليات الإنسان، وقد تتعدد أدواره بين العمل والأسرة ورعاية الوالدين وتربية الأبناء والمشاركة الاجتماعية. ومع اتساع هذه الالتزامات، قد يشعر بأن الوقت المتاح للتلاوة والتعلم أصبح أقل، أو أن ذهنه لم يعد يتفرغ للقراءة كما كان في مراحل سابقة. وهنا تظهر الحاجة إلى صحبة قرآنية تراعي تغير الظروف، دون أن تتخلى عن أصل الصلة.

وقد تكون المشكلة في هذه المرحلة أن الإنسان يضع القرآن في موضع النشاط الإضافي الذي لا يمارسه إلا بعد إنجاز جميع الأعمال، مع أن الأعمال لا تنتهي غالبًا. والأولى أن يحدد له وقتًا معلومًا ضمن تنظيم يومه، بحيث لا ينافس الواجبات الأساسية، ولا يُترك لما يتبقى من الوقت.

وتحتاج هذه المرحلة إلى ربط المعاني القرآنية بمسؤوليات الإنسان الواقعية. فمن يتولى إدارة فريق في العمل يحتاج إلى استحضار العدل والأمانة، ومن يربي أبناءه يحتاج إلى الصبر والرحمة والحكمة، ومن يتعامل مع المال يحتاج إلى مراعاة الحقوق والبعد عن الظلم، ومن يرعى والدين كبيرين يحتاج إلى استحضار معاني البر والإحسان.

ولا يعني ذلك أن يُختزل القرآن في مجموعة من النصائح المهنية أو الأسرية؛ فهو أوسع من ذلك، ويشمل العقيدة والعبادة والآخرة وسائر مقاصد الهداية. وإنما المقصود أن يعي الإنسان الصلة بين ما يقرؤه وما يعيشه، حتى لا تنفصل المعرفة الدينية عن المسؤوليات اليومية.

وفي هذه المرحلة، قد ينتفع الإنسان بقراءة تفسير مختصر بصورة منتظمة، أو بالاستماع إلى درس علمي موثوق، أو بمراجعة ما حفظه، أو بالمشاركة في مجلس قرآني يناسب وقته. ولا يلزم أن يجمع كل هذه الوسائل، بل يختار منها ما يستطيع الاستمرار عليه.

كما ينبغي أن يتعامل مع تفاوت نشاطه بواقعية؛ فبعض الأيام تكثر فيها الالتزامات الطارئة، وقد يحتاج إلى تخفيف الورد مؤقتًا، ثم العودة إلى برنامجه المعتاد. ولا ينبغي أن تتحول كثرة المسؤوليات إلى عذر دائم للانقطاع، كما لا يصح أن يحمل نفسه ما يؤدي إلى تضييع حقوق واجبة أو الإضرار بصحته.

ومن المهم كذلك أن يراجع الإنسان أولوياته؛ فقد يستهلك وقتًا طويلاً في وسائل التواصل أو أعمال قليلة الأهمية، ثم يظن أنه لا يملك وقتًا للقرآن. وتساعد المحاسبة الصادقة على التمييز بين ضيق الوقت الحقيقي وسوء تنظيمه، مع تجنب القسوة على النفس أو تجاهل الظروف الموضوعية.

وتمنح الصحبة القرآنية في مرحلة النضج الإنسان فرصة لمراجعة نجاحه ومسؤولياته من منظور أوسع؛ فلا يقيس حياته بما جمعه أو أنجزه فقط، بل ينظر إلى عدله في علاقاته، وأمانته في عمله، وأثره في أسرته، واستعداده للقاء الله. وهذه المراجعة لا تعني التقليل من قيمة الإنجاز الدنيوي، بل وضعه في مكانه الصحيح ضمن منظومة أوسع من المسؤولية والمعنى.

إن القرآن في مرحلة النضج يعين الإنسان على إدارة المسؤوليات بقيم ثابتة، ويذكره بأن كثرة الأعمال لا ينبغي أن تبتلع غاية الحياة، وأن العبادة لا تنفصل عن أداء الحقوق، وأن النجاح الحقيقي يحتاج إلى الجمع بين الإتقان في شؤون الدنيا والاستقامة في العلاقة بالله والناس.

رابعًا: الكهولة والشيخوخة واستحضار المآل

مع تقدم العمر تتغير قدرات الإنسان الجسدية والذهنية، وقد تتراجع طاقته على القراءة الطويلة أو الحفظ، أو تظهر لديه أمراض تحد من قدرته على بعض العبادات. وفي هذه المرحلة، تحتاج الصحبة القرآنية إلى مراعاة هذه التغيرات، مع المحافظة على أصل الصلة بحسب الاستطاعة، وتجنب ربط قيمة الإنسان بما كان يستطيع فعله في سنوات سابقة.

فليس المقصود من الاستمرار أن يظل الإنسان ملتزمًا بالمقدار نفسه مهما تغيرت صحته، وإنما أن يكيف عبادته مع قدرته، وأن ينتفع بالوسائل المتاحة له. فقد يقرأ

مقدارًا أقل، أو يستمع إلى التلاوة مع متابعة المصحف، أو يراجع ما يحفظه، أو يتعلم تفسيرًا مختصرًا، بحسب ما تسمح به حالته.

وتزداد أهمية استحضار المآل في هذه المرحلة، لا على سبيل التخويف المجرد، بل بوصفه تذكيرًا بمعنى الحياة ومسؤولية العمل. فالقرآن يربط الدنيا بالآخرة، ويذكر الإنسان بأن العمر محدود، وأن قيمة الأعمال تتصل بالإخلاص وصلاحها، لا بطول المدة وحدها.

وقد يعين هذا الاستحضار على مراجعة العلاقات والحقوق؛ فيبادر الإنسان إلى رد ما عليه من مظالم، أو إصلاح علاقة انقطعت، أو الاعتذار عن خطأ، أو توجيه أبنائه إلى أداء الحقوق. وليس معنى ذلك تأجيل التوبة ورد الحقوق إلى الشيخوخة، بل إن التذكير بالمآل يحث الإنسان في كل عمر على المبادرة إلى الإصلاح، ويزداد أثره حين يرى المرء بوضوح محدودية الزمن.

كما يمكن للقرآن أن يمنح كبار السن مجالًا للتأمل في تجاربهم، وفهم ما مر بهم في ضوء معاني الصبر والشكر والتوبة والرجاء. لكن ينبغي الحذر من تحويل التجارب الشخصية إلى تفسيرات جازمة لمقاصد الله في الأحداث؛ فليس كل ما يقع للإنسان يمكنه أن يعرف حكمته التفصيلية، وإنما يستفيد من التجربة في المحاسبة والتعلم، مع التسليم بما لا يعلمه.

ومن الجوانب المهمة في هذه المرحلة دور الأسرة في تيسير الصحبة القرآنية لكبار السن؛ بتوفير مصحف مناسب للقراءة، أو إضاءة جيدة، أو وقت هادئ، أو قارئ يساعد من ضعفت قدرته على القراءة، مع احترام استقلالهم وكرامتهم. وينبغي ألا تُفرض عليهم برامج مرهقة، أو يُشعروا بأن انخفاض طاقتهم نقص في قيمتهم الدينية.

وقد يكون لكبار السن دور تربوي مهم في الأسرة، من خلال نقل الخبرة، وتشجيع الأبناء والأحفاد على التلاوة، ومشاركة ما تعلموه من معاني القرآن، دون أن تتحول الخبرة الشخصية إلى مرجع مستقل عن العلم. فالتجربة مصدر للتأمل، لكنها لا تغني عن التحقق من النصوص والأحكام.

ولا ينبغي أن يقتصر النظر إلى هذه المرحلة على الاستعداد للموت بمعناه الفردي، بل يشمل كذلك حسن أداء الحقوق ما دام الإنسان قادرًا، وحفظ الروابط الأسرية، ونفع الناس، والإحسان في ما بقي من العمر. فالاستعداد للآخرة ليس انسحابًا من الحياة، بل إصلاح لما بقي منها، وتوبة عما مضى، ورجاء فيما عند الله.

إن صحبة القرآن في الكهولة والشيخوخة تمنح الإنسان موردًا للمعنى والرجاء والمراجعة، وتعينه على تقبل تغير القدرة دون استسلام أو يأس. وكلما اقترنت هذه الصحبة بالتوبة والحقوق وحسن الظن بالله، كانت أكثر اتصالًا بمقصد الهداية والاستعداد للمآل.

خامسًا: القرآن في مواجهة الخوف من الموت والاستعداد للآخرة

الموت حقيقة إنسانية لا يستطيع أحد تجاوزها، واستحضاره قد يثير في النفس الخوف أو الحزن أو القلق من المجهول. ويختلف أثر هذا الاستحضار بحسب حال الإنسان، وما يحمله من تصورات وتجارب، ومدى استعداده للموت. ومن هنا، فإن الخطاب القرآني لا يتعامل مع الموت بوصفه موضوعًا للتخويف وحده، بل يضعه ضمن رؤية متكاملة للحياة والبعث والحساب والرحمة والعمل.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٥). فالآية تقرر حتمية الموت، وتوجه النظر إلى يوم الجزاء، بما يجعل الحياة الدنيا مرحلة عمل ومسؤولية، لا نهاية الوجود الإنساني.

ويحتاج المسلم إلى التوازن بين استحضار الحساب والرجاء في رحمة الله؛ لأن الاقتصار على الخوف قد يدفع بعض النفوس إلى اليأس، كما أن الاقتصار على الرجاء دون اعتبار للمسؤولية قد يقود إلى التهاون. ويجمع القرآن بين الوعد والوعيد، ويقرر أن رحمة الله واسعة، ويدعو إلى التوبة والعمل الصالح، دون أن يمنح الإنسان ضمانًا خاصًا بالنجاة خارج ما دل عليه الوحي.

ومن المهم أن يميز الإنسان بين الخوف الذي يدفعه إلى الإصلاح، والخوف الذي يشل قدرته على الحياة. فالخوف النافع يحمله على رد الحقوق، والتوبة، والإكثار من العمل الصالح، وتحسين علاقته بالناس. أما إذا استغرق في تصور الموت على نحو يسبب له اضطرابًا شديدًا أو يعطل شؤون حياته، فقد يحتاج إلى مساندة نفسية أو صحية، ولا ينافي ذلك الإيمان أو الاستعداد للآخرة.

وتساعد الصحبة القرآنية على تحويل استحضار الموت من فكرة مجردة إلى مراجعة عملية للحياة. فيسأل الإنسان نفسه: هل أدت ما علي من حقوق؟ هل هناك مظلمة أستطيع ردها؟ هل أؤخر توبة أعرف حاجتي إليها؟ هل أصل رحمتي؟ هل أتعامل مع أسرتي بالعدل والرحمة؟ وهل أستثمر ما بقي من عمري فيما ينفع؟ وهذه الأسئلة لا ينبغي أن تتحول إلى مصدر لوسواس لا ينتهي، بل إلى محاسبة محددة تقود إلى خطوات عملية. فإذا تذكر الإنسان حقًا ضائعًا، بادر إلى رده

بحسب استطاعته، وإذا وجد تقصيرًا في عبادة، وضع خطة واقعية لتحسين أدائها، وإذا أدرك خللاً في خلقه، عمل على تغييره بالتدرج والمجاهدة.

كما ينبغي أن يفهم الاستعداد للموت في ضوء الاستمرار في أداء الواجبات الدنيوية؛ فالإنسان لا يعرف موعد موته، ولذلك لا يصح أن يترك مسؤولياته أو يهمل من يعول بحجة التفرغ للاستعداد للآخرة. بل يدخل في الاستعداد حسن أداء العمل، والإنفاق على الأسرة، ورعاية الوالدين، والوفاء بالعهود، والإحسان إلى الناس.

ومن صور الصحبة القرآنية في هذا الباب قراءة الآيات التي تتناول الموت والبعث والحساب والجنة والنار، مع فهم سياقاتها ومقاصدها، وعدم اقتطاع آيات الوعيد بمعزل عن آيات الرحمة والتوبة. كما ينبغي تجنب بناء تصورات تفصيلية عن المصير الفردي لأشخاص معينين دون دليل، فالحكم النهائي إلى الله، والواجب على الإنسان أن ينشغل بإصلاح نفسه.

ويحتاج الإنسان، حين يقترب من نهاية العمر أو يشتد به المرض، إلى خطاب يجمع بين التذكير والرفق، ويعينه على التوبة ورد الحقوق والوصية المشروعة، دون تهويل أو إيذاء نفسي. كما تحتاج الأسرة إلى مراعاة حال المريض، وتذكيره بالله على وجه يبعث الرجاء، وتيسير ما يستطيع من العبادة، مع احترام حاجاته الصحية والنفسية.

إن الاستعداد للآخرة ليس عملاً مؤقتاً إلى آخر العمر، وإنما هو اتجاه يرافق الإنسان في جميع مراحل حياته. والقرآن يريه على أن يعيش واعياً بحقيقة الفناء، من غير أن يفقد القدرة على العمل في الحاضر، وأن يجمع بين الخوف والرجاء، وبين التوبة والمسؤولية، وبين الإقبال على الدنيا بما فيها من واجبات والاستعداد للقاء الله بما فيه من عمل صالح.

المنزل السادس: عوائق الطريق — كيف نحافظ على صحبة القرآن؟

المبحث الأول: عوائق التلقي والتدبر

أولاً: العجلة وعدم التأني

ليست العبرة في صحبة القرآن بكثرة ما تقرأه الأعين، ولا بعدد الصفحات التي تطويها الأيام، وإنما بقدر ما تتركه القراءة من أثر في الفهم والقلب والسلوك. فالقرآن الكريم كتاب هداية، أنزله الله تعالى ليتدبر ويعمل به، لا ليكون مجرد ألفاظ تتردد على اللسان ثم تنقضي صلتها بالقارئ بانتهاء التلاوة. ومن هنا كانت العجلة من أبرز العوائق التي تحول بين القارئ وبين الانتفاع الحقيقي بالقرآن؛ إذ قد يستغرق في تحصيل مقدار كبير من القراءة، بينما لا يمنح المعاني وقتاً كافياً لتستقر في وعيه أو تستدعي منه وقفة مراجعة واستجابة.

وقد وجه القرآن إلى التدبر في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. فالآية تربط بين إنزال الكتاب والتدبر فيه والتذكر به، وتكشف أن المقصود من التلاوة لا ينحصر في تحريك اللسان، بل يمتد إلى إعمال العقل واستيقاظ القلب واستحضار ما تقتضيه الآيات من هداية. وليس معنى ذلك أن كثرة التلاوة مذمومة، أو أن القراءة السريعة في ذاتها مانعة من الأجر؛ وإنما الخلل أن تتحول السرعة إلى غاية تستنزف الانتباه وتضعف حضور المعنى.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]. فالترتيل يقتضي القراءة المتأنية المنضبطة التي تحفظ ألفاظ القرآن وتعين على سماعها وفهمها، دون أن تتحول إلى تكلف في الأداء أو انشغال بالتحسين الصوتي على حساب المعنى. وقد روى مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها في وصف قراءة النبي صلى الله عليه وسلم أنها كانت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً، وهو وصف يدل على وضوح الأداء وتمهل القراءة، ويعين على إدراك قيمة التأني في التلقي (1).

وتظهر مشكلة العجلة في صور متعددة؛ فقد يقرأ الإنسان الآية التي تأمره بالعدل، ثم يجاوزها دون أن يسأل نفسه عن مواضع التقصير في عدله؛ ويمر بآيات التوبة دون أن يراجع ذنباً يصير عليه؛ ويقرأ آيات الصبر، بينما لا يتوقف عند الطريقة التي يستجيب بها للابتلاء. وفي هذه الحالات لا يكون النقص بالضرورة في صحة التلاوة، وإنما في ضعف الصلة بين المعنى المقروء والواقع المعاش.

ومع ذلك، ينبغي التمييز بين القراءة السريعة التي يقتضيها ختم القرآن أو المراجعة، وبين العجلة التي تفضي إلى الإخلال بالحروف أو تضييع التدبر. فلكل مقام

وظيفته، وقد يجمع القارئ في برنامجه بين ورد للتلاوة ووقت مستقل للتدبر، بحيث لا يجعل أحد المقصدين بديلاً عن الآخر.

ومن الوسائل العملية لمعالجة العجلة أن يخصص القارئ بعض الوقت لقراءة مقدار محدود من الآيات، ثم يتوقف عند معنى محوري فيها، ويعيد قراءة الآية أو الآيات ذات الصلة، مستعيناً بتفسير موثوق عند الحاجة. ويمكنه أن يسأل نفسه: ما الذي تقررره هذه الآيات؟ وما الذي تكشفه من حقيقة إيمانية أو خلقية؟ وما الاستجابة المشروعة التي تدعوني إليها؟

بهذه الطريقة ينتقل القارئ من مجرد إنجاز المقدار إلى بناء الصلة بالمعنى. فالغاية ليست أن يتخلى عن كثرة القراءة، وإنما أن يحفظ للتلاوة وظيفتها، وللتدبر حقه، وللعمل مكانته؛ إذ لا تعارض بين كثرة التلاوة وعمق التدبر إذا أحسن الإنسان تنظيم وقته، وعرف أن لكل منهما أثراً يحتاج إلى رعاية.

ثانياً: الغفلة وتشتت الانتباه

قد يجلس الإنسان أمام المصحف، ويبدأ التلاوة بلسانه، بينما يظل ذهنه منشغلاً بأحداث يومه، أو بمشكلات العمل، أو بمحادثات سابقة، أو بما ينتظره من أعمال لاحقة. وقد يستمر في القراءة مدة طويلة دون أن ينتبه إلى أنه فقد متابعة المعاني. وهذه الحالة تكشف أن الحضور الجسدي أمام المصحف لا يستلزم بالضرورة حضور القلب والعقل معاً.

وقد نبّه القرآن إلى خطورة الغفلة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، كما أمر بالإنصات عند قراءة القرآن والاستماع إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. والإنصات هنا يربي الإنسان على أن يمنح كلام الله ما يستحقه من انتباه وتوقير، وألا يجعل التلاوة صوتاً مصاحباً لانشغالات لا تنتهي.

غير أن الغفلة ليست درجة واحدة؛ فقد تكون عارضة تنشأ عن التعب أو قلة النوم أو ضغط المسؤوليات، وقد تتحول إلى عادة بسبب كثرة المشتتات وضعف التنظيم، وقد ترتبط بانشغال القلب المستمر بما يستغرق اهتمام الإنسان. والتميز بين هذه الصور ضروري؛ لأن معالجة كل حالة تختلف عن الأخرى. فمن كان تشتتته بسبب الإرهاق احتاج إلى اختيار وقت أنسب، ومن كان بسبب الهاتف احتاج إلى ضبط استخدامه، ومن غلبت عليه الهموم احتاج إلى ترتيبها والأخذ بأسباب معالجتها، لا إلى الاكتفاء بلوم نفسه.

ومن الخطأ أن يتعامل القارئ مع كل شرود ذهني بوصفه دليلاً على فساد نيته أو عدم صلاح قلبه؛ فالإنسان بطبيعته يعتريه النسيان والتشتت، والمطلوب منه أن يجاهد نفسه في استعادة الانتباه، لا أن يستسلم للغفلة أو يبالغ في اتهام ذاته. وتبدأ المعالجة من تهيئة بيئة القراءة. فيختار القارئ مكاناً يقل فيه الضجيج، ويبعد عنه ما يمكن أن يشتت انتباهه، ويحدد مقداراً يتناسب مع طاقته، ويستحضر قبل البدء أنه مقبل على كلام الله، وأن المقصود من هذه الدقائق ليس أداء عادة يومية فحسب، بل تلقي الهداية والتذكر بها.

وإذا لاحظ أن ذهنه قد شرد، عاد إلى الآية التي انقطع عندها انتباهه، وقرأها مرة أخرى، وحاول استحضار معناها. ولا يلزمه أن يبدأ القراءة من أول المقطع كلما تشتت، ولا أن يحول كل شرود إلى محاكمة طويلة للنفس؛ بل يتعامل معه بوصفه أمراً يحتاج إلى تصحيح هادئ ومتكرر.

ومن المفيد كذلك أن يربط القارئ انتباهه بأسئلة محددة، مثل: ما القضية التي تتناولها هذه الآيات؟ وما العلاقة بينها وبين ما سبقها؟ وما المعنى الذي ينبغي ألا أغفل عنه؟ فالسؤال المنضبط يعيد الذهن إلى موضوع القراءة، ويحول دون استمرار التلاوة في حال من الانفصال عن المعنى.

ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن كل قراءة لا يصاحبها حضور كامل للقلب عديمة القيمة؛ فالتلاوة عبادة، ولها فضلها، وقد ينتفع الإنسان من القراءة وإن تفاوت انتباهه. لكن صحبة القرآن تقتضي أن يجاهد القارئ في تحسين حضوره، وأن يسعى تدريجياً إلى تقليل أسباب التشتت، دون أن يجعل الكمال في التركيز شرطاً يمنعه من مواصلة التلاوة.

ثالثاً: الاختصار على التلاوة دون فهم

التلاوة من أجل العبادات، وهي أصل مهم في بناء الصلة بالقرآن، لكن الاختصار عليها مع إهمال الفهم قد يحرم القارئ جانباً أساسياً من مقاصد الكتاب. فالقرآن لم ينزل ليكون نصاً يُتلى فحسب، وإنما ليكون هدى للناس، ونوراً في حياتهم، وميزاناً يميزون به الحق من الباطل، وطريقاً يتعلمون من خلاله الإيمان والعبادة والأخلاق.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. والاستفهام في الآية يلفت النظر إلى أن التدبر ليس أمراً زائداً على وظيفة القرآن، بل هو من المطالب التي دعا الوحي إلى تحقيقها. كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ

فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿[القمر: ١٧]﴾، بما يؤكد أن التذكر والاعتبار من المقاصد التي ينبغي للقارئ أن يسعى إليها.

ولا يعني ذلك أن كل مسلم مطالب بأن يستنبط بنفسه جميع أحكام القرآن ودقائقه، أو أن يتجاوز ما قرره العلماء في فهم الآيات؛ فالفهم درجات، والناس متفاوتون في أدوات العلم واللغة والمعرفة. والمطلوب أن يتناسب التدبر مع قدرة القارئ، وأن يرجع فيما يحتاج إلى بيان علمي إلى التفسير الموثوق وأهل الاختصاص.

ومن صور الاختصار على التلاوة أن يجعل الإنسان ختم القرآن هدفاً مستقلاً لا يصاحبه أي جهد لفهم ما يقرأ، أو أن يحفظ عدداً كبيراً من الآيات دون أن يعتني بمعانيها، أو أن يردد آيات تتصل بأخلاقه وعلاقاته دون أن يحاول إدراك ما تقتضيه منه. وفي المقابل، قد يقرأ شخص مقداراً أقل، لكنه يتوقف عند بعض الآيات، ويفهم دلالتها، ويستخرج منها توجيهاً صحيحاً، ثم يسعى إلى تطبيقه في حياته.

ولا يصح تحويل هذه المقارنة إلى مفاضلة مطلقة بين كثرة التلاوة وقلة القراءة المصحوبة بالتدبر؛ لأن الأجر والفضل يتصلان بأمور متعددة، ولأن أحوال القراء ومقاصدهم تختلف. وإنما المقصود بيان أن الاختصار الدائم على التلاوة دون أي عناية بالفهم يجعل العلاقة بالقرآن ناقصة من جهة الانتفاع بالهداية.

ويمكن معالجة ذلك بتنظيم الصحبة القرآنية على ثلاثة مستويات متكاملة:

١. مستوى التلاوة: المحافظة على قراءة القرآن، مع مراعاة أحكام التلاوة والاستطاعة.

٢. مستوى الفهم: التعرف إلى المعاني الأساسية للآيات بالاستعانة بالتفسير الموثوق.

٣. مستوى الاستجابة: النظر في الهداية التي تحملها الآيات، والعمل بما تدل عليه في حدود الاستطاعة والتكليف الشرعي.

وقد يحتاج القارئ إلى توزيع هذه المستويات على أوقات مختلفة؛ فيقرأ ورداً يومياً، ويخصص وقتاً لدراسة تفسير مقطع معين، ثم يسجل ما يحتاج إلى تطبيقه أو مراجعته. وبهذا لا تتحول الصحبة إلى مشروع معرفي مجرد، ولا إلى ممارسة تعبدية منفصلة عن الفهم، بل تصبح علاقة متكاملة تجمع التلاوة والتعلم والعمل.

رابعاً: الاستسلام للملل وضعف الاستمرارية

من العوائق التي تواجه صحبة القرآن أن يبدأ الإنسان بحماسة كبيرة، فيحدد لنفسه مقداراً يومياً مرتفعاً، ويضع برنامجاً لا يراعي ظروفه، ثم يعجز عن الاستمرار عليه بعد أيام أو أسابيع. وقد يتكرر الأمر حتى تتكون لديه صورة ذهنية مفادها أنه لا يستطيع المحافظة على ورد ثابت، فيضعف التزامه ويزداد انقطاعه.

وتكشف هذه الحالة عن خطأ في بناء العادة أكثر مما تكشف بالضرورة عن ضعف الرغبة في القرآن؛ إذ قد تكون المشكلة في المبالغة في البداية، أو في عدم مراعاة المسؤوليات، أو في ربط القراءة بالمزاج، أو في تصور أن الصحبة لا تكون نافعة إلا إذا اقترنت بشعور وجداني قوي.

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهمية المداومة في قوله: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»؛ وهو حديث ثابت في الصحيحين بألفاظ متقاربة. (٢) ويدل هذا التوجيه على قيمة الاستمرار في العمل الصالح، وأن القليل الدائم قد يكون أجدى في بناء العادة وترسيخ الصلة من الكثير المنقطع.

كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهي قاعدة تعين المسلم على مراعاة قدرته، دون أن يتخذ الاستطاعة ذريعة إلى التهاون. فالمطلوب أن يحدد لنفسه مقداراً يمكنه المحافظة عليه غالباً، ثم يزيده إذا اتسعت قدرته واستقرت عادته.

والملل الذي يعرض للقارئ لا يعني بالضرورة أن القرآن فقد أثره، أو أن قلبه لم يعد ينتفع به؛ فقد ينشأ الملل من التكرار غير المنظم، أو من الإرهاق، أو من توقع نتائج وجدانية سريعة، أو من غياب هدف واضح للقراءة. ولهذا ينبغي ألا يربط القارئ استمرار الصحبة بشعوره في كل جلسة، بل يجعلها جزءاً ثابتاً من حياته التعبدية. ومن الوسائل العملية لتحقيق الاستمرارية:

- تحديد حد أدنى يومي واقعي لا يتعارض مع المسؤوليات الأساسية.
- ربط القراءة بوقت ثابت أو عادة يومية مستقرة، كأن تكون بعد صلاة معينة.
- تجنب تعويض أيام الانقطاع بمقادير مرهقة تؤدي إلى انقطاع جديد.
- التنوع المنضبط بين التلاوة والتفسير والمراجعة والتدبر.
- متابعة الإنجاز بطريقة بسيطة تساعد على معرفة أسباب النجاح والتعثر.
- زيادة الورد تدريجياً بعد استقرار المقدار الأساسي.

ومن المهم كذلك أن يفرق القارئ بين ضعف الدافع المؤقت وبين الانقطاع الذي يستدعي مراجعة عادته وألوياته. فإذا لاحظ أن التزامات أخرى تستنزف وقته،

احتاج إلى إعادة تنظيم يومه، وإذا وجد أن المقدار المختار أكبر من طاقته، خفّضه إلى حد يمكنه الاستمرار عليه، وإذا كان الملل ناشئاً عن ضعف فهم المعاني، خصص وقتاً للتفسير والتعلم.

إن صحبة القرآن ليست سباقاً لإثبات القدرة على تحمل المقادير الكبيرة، وإنما هي بناء طويل الأمد يحتاج إلى الصبر والرفق بالنفس والانضباط. والنجاح فيها لا يتحقق بانعدام الفتور، بل بالقدرة على استعادة الطريق كلما ضعفت الهمة، والمحافظة على أصل الصلة في مختلف الأحوال.

خامساً: التكلف في طلب التأثير الوجداني

من الأخطاء التي قد تعترض طريق التدبر أن يتوقع القارئ أن يشعر في كل مرة بخشوع ظاهر، أو أن يبكي عند كل آية مؤثرة، أو أن يجد في نفسه انفعالات قوية يثبت له أنه انتفع بالقرآن. فإذا لم يتحقق ذلك، ظن أن قراءته لم تكن نافعة، أو أن قلبه قد قسا، أو أنه فقد القدرة على التأثير.

وهذا التصور يخلط بين التأثير بوصفه أثراً محتملاً من آثار التلقي، وبين اتخاذ الانفعال الظاهر معياراً وحيداً للحكم على صدق الانتفاع. فالخشوع والبكاء من الأحوال المحمودة إذا صدقا، لكن الهداية القرآنية لا تنحصر فيهما؛ فقد يظهر أثر القرآن في توبة صادقة، أو ترك معصية، أو رد مظلمة، أو صبر على ابتلاء، أو عدل في خصومة، أو ثبات على واجب، دون أن يصاحب ذلك بكاء أو انفعال ظاهر.

وقد وصف الله تعالى أثر القرآن في أهل الإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. فالآية تربط التلقي بوجل القلب وزيادة الإيمان والتوكل، وهي آثار تتجاوز مجرد الانفعال اللحظي إلى بناء التصور والسلوك.

كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. وتبين الآية أن التأثير بالقرآن مرتبط بالخشية، وأن أثره لا يقف عند الانفعال الأول، بل يتجه إلى لين القلب واستجابته لذكر الله.

غير أن الآيات التي تصف أحوال الخاشعين لا تعني أن كل قارئ مطالب بأن يحقق الصورة الوجدانية نفسها في كل جلسة، ولا أن غياب العلامات الظاهرة يثبت غياب الإيمان أو الانتفاع. فالقلوب تتفاوت، والأحوال تختلف، وقد يكون الإنسان متأثراً بمعنى الآية لكنه يعبر عن ذلك بالصمت والتفكير، أو بتغيير سلوكه، أو بإعادة ترتيب أولوياته.

والتكلف يظهر حين ينشغل القارئ بمراقبة مشاعره أكثر من انشغاله بمعنى الآيات، أو يحاول استحضار البكاء لمجرد البكاء، أو يبالغ في وصف ما يجده في نفسه، أو يعتقد أن له حالاً خاصاً يمنحه فهماً معصوماً للنص. وفي هذه الصور يتحول التأثر من وسيلة محتملة للانتفاع إلى غاية مستقلة قد تحجب المقصود الأصلي من القراءة.

والموقف المتوازن هو أن يقرأ الإنسان القرآن بتوقير وحضور، وأن يفتح قلبه لمعانيه، وأن يسمح لنفسه بالتأثر الطبيعي دون تصنع، ثم ينظر في أثر ذلك على إيمانه وعمله. فإذا بكى حمد الله، وإذا لم يبك فلا يتكلف البكاء، وإذا وجد قسوة أو فتوراً سعى إلى معالجته بالذكر والتوبة والتعلم والعمل الصالح.

ومن المهم ألا يجعل القارئ الأحوال الوجدانية الخاصة مصدراً مستقلاً للتشريع أو تفسيراً ملزماً للآيات؛ فالمعاني المستنبطة يجب أن تضبط بدلالة النص وسياقه وأصول التفسير، ولا تتحول المشاعر مهما بلغت قوتها إلى دليل يبيح نسبة معنى إلى القرآن من غير حجة.

وبذلك يستعيد التأثر وظيفته الصحيحة: أن يكون معيناً على التذكر والاستجابة، لا معياراً منفرداً للحكم على الإيمان، ولا مجالاً للمفاضلة بين الناس، ولا وسيلة لإثبات منزلة روحية خاصة.

المبحث الثاني: عوائق الفهم والتطبيق

أولاً: قراءة الآيات بمعزل عن سياقها

من أخطر العوائق التي تواجه التدبر أن تُنتزع الآية من سياقها، ثم تُحمّل معنى لا يدل عليه موضعها، أو يُبنى عليها حكم لا تحتمله دلالتها. فالآيات القرآنية ليست عبارات منفصلة عن بنائها، وإنما تنتظم في سياقات تتصل فيها المعاني، وتتضح فيها المقاصد، وتُفهم فيها الأوامر والنواهي والقصص والأمثال ضمن وحدة الخطاب القرآني.

وقد يؤدي إهمال السياق إلى تعميم معنى خاص، أو تضيق معنى عام، أو إغفال قيد مؤثر، أو الخلط بين حكاية قول باطل وإقرار القرآن له، أو بين وصف حال معينة والحكم على جميع الأحوال المشابهة لها. ولهذا كان النظر في السياق من أهم ضوابط الفهم، إلى جانب اللغة وأسباب النزول والقراءات الصحيحة وما يتصل بالآية من نصوص.

ومن أمثلة ذلك أن يقرأ الإنسان قوله تعالى: ﴿قَوِيلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]، ثم يقف عندها دون متابعة الآيات التي تليها، فيفهم من ظاهر العبارة المنقطعة معنى يناقض المقصود من السياق؛ إذ تكمل الآيات وصف الذين هم عن صلاتهم ساهون، والذين يراؤون ويمنعون الماعون. فالسياق هنا ضروري لتحديد المراد من الوعيد.

ومثله أن يقتطع القارئ جملة من قصة قرآنية، ثم يجعلها قاعدة عامة في كل حال، دون النظر إلى طبيعة الواقعة وسياقها والقيود التي وردت فيها. فليس كل ما يُحكى في القرآن عن قول شخص أو فعله أمراً باتباعه، ولا كل وصف لحادثة بعينها حكماً ينطبق على جميع الوقائع دون نظر.

ولا يعني الاعتناء بالسياق حصر دلالة الآيات في سبب نزولها أو الواقعة التي وردت بشأنها؛ فقد تدل الآية على معنى عام يتجاوز السبب، لكن تحديد مدى هذا العموم يحتاج إلى فهم دلالتها وألفاظها وسياقها، لا إلى افتراض أن كل آية تعني الشيء نفسه في جميع الظروف.

ومن الوسائل العملية لتجنب هذا العائق أن يقرأ القارئ الآية مع ما قبلها وما بعدها، وأن يحدد موضوع المقطع، وأن يرجع إلى تفسير موثوق يوضح العلاقة بين الآيات. وإذا أراد استخراج فائدة تربوية، فعليه أن يميز بين المعنى الذي تدل عليه الآية، والقاعدة التي يمكن استخلاصها منها، والصورة التطبيقية التي اختارها لنفسه.

وبهذا يصبح السياق حاجزًا يحمي التدبر من التعسف، وأداة تعين على إدراك المعنى الصحيح، لا قيدًا يمنع الاستفادة من الهدايات العامة للقرآن.

ثانيًا: الاعتماد على الانطباع الشخصي دون مراجعة التفسير

قد يقرأ الإنسان آية فيخطر له معنى معين، فيشعر بأنه مناسب لحالته، ثم يطمئن إليه ويبدأ في بناء مواقف عليه دون أن يتحقق من دلالة الآية أو يرجع إلى أهل العلم. وقد يكون هذا خاطر قريبًا من المعنى الصحيح، وقد يكون متأثرًا بتجربته الشخصية أو توقعاته أو رغبته في العثور على تأكيد قرآني لموقف سابق.

ولا إشكال في أن يجد القارئ في الآية ما يذكره بحادثة مر بها، أو يفتح له بابًا لمراجعة نفسه، أو يعينه على فهم مشكلة شخصية. فهذه الاستجابات قد تكون من ثمار التذكر والاعتبار. لكن الإشكال يبدأ حين يتحول الانطباع الشخصي إلى تفسير جازم للآية، أو يُنسب إلى الله تعالى معنى لم يدل عليه النص، أو يُستخرج حكم شرعي من غير أدواته العلمية.

وينبغي هنا التمييز بين ثلاثة مستويات:

١. التفسير: بيان المراد من الآية وفق اللغة والسياق وما قرره أهل العلم من وجوه الدلالة.

٢. التدبر الشخصي: تأمل القارئ في المعنى الصحيح واستحضار ما يتصل به من هداية أو تذكير.

٣. الاستنباط: استخراج معنى أو حكم أو قاعدة من النص، وهو عمل يحتاج إلى معرفة بضوابط الاستدلال ومراتب الأدلة.

وقد يجتمع التدبر مع التفسير والاستنباط، لكن هذه المستويات ليست متطابقة. فكون معنى ما مؤثرًا في النفس لا يجعله بالضرورة تفسيرًا صحيحًا، وكون تجربة شخصية تشبه ما ورد في آية لا يعني أن الآية نزلت بشأنها أو أنها تدل عليها على وجه التخصيص.

ولهذا ينبغي للقارئ أن يتعامل مع خواطره بتواضع علمي، فيعرض ما يحتاج إلى تحقق على التفسير الموثوق، ويتجنب الجزم فيما لا يعلم، ويقول عند الحاجة: «ذكرتني الآية بكذا» بدلًا من أن يقول: «معنى الآية قطعًا هو كذا»، إذا لم يكن لديه ما يسند هذا التحديد.

ولا يلزم أن يرجع الإنسان إلى تفسير مطول عند كل آية يقرأها؛ فقد تكفيه في كثير من المواضع معرفة المعنى العام، لكن الآيات التي يلتبس معناها، أو يترتب عليها

حكم، أو يراد الاستدلال بها على قضية علمية أو شرعية، تحتاج إلى مزيد من التثبت.

ومن الكتب التي يستفاد منها في هذا الباب تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير السعدي، مع مراعاة اختلاف مناهجها ومستوياتها، والرجوع إلى المصادر المتخصصة عند المسائل التي تحتاج إلى بحث أوسع. إن الرجوع إلى التفسير لا ينتقص من تجربة القارئ مع القرآن، بل يحميها من أن تتحول إلى إسقاطات ذاتية، ويمنح التدبر أساسًا علميًا يوازن بين التأثير الشخصي ودلالة النص.

ثالثًا: انتقاء المعاني التي توافق الهوى

قد يدخل الإنسان إلى القرآن وهو يحمل رأيًا سابقًا أو رغبة في تبرير موقف اتخذه، ثم يبحث عن آية يمكن أن يستشهد بها لتأييد ما يريد. وقد يبرز من النصوص ما يوافق رغبته، ويتجاهل ما يطالبه بالمراجعة أو يضع عليه قيدًا أخلاقيًا أو شرعيًا. وهنا لا يعود القرآن ميزانًا يصح تصورات الإنسان، بل يصبح أداة يحاول الإنسان من خلالها تثبيت تصورات لم يختبرها على ضوء الوحي.

وهذه المشكلة أعمق من مجرد الخطأ في فهم آية؛ لأنها تتصل بموقف القارئ من الهداية نفسها. فالذي يطلب الحق مستعد لأن يراجع رأيه إذا ظهر له الدليل، أما الذي يطلب تأييد هواه فإنه قد يلتفت إلى النصوص انتقائيًا، ويبحث عن المبررات التي تسمح له بالاستمرار في موقفه.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال سبحانه في ذم اتباع الهوى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. وتدل هذه النصوص على خطورة أن يصبح الهوى مرجعًا حاكمًا على الحق، بحيث يقبل الإنسان من المعاني ما يوافق رغبته، ويرفض ما يخالفها.

ويظهر هذا الخلل في الحياة اليومية حين يستحضر الإنسان آيات الصبر ليبرر السكوت عن حق واجب المطالبة به في موضع لا يكون السكوت فيه صبرًا مشروعًا، أو يستشهد بآيات العفو لتبرير التهاون في حماية الآخرين من ضرر مستمر، أو يتحدث عن الرحمة ليتهرب من أداء مسؤولية لازمة، أو يستدل بالنصوص التي تؤكد حقوقه دون أن ينظر إلى الواجبات المقابلة لها.

ولا يعني ذلك أن كل استحضار لآية توافق موقف الإنسان هو اتباع للهوى؛ فقد يكون موقفه صحيحًا بالفعل، وقد تكون الآية دالة عليه. إنما العبرة بطريقة التعامل مع النص: هل يقبل الإنسان دلالاته ولو خالفت رغبته؟ وهل ينظر في

مجموع الأدلة ذات الصلة؟ وهل يراجع فهمه عندما يظهر له ما يستوجب المراجعة؟

ولمعالجة هذا العائق، يحتاج القارئ إلى أن يطرح على نفسه أسئلة صادقة: هل أبحث عن هداية تصحح موقفي، أم عن نص يؤيد ما قررت مسبقاً؟ هل قرأت الآيات التي تقيد هذا المعنى أو توضح حدوده؟ وهل طبقت المبدأ نفسه على نفسي كما أطبقه على الآخرين؟

كما ينبغي ألا يتعامل الإنسان مع القرآن باعتباره وسيلة لإدانة خصومه أو تبرير أخطائه، بل يجعله أولاً ميزاناً يراجع به نفسه. وإذا تعلق الأمر بحكم شرعي أو نزاع بين أشخاص، فلا يكفي الانطباع الشخصي أو الانتقاء الجزئي للآيات، بل يلزم النظر في الأدلة والضوابط الشرعية والوقائع ذات الصلة.

ومن علامات صدق الانتفاع بالقرآن أن يزداد الإنسان استعداداً للرجوع عن الخطأ، وأن يتسع إنصافه للآخرين، وأن تقل حاجته إلى تحريف المعاني أو اقتطاع النصوص لتسويغ رغباته. فالهداية الحقيقية لا تكتفي بتأكيد ما نحب، بل تكشف لنا كذلك ما ينبغي أن نغيره.

رابعاً: الفصل بين المعرفة والعمل

من أشد عوائق صحبة القرآن أن يتسع الفرق بين ما يعرفه الإنسان وما يلتزم به. فقد يعلم فضل الصدق، ويقرأ آيات الأمانة، ويدرك خطورة الظلم، ويحفظ النصوص التي تدعو إلى الرحمة، ثم لا يظهر لهذه المعرفة أثر واضح في قراراته وعلاقاته. وهنا تصبح المعرفة منفصلة عن وظيفتها التربوية، ويغدو القرآن حاضراً في الذهن، لكنه لا يحتل المكانة نفسها في توجيه السلوك.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣١) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿[الصف: ٢-٣]. وتنهى الآيتان عن التناقض بين القول والفعل، وتلفتان النظر إلى أن المعرفة والتوجيه يفقدان كمال أثرهما عندما لا يصاحبهما التزام عملي.

ولا يصح أن يفهم من ذلك أن الإنسان لا ينتفع بالعلم إلا إذا بلغ الكمال في العمل؛ فالناس يخطئون ويقصرون، وقد يعرف المرء الحق ثم يعجز عن تحقيقه في بعض المواطن بسبب ضعف أو شهوة أو ظرف ضاغط. لكن الفرق كبير بين من يجاهد نفسه في تحويل المعرفة إلى عمل، ومن يرضى ببقاء المسافة بينهما ولا يحاول معالجتها.

وقد يكون الفصل بين المعرفة والعمل ناشئاً عن غموض التطبيق؛ فالقارئ يفهم أن القرآن يدعوه إلى الإحسان، لكنه لا يحدد كيف يترجم ذلك إلى سلوك في علاقته بأهله أو زملائه. وقد يكون ناشئاً عن تأجيل التغيير، فيقول لنفسه إنه سيعمل لاحقاً، أو عن محاولة تغيير جوانب كثيرة دفعة واحدة، ثم العجز عن الاستمرار. وقد يكون مرتبطاً بضعف المحاسبة، بحيث تنتهي القراءة دون مراجعة لما ينبغي فعله.

ومن الوسائل التي تعين على وصل المعرفة بالعمل أن يختار القارئ، بعد كل جلسة تدبر، فائدة عملية واحدة قابلة للتطبيق. فإذا قرأ في الصدق راجع موقفاً يحتاج فيه إلى الصراحة، وإذا قرأ في بر الوالدين حدد عملاً يستطيع القيام به، وإذا قرأ في حفظ اللسان انتبه إلى نمط من الكلام يحتاج إلى إصلاحه، وإذا قرأ في العفو نظر في الفرق بين العفو المشروع والتنازل عن حقوق الآخرين بغير بصيرة.

وينبغي أن تكون الاستجابة متناسبة مع دلالة الآية، وألا يتعسف القارئ في تحميلها تطبيقاً لا تحتمله. كما أن بعض الآيات تقتضي عملاً قلبياً أو معرفياً، مثل تجديد التوكل أو تصحيح الاعتقاد أو استحضار الآخرة، وليس كل أثر مطلوب فعلاً خارجياً مباشراً.

ومن المفيد أن يسجل القارئ ما اختاره من عمل، ثم يعود إليه بعد مدة ليراجع ما تحقق منه، وما واجهه من صعوبات، وما يحتاج إلى تعديل. وبهذا يتحول التدبر من تجربة تنتهي بانتهاء الجلسة إلى عملية مستمرة تتصل بالتغيير التدريجي. إن المقصود ليس أن يطالب الإنسان نفسه بتطبيق كل ما يقرأه فوراً، وإنما أن يبني علاقة صادقة بين المعرفة والاستجابة، بحيث لا تبقى الآيات معلومات محفوظة فحسب، بل تصبح معانيها حاضرة في اختياراته، وموجهة لأخلاقه، ومصححة لمساره.

خامساً: تحويل التدبر إلى أحكام على الآخرين بدل محاسبة النفس

من الآفات الدقيقة في التعامل مع القرآن أن يقرأ الإنسان الآيات التي تتحدث عن المنافقين أو الظالمين أو المتكبرين أو أصحاب الأخلاق المذمومة، ثم يسارع إلى إسقاطها على أشخاص يعرفهم، بينما يقل اهتمامه بمراجعة ما يمكن أن يوجد في نفسه من صفات تحتاج إلى علاج.

وقد ينشأ هذا السلوك من الرغبة في رؤية الخطأ بوضوح عند الآخرين، أو من أثر الخصومات، أو من شعور الإنسان بأنه أقرب إلى الصواب من غيره. ومع الوقت،

قد تصبح القراءة مناسبة لتجديد الخصومة وتأكيد الأحكام السابقة، بدل أن تكون بابًا للتوبة وإصلاح النفس.

ولا يعني ذلك منع الاعتبار بأحوال الناس أو الاستفادة من القصص القرآني في فهم السلوك الإنساني؛ فالقرآن يعرض نماذج متعددة للعظة والتحذير، ويبين عواقب أعمال وأخلاق معينة. وإنما المقصود ألا يتحول الاعتبار إلى وسيلة للجزم بما في قلوب الأشخاص، أو لإصدار الأحكام عليهم دون علم، أو لصرف النصوص عن وظيفتها في تقويم القارئ نفسه.

وقد قال الله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. فالآية الثانية تحذر من الظنون التي لا تقوم على أساس صحيح، وتنهى عن مسالك تؤدي إلى الإثم وانتهاك حرمة الآخرين.

والأصل في التدبر التربوي أن يبدأ القارئ بمراجعة نفسه، لا أن يجعلها مبرأة من النقص. فإذا قرأ آيات الكبر سأل نفسه عن مواضع الاستعلاء التي قد تقع منه، وإذا قرأ في الغيبة راجع مجالسه وكلامه، وإذا قرأ في العدل نظر في إنصافه لمن يخالفه، وإذا قرأ في الصبر راجع طريقة تعامله مع من حوله عند الغضب.

ولا يمنع ذلك من النصيحة أو إنكار المنكر أو حماية الحقوق عندما تقتضيها الشريعة؛ فمحاسبة النفس لا تعني تعطيل الواجب تجاه الآخرين. لكن ينبغي أن يكون الحكم على الأفعال قائمًا على علم وعدل، وأن يفرق الإنسان بين معرفة الخطأ الظاهر وبين ادعاء العلم بالنيات والسرائر.

ومن الوسائل العملية لمعالجة هذه الآفة أن يجعل القارئ السؤال الأول بعد قراءة الآية متعلقًا بنفسه: ما الذي تكشفه لي هذه الآية عن واجبي؟ وما الصفة التي ينبغي أن أراجعها في نفسي؟ وما العمل الذي أستطيع القيام به؟ ثم ينظر بعد ذلك في كيفية التعامل مع الوقائع الخارجية وفق الضوابط الشرعية، دون أن يحول النص إلى أداة لتغذية الخصومة.

إن القرآن حين يكشف انحرافات البشر لا يدعو القارئ إلى الشعور بالتفوق عليهم، بل إلى فهم سنن الهداية والضلال، والحذر من أسباب الانحراف، والاستعداد لمراجعة النفس. وكلما ازداد الإنسان علمًا بالوحي، كان أحوج إلى التواضع والإنصاف، لا إلى توسيع دائرة الاتهام.

المبحث الثالث: استعادة الصلابة بعد الفتور

أولاً: فهم أسباب الانقطاع

الفتور عن القرآن حالة قد يمر بها القارئ بعد فترة من النشاط والاستمرار، فيضعف إقباله، أو يتراجع مقدار قراءته، أو يفقد بعض ما اعتاده من حضور القلب. وقد يتطور ذلك إلى انقطاع مؤقت أو طويل، خصوصاً إذا اقترن الفتور بالشعور بالذنب أو العجز أو الإحباط.

ولا يصح التعامل مع كل فتور بالطريقة نفسها؛ لأن أسبابه متعددة، وقد تتداخل في حالة واحدة. فقد يكون السبب ضغط العمل أو الدراسة، أو تغير الظروف الأسرية، أو اضطراب النوم، أو المبالغة في تحديد الورد، أو الانشغال بالمشتتات الرقمية، أو انتظار شعور وجداني لا يأتي باستمرار، أو ضعف المعرفة بمعاني القرآن. وقد يكون الفتور جزءاً من ضعف عام في تنظيم العبادة، أو نتيجة غلبة بعض المعاصي، لكن لا يجوز الجزم بسبب بعينه دون قرائن.

والخطوة الأولى في الاستعادة ليست لوم النفس، بل تشخيص ما حدث. فالقارئ الذي انقطع بسبب جدول مرهق يحتاج إلى تنظيم الوقت، والذي بدأ بورد أكبر من طاقته يحتاج إلى تخفيفه، والذي فقد الانتباه بسبب الهاتف يحتاج إلى ضبط بيئة القراءة، والذي لا يفهم كثيراً مما يقرأ يحتاج إلى الاستعانة بالتفسير والتعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. والآية واردة في سياق قصة يعقوب عليه السلام مع أبنائه، وتقرر معنى الرجاء في رحمة الله وعدم اليأس منها. ويستفاد منها في معالجة الفتور أن ضعف الحال لا ينبغي أن يتحول إلى قنوط من الإصلاح أو اعتقاد بأن العودة لم تعد ممكنة.

ومن المهم أن يفرق القارئ بين الانقطاع الفعلي وبين انخفاض مستوى الشعور أثناء القراءة. فقد يواصل الإنسان ورداً ثابتاً مع ضعف التأثير الوجداني، ولا يكون ذلك انقطاعاً عن القرآن بالمعنى العملي. كما قد يقرأ مقداراً كبيراً دون أن يكون حاضر القلب أو ملتزماً بما يتعلمه. ولهذا ينبغي أن يقيس حاله بمؤشرات متعددة، تشمل الاستمرار والفهم والاستجابة، لا بالشعور وحده.

ويمكنه أن يراجع تجربته بأسئلة محددة:

- متى بدأ التراجع؟ وما التغير الذي حدث في جدولتي أو ظروفتي؟
- هل كان الورد الذي حددته مناسباً لقدرتي؟
- ما أكثر ما يشتتني أثناء القراءة؟

- هل أحتاج إلى تحسين فهمي للآيات أو تغيير طريقة دراستها؟
- هل جعلت القراءة مرتبطة بالمزاج، بحيث أتركها عندما تقل الحماسة؟
- ما الخطوة الصغيرة التي يمكنني البدء بها اليوم؟

هذه الأسئلة لا تهدف إلى تحويل الصحبة إلى مشروع مراقبة مرهق، وإنما إلى معرفة الأسباب القابلة للعلاج، ووضع خطة واقعية تمنع تكرار الانقطاع. كما ينبغي ألا يختزل القارئ الفتور في تفسير روحي واحد، ولا أن يحمل نفسه مسؤولية كل تغير يمر به؛ فقد تتصل بعض الصعوبات بالإرهاق النفسي أو الجسدي أو بظروف خارجة عن إرادته. والموقف المتوازن أن يأخذ بالأسباب التعبدية والتنظيمية، ويطلب المساعدة المناسبة إذا كانت هناك مشكلة أوسع تؤثر في حياته.

إن فهم أسباب الانقطاع يفتح باب المعالجة، ويمنع التكرار الناتج عن تجاهل المشكلة الأصلية. فالعودة الناجحة لا تقوم على الحماسة المؤقتة وحدها، بل على معرفة ما أضعف الصلة، ثم إصلاح الأسباب بقدر الاستطاعة.

ثانيًا: العودة التدريجية إلى الورد

بعد فهم أسباب الفتور، تأتي مرحلة العودة العملية. وهنا يقع بعض الناس في خطأ شائع، وهو محاولة تعويض كل ما فاتهم دفعة واحدة؛ فيضعون برنامجًا مكثفًا، ويستعيدون مقدارًا كبيرًا من القراءة في أيام قليلة، ثم يجدون أنفسهم عاجزين عن المحافظة عليه، فينقطعون مرة أخرى.

والأقرب إلى الاستمرار أن يبدأ الإنسان بمقدار مناسب لقدراته الحالية، لا بمقدار يتناسب مع حماسه السابقة أو الصورة المثالية التي يريد الوصول إليها. فإذا كان قد انقطع مدة طويلة، أمكنه أن يبدأ بصفحات قليلة أو بوقت محدد يوميًا، ثم يزيد المقدار تدريجيًا عندما يستقر انتظامه.

وهذا التدرج لا يعني الاستهانة بالقرآن، بل مراعاة لطبيعة العادات الإنسانية، التي تحتاج إلى انتظام وتكرار حتى تستقر. كما أن المحافظة على أصل الصلة تهين القارئ للزيادة في القراءة والفهم والمراجعة، بدل أن يبقى أسيرًا لدورات متكررة من الحماسة والانقطاع.

ويعين على ذلك أن يحدد القارئ حدًا أدنى يوميًا واضحًا، ويربطه بوقت مستقر، ويجعل له بديلًا مناسبًا إذا تعذر الوقت المعتاد. فإذا كان يقرأ بعد الفجر، وتعذر ذلك في يوم معين، اختار وقتًا آخر بدل أن يترك الورد كله. وإذا كانت مسؤولياته لا

تسمح بمقدار كبير، قرأ ما يستطيع، مع المحافظة على نية الاستمرار وخطة الزيادة التدريجية.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»، وهو توجيه سبق أن دللنا به على قيمة المداومة. (٣) ومقتضى الاستفادة منه هنا أن يختار القارئ عملاً صالحاً يستطيع المحافظة عليه، وأن يتجنب المبالغة التي تؤدي إلى الانقطاع.

ولا ينبغي أن تتحول العودة التدريجية إلى ذريعة لتثبيت الحد الأدنى إلى الأبد؛ فالمقصود أن يكون المقدار القليل نقطة انطلاق، ثم يراجع الإنسان برنامجه بين حين وآخر، فيزيده إذا اتسعت قدرته، أو يعيد تنظيمه إذا تغيرت ظروفه.

ومن الوسائل النافعة أن يفصل القارئ بين استعادة عادة التلاوة وبين التوسع في التدبر. فقد يبدأ أولاً بورد ثابت يطمئن إلى انتظامه، ثم يضيف وقتاً قصيراً لقراءة التفسير، ثم يوسع مساحة المراجعة والتطبيق. وبذلك لا يحمل نفسه عدة مهام كبيرة منذ اليوم الأول، ولا يحرمها في الوقت نفسه من التقدم.

وإذا فات القارئ يوماً أو أكثر، فالأفضل أن يعود مباشرة إلى برنامجه بدل أن يجعل الفوات سبباً للتأجيل. فالانقطاع لا يعالج بالندم وحده، وإنما بخطوة عملية جديدة. وليس مطلوباً أن يكون المسار خالياً من التعثر، بل أن يتعلم الإنسان كيف يستأنف السير كلما تعثر.

ثالثاً: تجديد النية وتنظيم الوقت

قد يضعف ارتباط الإنسان بالقرآن عندما تتحول القراءة إلى عادة آلية، أو إلى مهمة يؤديها تحت ضغط الشعور بالواجب، دون أن يستحضر مقصودها الإيماني. وقد تنشأ هذه الحالة مع كثرة التكرار أو ضغط المسؤوليات، فيحتاج القارئ إلى تجديد نيته واستعادة معنى العبادة التي يؤديها.

والنية ليست مجرد عبارة يرددها الإنسان قبل القراءة، بل هي توجيهه للمقصد نحو الله تعالى، ووعي بالمقصد الذي يسعى إليه من تلاوته وتدبره. فالقارئ يقرأ تعبدًا لله، وطلباً للهداية، ورغبة في التعلم والعمل، لا لمجرد إنجاز عدد من الصفحات أو المحافظة على صورة مثالية أمام نفسه أو أمام الآخرين.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وتدل الآية على مركزية الإخلاص في العبادة، ومن ذلك تلاوة القرآن وطلب العلم والعمل به.

ويحتاج تجديد النية إلى مراجعة هادئة، لا إلى تكلف أو انشغال دائم بمراقبة المشاعر. فيستحضر القارئ أنه يقرأ كلام الله، وأنه محتاج إلى هدايته، وأن ما يطلبه من الفهم والعمل إنما هو من أبواب العبودية. ثم يمضي في قراءته دون أن يحول كل جلسة إلى اختبار مرهق لإخلاصه.

أما تنظيم الوقت، فهو من الأسباب العملية التي تعين على استمرار العبادة. فالمشكلة ليست دائمًا في قلة الرغبة، بل قد تكون في غياب وقت محدد تتكرر فيه القراءة. وعندما يترك الإنسان ورد القرآن إلى الفراغ المتبقي من يومه، فقد لا يجد فراغًا كافيًا؛ لأن الأعمال اليومية تميل إلى التوسع، والمشتتات تستحوذ على الأوقات غير المنظمة.

ولهذا يستحسن أن يختار القارئ وقتًا يتناسب مع حاله، ويجعله جزءًا من نظام يومه. ولا يلزم أن يكون وقتًا واحدًا مناسبًا لجميع الناس؛ فبعضهم يكون أنشط في الصباح، وبعضهم يجد وقتًا أفضل في المساء، وبعضهم يحتاج إلى تقسيم الورد على فترات متعددة.

كما ينبغي أن يكون البرنامج مرناً بما يكفي لاستيعاب التغيرات الواقعية، من غير أن يفقد ثباته. فإذا كان القارئ يعمل في أوقات متغيرة، أمكنه ربط القراءة بعادة ثابتة أو تحديد نافذة زمنية يومية. وإذا كانت مسؤولياته الأسرية كثيرة، أمكنه تقسيم المقدار على جلسات قصيرة.

ومن المفيد كذلك مراجعة استخدام الهاتف ووسائل التواصل؛ إذ قد تستنزف أوقاتاً كان يمكن أن تخصص للتلاوة أو التعلم. وليس المقصود إلغاء الوسائل الرقمية، وإنما ضبطها بحيث لا تصبح منافساً دائماً للعبادة.

إن تجديد النية وتنظيم الوقت مساران متكاملان؛ فالنية تمنح العمل وجهته، والتنظيم يهيئ له شروط الاستمرار. وإذا اجتمعا، أصبحت صحبة القرآن أقرب إلى أن تكون ممارسة مستقرة في الحياة، لا نشاطاً موسميًا يرتبط بالحماسة أو الفراغ.

رابعاً: الاستعانة بالصحبة الصالحة والتعلم المنظم

لا تكون صلة الإنسان بالقرآن في عزلة كاملة عن بيئته؛ فالصحبة المحيطة به قد تعينه على الاستمرار، وقد تضعف همته، وقد تفتح له أبواباً للفهم لم يكن ليصل إليها بمفرده. ولهذا كان اختيار البيئة التي تشجع على الطاعة والتعلم من الوسائل المهمة في المحافظة على صحبة القرآن.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]. والآية توجه إلى ملازمة أهل العبادة والإخلاص، وتبرز قيمة البيئة التي تعين الإنسان على الثبات وتذكره بالمقصد الصحيح.

وقد تكون الصحبة الصالحة فردًا يشارك القارئ وردًا يوميًا، أو حلقة قرآن في المسجد، أو مجلسًا لتعلم التفسير، أو مجموعة صغيرة تتدارس كتابًا موثوقًا، أو معلمًا يصحح التلاوة ويجيب عن الأسئلة. والمهم أن تكون هذه الصحبة قائمة على العلم والأدب والتعاون، لا على المنافسة المرهقة أو المفاخرة بكثرة القراءة. ومن فوائد التعلم المنظم أنه يقي القارئ من الاكتفاء بالانطباعات المتفرقة، ويساعده على بناء فهم متدرج لمعاني القرآن. فقد يقرأ الإنسان آيات متفرقة سنوات طويلة دون أن تتضح له بعض الروابط الموضوعية، بينما يعينه الدرس المنظم على فهم السياق، ومعرفة المصطلحات، والتمييز بين التفسير والتدبر والاستنباط.

ولا يعني ذلك أن كل قارئ ملزم بالالتحاق ببرنامج دراسي رسمي؛ فقد تناسب بعض الناس حلقات المساجد، ويناسب آخرين التعلم الفردي من الكتب الموثوقة، وقد يستفيد بعضهم من الدروس المسجلة أو البرامج التعليمية المنضبطة. والعبرة بمدى موثوقية المصدر، ومناسبته لمستوى المتعلم، وقدرته على الاستمرار. كما ينبغي أن تكون الصحبة وسيلة للتعاون لا للمقارنة المستمرة. فإذا وجد القارئ أن غيره يقرأ مقدارًا أكبر، فلا يلزمه أن يقلده دون مراعاة قدرته وظروفه. وإذا كان أبطأ في التعلم، فلا يجعل ذلك سببًا لترك الطريق. فالمقصد أن يتقدم كل إنسان في حدود استطاعته، وأن ينتفع بالآخرين دون أن يفقد اتزانه أو يتحول العمل التعبدى إلى منافسة شكلية.

ومن آداب الصحبة القرآنية احترام اختلاف القدرات، وعدم التعالي على من يقرأ أقل أو يفهم على مهل، وتصحيح الأخطاء برفق، والرجوع إلى أهل الاختصاص عند الخلاف العلمي. كما ينبغي تجنب تداول التفسيرات غير الموثقة أو نسبة أحاديث وفضائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم دون تحقق.

وقد تكون المراجعة المشتركة وسيلة نافعة للاستمرار؛ فيتفق شخصان مثلاً على قراءة مقدار محدد، ثم يتبادلان ما استفاداه من تفسير موثوق، دون أن يلزم أحدهما الآخر بخواتمه الشخصية أو يحول المجلس إلى مساحة للأحكام على الناس.

إن الصحبة الصالحة لا تقوم مقام المجاهدة الفردية، لكنها تعين عليها، والتعلم المنظم لا يلغي التدبر الشخصي، بل يمنحه أساسًا علميًا أكثر رسوخًا. ومن ثم فإن الجمع بين الورد الفردي والبيئة المعينة والتعلم الموثوق من الوسائل العملية التي تحفظ للقرآن حضوره في حياة الإنسان.

خامسًا: تقويم المسار دون يأس أو مبالغة في محاسبة النفس

المحافظة على صحبة القرآن لا تعني أن الإنسان سيحقق المستوى نفسه من النشاط في كل مرحلة، ولا أن قراءته ستكون دائمًا خالية من التشتت والفتور. فالإنسان تتغير ظروفه وقدرته ومسؤولياته، وقد يمر بفترات من القوة وأخرى من الضعف. ولهذا يحتاج إلى تقويم مساره بانتظام، مع تجنب اليأس من جهة، والمبالغة في محاسبة النفس من جهة أخرى.

ويبدأ التقويم بالنظر إلى الواقع كما هو، لا كما يتمنى الإنسان أن يكون. فيراجع مقدار قراءته، ومدى استمراره، وطبيعة فهمه، وما تحقق من أعمال مرتبطة بما تدبره، ثم يحدد ما يحتاج إلى تعديل. فإذا كان البرنامج مرهقًا خففه، وإذا كان غير منظم اختار وقتًا أوضح، وإذا كان الفهم ضعيفًا خصص وقتًا للتفسير، وإذا كان الانقطاع مرتبطًا بالمشتتات وضع لها حدودًا.

ولا ينبغي أن يخلط القارئ بين التقويم والمحاسبة القاسية؛ فالمقصود معرفة الخلل وإصلاحه، لا توبيخ النفس بصورة مستمرة. وقد يكون من أسباب الانقطاع أن يضع الإنسان لنفسه معيارًا مثاليًا لا يراعي ظروفه، ثم يحكم على تجربته كلها بالفشل إذا لم يحققه. وهذا الأسلوب قد يزيد الشعور بالعجز بدل أن يعين على الإصلاح.

وفي المقابل، لا ينبغي أن تتحول الرفق بالنفس إلى تبرير دائم للتقصير. فالتقويم الصادق يجمع بين الاعتراف بالمشكلة، والبحث عن أسبابها، وتحمل المسؤولية الممكنة، واختيار خطوة عملية للتغيير. وهو يختلف عن جلد الذات الذي يستغرق في اللوم دون خطة واضحة، كما يختلف عن التساهل الذي يرفض الاعتراف بالحاجة إلى الإصلاح.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]. وهذان التوجهان يفتحان باب الرجاء، ويمنعان تحويل الخطأ أو الضعف إلى حكم نهائي على إمكان الإصلاح. ولا يعني الرجاء إهمال العمل، بل يمنح الإنسان الدافع إلى التوبة والمراجعة واستئناف الطريق.

ومن الوسائل النافعة أن يراجع القارئ برنامجه مرة كل أسبوع أو كل مدة تناسب ظروفه، ويسأل نفسه عن مدى واقعيته، وما الذي أعانه على الاستمرار، وما الذي أدى إلى الانقطاع، وما التعديل الذي يحتاج إليه. ويمكن أن يكتفي بتسجيل ملاحظات مختصرة، دون أن يثقل نفسه بجداول معقدة أو يحول العبادة إلى مشروع إداري منفصل عن مقصدها الإيماني.

كما ينبغي أن يلاحظ أن ثمار الصحبة لا تقاس بالكم وحده، ولا بالمشاعر وحدها. فقد تظهر في تحسن الخلق، أو زيادة الصبر، أو ضبط اللسان، أو الرجوع عن خطأ، أو زيادة الإنصاف، أو ثبات الإنسان أمام ابتلاء. وهذه المؤشرات لا تمنح صاحبها حكمًا قطعيًا على منزلته عند الله، لكنها تساعد على معرفة ما إذا كانت قراءته تتصل بحياته العملية.

وإذا وجد القارئ أنه يكرر الأخطاء نفسها، فلا يستنتج أن كل جهده ضاع؛ بل يراجع الأسباب، ويطلب المساعدة عند الحاجة، ويجدد التوبة، ويضع خطة أكثر واقعية. وإذا لاحظ تقدمًا، حمد الله واستمر دون اغترار أو ادعاء بلوغ الكمال. إن تقويم المسار جزء من الصحبة نفسها؛ لأن العلاقة بالقرآن ليست حدثًا عابرًا، بل رحلة مستمرة من التعلم والتذكر والاستجابة. وكلما تعلم الإنسان كيف يراجع نفسه دون قنوط، وكيف يصحح أخطائه دون قسوة، أصبح أقدر على المحافظة على هذه العلاقة في تغيرات الحياة وتقلباتها.

الهوامش

(1) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، حديث أم سلمة رضي الله عنها في وصف قراءة النبي صلى الله عليه وسلم. تختلف أرقام الأحاديث والصفحات باختلاف الطبعات؛ لذا لم يُذكر رقم صفحة غير متحقق منه.

(2) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل؛ ومسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره. ورد الحديث بألفاظ متقاربة في الصحيحين.

(3) المرجعان السابقان، في حديث المداومة على العمل، مع اختلاف مواضع التبويب والترقيم بحسب الطبعات.

المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري.
٣. مسلم بن الحجاج النيسابوري. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المعروف بصحيح مسلم.
٤. الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
٥. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم.
٦. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.
٧. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.
٨. النووي، يحيى بن شرف. التبيان في آداب حملة القرآن.

المنزل السابع: ثمرات الصلوة — أثر القرآن في القلب والحياة

المبحث الأول: الثمار الإيمانية والوجدانية

أولاً: زيادة الصلة بالله

ليست الغاية من صلوة القرآن أن يمر القارئ على آياته مروراً متكرراً فحسب، وإنما أن تتحول هذه الصلوة إلى صلة متجددة بالله تعالى، يستحضر معها معاني العبودية، ويزداد بها معرفة بربه، وثقة بوعده، وافتقار إليه في جميع أحواله. فالقرآن لا يعرف الإنسان بأحكام الدين وحدها، بل يفتح أمامه أبواب المعرفة بالله من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وآياته في الكون والنفس، وأخباره عن الأمم السابقة، وبيانه لسنن الهداية والضلال، والوعد والوعيد.

ومن يتأمل القرآن يجد أن الخطاب الإلهي يردّ القلب إلى ربه في مختلف أحوال الإنسان؛ فيدعوه إلى الإيمان والتوحيد، ويذكره بنعم الله، ويكشف له مظاهر قدرته وحكمته، ويعرفه بسعة رحمته وشدة عقابه، ويبين له أن حياته ليست مستقلة عن رعاية الله وتديره. ومن ثم، فإن تكرار التلاوة مع حضور المعنى يهيئ الإنسان لتجديد معرفته بالله، ويعينه على الانتقال من المعرفة الذهنية المجردة إلى استحضار آثارها في العبادة والسلوك.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

تجمع هذه الآية بين ثلاثة معانٍ متكاملة: التأثير عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند تلاوة الآيات، والتوكل على الله. وهذا الجمع يبين أن أثر القرآن لا ينحصر في المعرفة، ولا يقتصر على الانفعال الوجداني، بل يمتد إلى موقف القلب من ربه، وطريقة اعتماده عليه، واستعداداته للاستجابة لأمره.

وزيادة الصلة بالله من خلال القرآن لا تعني أن الإنسان سيعيش دائماً حالة وجدانية مرتفعة، أو أنه لن يتعرض للتور والضعف؛ فالأحوال الإيمانية تتفاوت، وقد تمر بالقلب فترات من النشاط وأخرى من الضعف. وإنما المعتبر أن تكون صحبته للقرآن سبيلاً متجدداً إلى معرفة الله، وتجديد العهد معه، والرجوع إليه عند الغفلة، والاستعانة به عند العجز، والتوبة إليه عند الخطأ.

ومن هنا، ينبغي ألا يقيس القارئ نجاح صحبته للقرآن بمقدار ما يشعر به في أثناء التلاوة وحدها، بل ينظر أيضاً في أثرها في علاقته بالله بعد الفراغ منها: هل ازداد صدقاً في دعائه؟ وهل صار أكثر حرصاً على أداء الفرائض؟ وهل أصبح أسرع رجوعاً

إلى الله عند الوقوع في الذنب؟ وهل ازدادت ثقته بوعده الله مع أخذه بالأسباب المشروعة؟

إن هذه الأسئلة تكشف عن جانب مهم من ثمرات الصحبة؛ فالمقصود ليس مجرد الشعور بالقرب، وإنما بناء علاقة إيمانية تظهر آثارها في العبادة والاختيار والموقف من الحياة.

ثانيًا: الخشوع والسكينة

الخشوع من المعاني المركزية في الانتفاع بالقرآن؛ لأنه يعبر عن حضور القلب أمام كلام الله، واستشعار عظمة الخطاب، والتأثر بما يتضمنه من أمر ونهي ووعيد ووعد. وليس الخشوع مجرد انفعال عابر، بل هو حال إيمانية يظهر أثرها في تواضع الإنسان للحق، واستعداده لقبوله، وانكسار نفسه عن الاستعلاء والمكابرة. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

تلقت الآية النظر إلى الصلة بين ذكر الله وخشوع القلب، كما تتضمن تنبيهًا إلى أن طول العهد بالتلاوة أو سبق الإيمان لا يغنيان عن تجديد الاستجابة. فقد يقرأ الإنسان القرآن زمناً طويلاً، ثم يحتاج إلى أن يسأل نفسه عن مقدار ما أحدثته القراءة في قلبه، وعن مدى استعداده لقبول الحق والعمل به.

والخشوع بهذا المعنى لا يقاس بالبكاء وحده؛ فقد يخشع الإنسان دون أن تدمع عيناه، وقد يبكي تأثراً بآية ثم لا يظهر أثر ذلك في سلوكه. فالعبرة ليست بإلغاء المشاعر أو التقليل من شأنها، وإنما بوضعها في موضعها الصحيح، باعتبارها إحدى صور التفاعل مع القرآن، لا معياراً منفرداً للحكم على صدق الانتفاع به.

أما السكينة، فهي من ثمرات الإيمان وذكر الله، وقد قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وتدل الآية على أن ذكر الله من أعظم أسباب طمأنينة القلب. والقرآن من أجل أنواع الذكر، لما يشتمل عليه من تعريف بالله، وتذكير بوعده، وبيان لحكمته، وتوجيه للإنسان إلى ما يصلح قلبه وعمله.

غير أن السكينة لا تعني زوال الحزن أو الخوف أو القلق من حياة المؤمن؛ فقد يجتمع الإيمان مع الحزن، وقد يبتلى الإنسان بضيق شديد مع بقاء ثقته بالله. وإنما تتمثل السكينة في أن يجد القلب مرجعاً يرجع إليه، ومعنى يستند إليه، وهداية تضبط استجابته للابتلاء، فلا يستسلم لليأس، ولا يجعل اضطراب مشاعره دليلاً على انقطاع صلته بالله.

وتتجلى ثمرة القرآن هنا في إعادة ترتيب نظرة الإنسان إلى ما يواجهه؛ إذ يتعلم من آيات القدر والتوكل والصبر أن الأحداث لا تُفهم بمعزل عن حكمة الله، وأن ما يعجز الإنسان عن إدراك حكمته لا يسوغ له إساءة الظن بربه، كما يتعلم أن الأخذ بالأسباب لا يتعارض مع الاعتماد على الله.

ومن المهم كذلك ألا تتحول هذه المعاني إلى خطاب يحمل المبتلى مسؤولية كل اضطراب نفسي يشعر به، أو يوهمه بأن استمرار القلق دليل على ضعف إيمانه. فالناس متفاوتون في طبائعهم وظروفهم، وقد يحتاج بعضهم، إلى جانب العبادة والذكر، إلى الاستعانة بأهل الاختصاص فيما يعرض لهم من مشكلات نفسية. ولا تعارض بين الانتفاع بالقرآن والأخذ بالأسباب المناسبة للعلاج.

وعليه، فإن الخشوع والسكينة ثمرتان تتصلان بصحبة القرآن، لكنهما لا تختزلانها؛ فربما ظهر أثر الصحبة في ثبات الإنسان على الحق، أو حسن تصرفه عند الغضب، أو صبره عند البلاء، حتى لو لم يصاحب ذلك شعور وجداني قوي في كل مرة يقرأ فيها.

ثالثاً: التوازن بين الرجاء والخشية

من أبرز ثمرات الصحبة الصحيحة للقرآن أن يتعلم الإنسان التوازن بين الرجاء والخشية، فلا يغلب عليه الأمن من مكر الله، ولا يستولي عليه اليأس من رحمته. فالقرآن يعرض آيات الوعد والرحمة والمغفرة، كما يعرض آيات الوعيد والحساب والعقاب، ولا يصح أن تُقرأ إحدى المجموعتين بمعزل عن الأخرى.

فالرجاء يحمل الإنسان على حسن الظن بالله، والإقبال على الطاعة، وتجديد التوبة، وعدم الاستسلام لليأس مهما عظمت زلاته. أما الخشية فتحول دون الاغترار بالعمل، وتدفع إلى اجتناب المعصية، ومراقبة النفس، والاستعداد للقاء الله.

وقد جمع القرآن بين هذين المعنيين في وصف عباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

فالخوف والطمع هنا ليسا حالتين متعارضتين، بل عنصران متكاملان في بناء العبودية. والخوف المحمود هو الذي يردع عن المعصية ويحمل على التوبة، لا الذي يقود إلى القنوط. والرجاء المحمود هو الذي يبعث على العمل وحسن الظن بالله، لا الذي يتحول إلى تبرير للذنوب أو اتكال على المغفرة مع الإصرار على المخالفة.

ويظهر أثر هذا التوازن في مواقف الحياة اليومية؛ فمن استحضر آيات الرحمة لم يجعل ذنوبه حاجزًا دائمًا بينه وبين التوبة، ومن استحضر آيات الحساب لم يتعامل مع المغفرة بوصفها إذنًا بالاستمرار في الخطأ. وإذا رأى من نفسه تقصيرًا، دفعه الرجاء إلى العودة، ودفعته الخشية إلى تصحيح المسار.

ومن هنا، فإن صحبة القرآن تربي الإنسان على رؤية متكاملة لنفسه: فهو محتاج إلى رحمة الله، ومسؤول عن اختياراته، مأمور بالعمل، ومفتقر إلى المغفرة. فلا يغتر بطاعته، ولا ييأس بسبب معصيته، ولا يجعل الحديث عن الرحمة سببًا لإهمال التكليف، ولا يجعل الخوف من العقاب سببًا لترك الرجوع إلى الله.

وهذه التربية المتوازنة من أهم ما يحمي التدين من طرفين متقابلين: الغرور الذي يضعف المحاسبة، واليأس الذي يضعف التوبة والعمل.

رابعًا: الصبر والشكر

يواجه الإنسان في حياته حالتين متكررتين: حالًا يوافق مراده، فيشعر بالراحة والسرور، وحالًا يخالف مراده، فيشعر بالألم أو الخوف أو النقص. ويأتي القرآن ليهذب موقفه من الحالتين، فيعلمه الصبر عند البلاء، والشكر عند النعمة، ويحرره من النظر إلى الحياة من خلال لحظاتها العاجلة وحدها.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

لا يقتضي الصبر أن يفقد الإنسان إحساسه بالألم، أو أن يمتنع عن الحزن، أو أن يرضى بالظلم دون السعي إلى رفعه. وإنما يعني أن يضبط استجابته للبلاء بما يوافق الإيمان، فيحفظ لسانه وجوارحه من المحرمات، ويستمر في أداء ما يجب عليه بحسب استطاعته، ويطلب العون من الله، ويسلك الأسباب المشروعة لتخفيف الضرر.

ويعلم القرآن كذلك أن النعمة ليست مجرد متاع يستمتع به الإنسان، بل هي أمانة تستوجب الشكر. قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

والشكر أوسع من التلفظ بالحمد؛ إذ يتضمن الاعتراف بالنعمة، ونسبتها إلى فضل الله، والثناء عليه بها، واستعمالها فيما يرضيه. فمن شكر نعمة العلم أن يعمل به ويؤديه بأمانة، ومن شكر نعمة المال أن يؤدي حقوقه ويستعمله في الخير، ومن شكر نعمة الصحة أن يحفظها ويوظفها فيما ينفعه وينفع غيره.

وعندما تصحب النفس القرآن، فإنها تتعلم أن الصبر والشكر ليسا مجرد استجابتين عاطفيتين، بل منهجان في التعامل مع الحياة. فالصبر يمنع البلاء من أن

يتحول إلى مبرر لترك الواجبات أو الاعتداء على الآخرين، والشكر يمنع النعمة من أن تتحول إلى سبب للغرور أو البطر أو الغفلة.

ومن آثار هذه التربية أن يصبح الإنسان أقل اندفاعًا عند تغير الأحوال، وأكثر قدرة على استحضار مسؤوليته في الرخاء والشدة. فإذا أصابته نعمة، لم ينس المنعم، وإذا نزل به البلاء، لم ينس أن حياته لله وأن مرجعه إليه.

خامسًا: تجدد التوبة والإنابة

من علامات الانتفاع بالقرآن أن تتجدد في النفس الرغبة في الرجوع إلى الله، وأن يصبح الاعتراف بالخطأ بداية للإصلاح لا نهاية للطريق. فالقرآن يكشف للإنسان مواطن تقصيره، ويذكره بسعة رحمة الله، ويبين له خطورة الإصرار على المعصية، ويعلمه أن التوبة ليست مجرد شعور بالندم، بل انتقال من المخالفة إلى الاستقامة بحسب القدرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

تجمع الآية بين الاعتراف بالإسراف والنهي عن القنوط، وبذلك تضع الإنسان أمام حقيقة مزدوجة: أن الخطأ لا ينبغي تهوينه، وأن الرحمة لا ينبغي اليأس منها. فالذي يجعل الذنب أمرًا هينًا يضعف دافعه إلى التغيير، والذي يراه أكبر من رحمة الله يضعف دافعه إلى التوبة.

وتتجدد التوبة في صحبة القرآن كلما كشفت القراءة للإنسان خللاً في علاقته بربه أو بنفسه أو بالناس. فقد يتبين له أنه يتساهل في حق، أو يكرر سلوكًا مؤذيًا، أو يظلم أحدًا بلسانه، أو يغفل عن واجب. وعندئذ لا يكون الانتفاع بمجرد الشعور بالتأثر، بل باتخاذ موقف عملي من الخطأ.

ويقتضي صدق التوبة الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم العودة إليه. وإذا تعلق الذنب بحقوق العباد، وجب النظر في رد الحقوق أو التحلل منها على الوجه المشروع. أما إذا عاد الإنسان إلى الذنب بعد توبة صادقة، فإن ذلك لا يعني أن التوبة السابقة كانت بالضرورة كاذبة، بل عليه أن يجدد توبته، ويبحث عن أسباب الانتكاس، ويعمل على معالجتها.

وهنا تتضح الصلة بين التوبة وصحبة القرآن: فالقرآن لا يقدم للإنسان صورة مثالية لا يخطئ صاحبها، وإنما يهديه إلى الطريق الذي يسلكه إذا أخطأ، ويعلمه ألا يجعل زلته هوية دائمة لنفسه، وألا يتخذ ضعفًا سابقًا ذريعة إلى استمرار الضعف.

ومن ثم، فإن من ثمرات الصلابة الإيمانية أن يصبح الرجوع إلى الله عادة متجددة، وأن تتناقص المسافة الزمنية بين وقوع الخطأ والانتباه إليه وتصحيحه، وأن تتطور التوبة من الندم المجرد إلى معالجة الأسباب وإصلاح الآثار.

المبحث الثاني: الثمار الفكرية والسلوكية

أولاً: زيادة الوعي بالهداية القرآنية

لا تقتصر الهداية القرآنية على بيان الأحكام الجزئية، بل تقدم للإنسان إطاراً لفهم نفسه والعالم والحياة، وتحدد له الغايات الكبرى التي ينبغي أن تنتظم في ضوئها اختياراته. فالقرآن يبين حقيقة العبودية، ومعنى المسؤولية، وقيمة العدل، وخطورة الظلم، وأثر النية والعمل، وعلاقة الدنيا بالآخرة، ويعرض نماذج بشرية تكشف عواقب الاستقامة والانحراف.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والهداية إلى التي هي أقوم تعني أن القرآن يرشد إلى ما هو أعدل وأصلح في مجال الهداية التي جاء بها، ويقيم ميزاناً يراجع الإنسان من خلاله تصورات ومواقفه. غير أن الانتفاع بهذه الهداية لا يتحقق بمجرد ترديد الآيات، بل يحتاج إلى فهم معانيها، ومعرفة سياقاتها، ورد الجزئيات إلى أصولها، والتمييز بين دلالة النص وما يضيفه القارئ من تأملات شخصية.

ومن مظاهر الوعي بالهداية القرآنية أن يتعلم الإنسان التمييز بين ما يرغبه وما ينبغي له فعله، وبين ما يحقق مصلحة عاجلة وما يترتب عليه أثر أبعد، وبين ما يرضي النفس في لحظتها وما يصلحها على المدى الطويل.

فقد يرغب الإنسان في الانتقام ممن أساء إليه، لكنه يتعلم من القرآن فضل العفو وحدوده، ويفرق بين العفو الذي يصلح والعفو الذي يفضي إلى استمرار الاعتداء. وقد يرغب في تحصيل منفعة عاجلة، لكنه يراجع الوسيلة التي يصل بها إليها، فيزنها بميزان الحلال والحرام والعدل والأمانة.

ويقتضي هذا الوعي ألا تتحول الآيات إلى عبارات تُستخدم لتأييد المواقف المسبقة؛ إذ لا يصح أن ينتقي الإنسان من النصوص ما يوافق هواه، ويهمل ما يضبط رغبته أو يكشف خطأه. بل إن من دلائل الانتفاع بالقرآن أن يسمح الإنسان له بمراجعة أفكاره ومواقفه، لا أن يجعل منه مجرد شاهد لما قرره سلفاً.

ومن هنا، تثمر الصحبة القرآنية وعياً أعمق بالهداية حين يتحول القرآن من مادة مألوقة في الذاكرة إلى مرجع حاضر في التفكير والتقييم، مع الالتزام بضوابط التفسير والاستدلال، وعدم تحميل النصوص ما لا تحتمله.

ثانياً: حسن التمييز بين الخيارات

يتعرض الإنسان يومياً لخيارات متعددة، بعضها واضح الحكم، وبعضها يحتاج إلى نظر وموازنة، وبعضها تتداخل فيه المصالح والمفاسد. ويعين القرآن على بناء

القدرة على التمييز من خلال ترسيخ معايير عامة، مثل العدل، والصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، وصيانة الحقوق، واجتناب الظلم والعدوان.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

تقدم هذه الآية أصولاً أخلاقية واسعة يمكن استحضارها عند النظر في المواقف المختلفة. فالعدل يمنع الإنسان من تغليب مصلحته الخاصة على حقوق الآخرين، والإحسان يفتح أمامه مجالاً لفعل الخير الذي يتجاوز الحد الأدنى من الواجب، والنهي عن البغي يحذره من استعمال القوة أو المكانة أو المعرفة للإضرار بالناس.

ولا يعني ذلك أن كل قرار يمكن حسمه باستحضار آية واحدة، أو أن التدبر الفردي يغني عن السؤال والاستشارة والرجوع إلى أهل العلم والاختصاص. فقد تتطلب بعض القرارات معرفة فقهية، أو خبرة مهنية، أو معلومات واقعية لا تتوافر للقارئ. وإنما تتمثل فائدة الصحبة القرآنية في بناء ميزان أخلاقي وإيماني يوجه عملية الاختيار، ويمنع انفصالها عن المسؤولية أمام الله.

ويمكن تطبيق هذا المعنى على القرارات الأسرية والمهنية والمالية؛ إذ يتعلم الإنسان أن يسأل قبل اتخاذ القرار: هل يترتب عليه ظلم لأحد؟ وهل يتضمن إخلالاً بعهد أو أمانة؟ وهل تحكمه مصلحة مشروعة أم هوى عابر؟ وهل توجد وسيلة أخرى تحقق المقصود مع ضرر أقل؟

وهذه الأسئلة ليست بديلاً عن الأحكام الشرعية التفصيلية، لكنها وسائل عملية لاستحضار مقاصد الهداية في المواقف اليومية.

ومن ثم، فإن حسن التمييز ثمرة من ثمرات الصحبة عندما يصبح الإنسان أكثر قدرة على إخضاع اختياراته للمراجعة، وأقل استسلاماً للاندفاع، وأكثر استعداداً للاعتراف بأن بعض ما يرغبه قد لا يكون صواباً.

ثالثاً: استحضار المسؤولية الأخلاقية

يربط القرآن بين الإيمان والمسؤولية، ويقرر أن الإنسان مسؤول عن عمله، وأن أقواله وأفعاله ليست أموراً منفصلة عن حسابه أمام الله.

قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

إن استحضار المسؤولية يغير نظرة الإنسان إلى أفعاله؛ فلا يعود السؤال مقتصرًا على ما يستطيع فعله، أو ما يحقق له منفعة، بل يمتد إلى ما ينبغي له فعله، وما يترتب على سلوكه من آثار، وما يجب عليه تجاه الآخرين.

ويظهر هذا المعنى في التعامل مع الضعفاء، وفي أداء الأمانات، وفي الوفاء بالوعد، وفي تجنب استغلال حاجة الآخرين، وفي الالتزام بالعدل حتى عند الخصومة. فالقرآن لا يربي الإنسان على صلاح علاقته بالله بمعزل عن صلاح معاملته للخلق، بل يجعل المسؤولية الأخلاقية جزءًا من حقيقة الاستقامة.

ومن هنا، فإن من ثمرات صحبة القرآن أن ينتقل الإنسان من تبرير سلوكه إلى مراجعته، ومن تعليق أخطائه على الظروف وحدها إلى الاعتراف بنصيبه من المسؤولية، ومن الاقتصار على المطالبة بحقوقه إلى إدراك ما عليه من واجبات. ولا تعني المسؤولية إغفال أثر الظروف والإكراه والقدرة في الحكم على الأفعال؛ فالقرآن يقرر العدل، ولا يسوي بين المختلفين في القدرة والاختيار. وإنما المقصود أن يكون الإنسان صادقًا في فحص ما يقع ضمن مسؤوليته، وألا يجعل الاعتبارات الخارجية وسيلة دائمة للتنصل من واجباته.

رابعًا: ضبط السلوك في ضوء الوحي

لا يظهر صدق الانتفاع بالقرآن في كثرة المعلومات المحفوظة وحدها، وإنما يظهر أيضًا في قدرة الإنسان على ضبط سلوكه وفق ما تعلمه من هدايته. فالمعرفة التي لا تنعكس على الاختيارات تبقى ناقصة الأثر، وإن كانت صحيحة في ذاتها. قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

تكشف الآيتان عن جانبين مهمين في ضبط السلوك: حسن التعامل مع الناس، والالتزام بالعدل حتى عند وجود الكراهية والخصومة. وهذا يعني أن الأخلاق القرآنية لا تختبر في الظروف المريحة وحدها، بل تتأكد قيمتها حين تتعارض مع رغبة النفس أو ضغط الموقف.

فقد يسهل على الإنسان أن يكون هادئًا مع من يحبه، لكن الامتحان الحقيقي يظهر حين يختلف مع شخص أو يشعر بأنه تعرض للظلم. وقد يسهل عليه الصدق عندما لا يترتب عليه ضرر، لكنه يحتاج إلى مجاهدة أكبر حين يكون الصدق مكلفًا. وهنا يتحول القرآن إلى معيار يراجع به الإنسان ردود أفعاله، بدل أن يتركها للغضب أو المصلحة العاجلة.

ويقتضي ضبط السلوك أن يترجم القارئ المعاني القرآنية إلى التزامات قابلة للملاحظة؛ فيجعل من حفظ اللسان تدريبًا يوميًا، ومن الوفاء بالعهد قاعدة في معاملاته، ومن العدل معيارًا عند الخصومة، ومن الرحمة أصلًا في تعامله مع من هم أضعف منه.

ولا يتحقق هذا التحول دفعة واحدة بالضرورة؛ فبعض الصفات يحتاج إلى تدريب ومجاهدة، وبعض العادات قد تكون راسخة. لكن الاستمرار في مراجعة النفس والعودة إلى المعاني القرآنية يساعدان على بناء استجابات أكثر اتزاناً بمرور الوقت.

خامساً: تحويل المعاني إلى ممارسات ثابتة

إن الفارق بين التأثير المؤقت والتغيير المستقر يظهر في قدرة الإنسان على تحويل المعنى إلى ممارسة تتكرر في حياته. فقد يقرأ آيات الصبر فيتأثر بها، لكن ثمرة القراءة الأعمق تظهر حين يضبط انفعاله في موقف صعب. وقد يتأثر بآيات الصدقة، لكن أثرها العملي يظهر حين يبذل من ماله على وجه مشروع. وقد يتدبر آيات العفو، ثم يجد نفسه أمام إساءة حقيقية تحتاج إلى قرار واعٍ.

ولذلك، فإن الانتفاع بالقرآن يقتضي الانتقال من السؤال عن معنى الآية إلى السؤال عن مقتضى هذا المعنى في الحياة، مع مراعاة أن التطبيق يختلف باختلاف الأشخاص والظروف، وأنه لا يجوز أن يُستنبط من الآية حكم خاص لا تدل عليه. ويمكن اعتماد خطوات عملية تعين على هذا الانتقال:

١. **تحديد المعنى:** ما الهداية الأساسية التي تدل عليها الآية في سياقها؟
٢. **تحديد موضع التطبيق:** ما الموقف الواقعي الذي يمكن أن يظهر فيه أثر هذا المعنى؟
٣. **اختيار سلوك محدد:** ما الفعل الذي أستطيع القيام به، أو الخطأ الذي ينبغي أن أتوقف عنه؟
٤. **تحديد وقت للمراجعة:** متى أراجع مدى التزامي بما عازمت عليه؟
٥. **تصحيح المسار:** إذا لم ألتزم، فما السبب؟ وما التعديل الذي يجعل التطبيق ممكناً؟

ولنأخذ مثلاً على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

يمكن أن يبدأ القارئ بفهم الآية ضمن سياق صفات المتقين، ثم يتأمل معنى كظم الغيظ والعفو والإحسان، ويميز بين ضبط الغضب وبين التنازل عن الحقوق التي ينبغي حفظها. وبعد ذلك يحدد موقفاً يتكرر فيه انفعاله، كالمقاطعة أثناء النقاش أو الرد بعبارات جارحة، ويقرر أن يتوقف قبل الرد، وأن يتجنب الإهانة، وأن يعالج الخلاف بما يحقق العدل ويقلل الضرر.

وفي نهاية الأسبوع، يراجع ما حدث: هل استطاع ضبط نفسه؟ وما الظروف التي صعبت ذلك؟ وهل يحتاج إلى تعلم مهارات أفضل في إدارة الحوار؟ وبهذه

الطريقة، يتحول التدبر إلى تدريب أخلاقي، من غير ادعاء أن الآية تقدم وحدها جميع التفاصيل اللازمة لمعالجة كل نزاع. ومن المهم ألا يربط الإنسان نجاح التطبيق بالكمال الفوري؛ فقد يتقدم في جانب ويتعثر في آخر. وإنما المطلوب هو الصدق في المحاولة، والاستمرار في التعلم، والقدرة على الاعتراف بالخلل وتصحيحه. وهكذا تصبح صحبة القرآن منهجًا لبناء العادات، لا مجرد مناسبة للتأثر العابر.

المبحث الثالث: الثمار الاجتماعية والأخلاقية

أولاً: التخلق بأخلاق القرآن

الأخلاق من أبرز المجالات التي يظهر فيها أثر صحبة القرآن؛ لأن القرآن لا يوجه الإنسان إلى تصحيح اعتقاده وعبادته فحسب، بل يربيه على أنماط من السلوك تقوم على الصدق والعدل والرحمة والعفة والوفاء والإحسان. وقد أثنى الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويكشف هذا الثناء عن مكانة الأخلاق في الرسالة النبوية، كما يوجه إلى أن الانتفاع بالوحي ينبغي أن يظهر في شخصية الإنسان وطريقة تعامله. وقد وصفت عائشة رضي الله عنها خلق النبي صلى الله عليه وسلم بقولها: «كان خُلُقُه القرآن»؛ وهو وصف مشهور في صحيح مسلم، يفهم منه أن هديه العملي كان موافقاً لما جاء به القرآن من أوامر وآداب وقيم.

ومن ثم، فإن التخلق بأخلاق القرآن لا يعني مجرد ترديد النصوص التي تحت على الفضائل، بل يعني مجاهدة النفس حتى تتشكل اختياراتها واستجاباتها في ضوء تلك الفضائل.

فالصادق لا يكتفي بمعرفة فضل الصدق، بل يجاهد نفسه ليلتزمه عند اختلاف المصالح. والأمين لا يكتفي بتعظيم الأمانة في الخطاب، بل يحفظ ما أوّمت عليه ولو غاب الرقيب. والمتواضع لا يكتفي بإنكار الكبر نظرياً، بل يقبل الحق ممن جاء به، ولا يستنكف عن الاعتراف بخطئه.

ولا يلزم من التخلق بأخلاق القرآن أن يبلغ الإنسان الكمال في جميع الصفات، وإنما أن يجعل الفضائل معياراً يراجع نفسه في ضوءه، ويعمل على تنميتها، ويتوب من أضرارها.

كما أن الأخلاق القرآنية لا تنفصل عن العدل والحقوق؛ فليس كل ما يسمى تسامحاً فضيلة في جميع الأحوال، ولا كل تنازل عن الحق إحساناً، ولا كل صمت عن الخطأ حكمة. بل ينبغي أن تراعى في التطبيق مقاصد الشريعة، وحقوق الأطراف، ومآلات الأفعال.

ومن هنا، فإن الثمرة الأخلاقية للصحبة تظهر حين يجتمع في الإنسان حسن القصد وصحة العمل، ويصبح أكثر استعداداً لتصحيح نفسه بدل الاكتفاء بإظهار صلاحها أمام الآخرين.

ثانياً: حفظ الحقوق

يولي القرآن عناية واضحة بحفظ الحقوق، سواء أكانت حقوقاً مالية أم أسرية أم اجتماعية، ويجعل الوفاء بها من مقتضيات الإيمان والعدل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وتجمع الآية بين أداء الأمانة والعدل في الحكم، بما يدل على أن صلاح العلاقة بالله لا ينفصل عن أداء ما للناس من حقوق. فالأمانة لا تقتصر على المال المودع، بل تشمل المسؤوليات التي يتولاها الإنسان، والمعلومات التي يؤتمن عليها، والواجبات التي يلتزم بأدائها.

وتظهر هذه الهداية في صور متعددة، منها الوفاء بالعقود، وإرجاع الأموال إلى أصحابها، وعدم استغلال السلطة، واحترام حقوق الأسرة، وأداء العمل بإتقان، والالتزام بالعدل في الشهادة والحكم.

ومن الأخطاء التي ينبغي أن تعالجها صحبة القرآن أن يتصور الإنسان أن كثرة عبادته تعوض ما يضيعه من حقوق الآخرين. فحقوق العباد لا تسقط بمجرد الشعور بالتدين، ولا يكفي الندم الباطني إذا كان بالإمكان رد الحق إلى صاحبه أو إصلاح الضرر الواقع عليه.

ويقتضي ذلك أن يسأل القارئ نفسه عند تدبر آيات الأمانة والعدل: هل توجد حقوق متأخرة في ذمتي؟ وهل أفني بالتزاماتي في الأسرة والعمل؟ وهل أستخدم معرفتي أو موقعي لتحقيق منفعة على حساب الآخرين؟ وهل أنصف من أخالفه كما أنصف من أوافقته؟

إن هذه المراجعة تجعل القرآن حاضرًا في تفاصيل الحياة، وتمنع اختزال التدين في الشعائر مع إهمال المعاملات.

ثالثًا: الرحمة والعدل

قد يظن بعض الناس أن الرحمة والعدل معنيان متقابلان، بحيث يستلزم أحدهما التنازل عن الآخر. غير أن الهداية القرآنية تجمع بينهما، وتوجه الإنسان إلى استعمال كل منهما في موضعه، بما يمنع القسوة والظلم من جهة، والتساهل الذي يفضي إلى ضياع الحقوق من جهة أخرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال سبحانه في وصف رسالة النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فالعدل يضع الحقوق في مواضعها، ويمنع الاعتداء، ويضبط العلاقات بمعايير لا تتغير تبعاً للأهواء. أما الرحمة فتدفع إلى مراعاة الضعف الإنساني، والإحسان في المعاملة، والنظر في أحوال الناس، وعدم تحويل القدرة على إنفاذ الحق إلى وسيلة للإذلال أو الانتقام.

وتظهر الحاجة إلى الجمع بينهما في التربية الأسرية، وإدارة الخلافات، والتعامل مع المخطئين، وممارسة المسؤوليات العامة. فقد يكون من العدل أن يطالب الإنسان بحقه، لكن الرحمة توجهه إلى المطالبة به من غير إهانة أو تعدٍّ. وقد يقتضي الإصلاح وضع حدود لسلوك ضار، لكن ذلك لا يسوغ التشفي أو التشهير أو انتهاك ما لا يجيز الشرع انتهاكه.

ومن المهم التنبيه إلى أن الرحمة لا تعني تعطيل الأحكام الشرعية، وأن العدل لا يبرر القسوة أو تجاوز الحدود. بل إن فهم القرآن في مجموعته يساعد على منع استخدام قيمة واحدة لإلغاء بقية القيم.

وعندما يتدبر القارئ الآيات التي تجمع بين العدل والإحسان، فإنه يتعلم أن صلاح التعامل لا يقتصر على تجنب الظلم، بل يتجاوز ذلك إلى بذل الخير حيث يكون مشروعاً نافعاً. كما يتعلم أن الإحسان لا يقتضي إقرار المعتدي على اعتدائه، وأن الرحمة الحقيقية قد تتطلب منع الضرر وإصلاح أسبابه.

رابعاً: حسن المعاملة

حسن المعاملة ميدان يومي تظهر فيه حقيقة الأخلاق التي يتعلمها الإنسان من القرآن. فالمبادئ العامة لا تصبح ذات أثر اجتماعي ما لم تنعكس على طريقة الكلام، والوفاء بالوعد، واحترام المخالف، وضبط الغضب، والاعتراف بالخطأ، وحفظ كرامة الآخرين.

قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال سبحانه: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وتوجه هذه المعاني إلى أن حسن المعاملة ليس زينة إضافية في شخصية المؤمن، بل جزء من التزامه الأخلاقي. فاللسان الذي يقرأ القرآن ينبغي أن يجاهد صاحبه نفسه حتى لا يتحول إلى أداة للسب أو السخرية أو الغيبة. واليد التي تمتد إلى المصحف ينبغي أن تمتنع عن الظلم والعدوان. والمعرفة التي يكتسبها الإنسان من الوحي ينبغي أن تزيده تواضعاً ورحمة، لا استعلاءً على الناس.

ويبدأ حسن المعاملة من المواقف الصغيرة التي قد لا ينتبه إليها الإنسان: طريقة مخاطبة أفراد أسرته، وأسلوبه في الاختلاف، ووفائه بمواعيده، واستعداده للاعتذار، واحترامه لمن لا يستطيع أن يحقق له منفعة.

ولا تعني المعاملة الحسنة أن يوافق الإنسان الآخرين في كل شيء، أو أن يتخلى عن حقه في الاعتراض والنصيحة، بل أن يمارس ذلك بقدر من الإنصاف والأدب، بعيداً عن الإهانة والتعالي.

ومن ثمرات الصحبة القرآنية أن يتسع مجال المراجعة ليشمل الطريقة التي يتعامل بها الإنسان مع أقرب الناس إليه؛ لأن حسن المعاملة مع الغرباء في المواقف العابرة لا يكفي إذا كانت الأسرة تتحمل جانباً كبيراً من سوء الخلق.

ولذلك، يمكن أن يجعل القارئ من صحبته اليومية للقرآن مناسبة لمراجعة موقف واحد على الأقل من مواقفه الاجتماعية: هل أنصف فيه؟ هل حفظ لسانه؟ هل أدى ما عليه؟ هل اعتذر عمن أخطأ في حقه؟ وهل استطاع أن يختلف دون أن يظلم؟

إن تكرار هذه المراجعة يربط القراءة بحياة الإنسان الواقعية، ويمنع أن تبقى الأخلاق موضوعاً للتأمل النظري وحده.

خامساً: أثر السلوك القرآني في الأسرة والمجتمع

لا تتوقف ثمرات الأخلاق القرآنية عند الفرد، بل تمتد إلى محيطه الأسري والاجتماعي. فالإنسان الذي يتعلم ضبط الغضب، وحفظ الحقوق، والوفاء بالعهود، والرحمة بالضعفاء، والإحسان إلى الناس، يسهم في بناء بيئة أكثر أمناً وثقة واستقراراً، متى ظهرت هذه المعاني في سلوكه الفعلي.

وقد جعل القرآن العلاقة الزوجية قائمة على معانٍ من السكن والمودة والرحمة، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وتدل الآية على أن العلاقة الأسرية ليست مجرد رابطة شكلية، بل مجال لتحقيق السكن والمودة والرحمة. وتحتاج هذه المعاني إلى ممارسات متكررة، مثل حسن الإصغاء، واحترام الحقوق، والتعاون على المسؤوليات، وتجنب الإيذاء اللفظي، والحرص على الإصلاح عند وقوع الخلاف.

وفي المجتمع الأوسع، تسهم الأمانة والعدل والصدق في بناء الثقة بين الناس، بينما يؤدي الغش والظلم وإخلاف الوعود إلى إضعافها. ومن هنا، فإن أثر الصحبة

القرآنية لا يقاس بما يكتسبه الفرد من معارف فحسب، بل بما يضيفه سلوكه إلى البيئة التي يعيش فيها.

ومع ذلك، ينبغي التمييز بين الأثر التربوي المتوقع والنتيجة المضمونة؛ فقراءة القرآن لا تجعل كل فرد ملتزمًا بالأخلاق تلقائيًا، ولا تكفي وحدها لإزالة جميع أسباب النزاع الاجتماعي. إذ يتوقف الأثر على الفهم الصحيح، والصدق في التطبيق، والظروف المحيطة، ووجود مؤسسات وعلاقات تساعد على صيانة الحقوق وتحقيق العدل.

ولهذا، فإن تعزيز الأثر الاجتماعي للقرآن يحتاج إلى الجمع بين التعليم والقُدوة والممارسة. فالأسرة التي تريد تنشئة أبنائها على القرآن لا يكفيها أن تأمرهم بالقراءة، بل ينبغي أن تقدم لهم نموذجًا عمليًا في الصدق والرحمة والإنصاف. والمجلس العلمي الذي يدعو إلى الأخلاق ينبغي أن تظهر آثار هذه الدعوة في طريقة الحوار واحترام المخالف وصيانة كرامة المتعلمين.

وبذلك تصبح صحبة القرآن عاملاً في إصلاح العلاقات حين تنتقل معانيه من صفحات المصحف إلى أساليب التعامل، ومن المواعظ العامة إلى الالتزامات اليومية، ومن صلاح الفرد إلى الإسهام في صلاح محيطه.

المبحث الرابع: صحبة القرآن والاستعداد للآخرة أولاً: فضل القرآن والعمل به

وردت نصوص كثيرة في فضل القرآن وتعلمه وتعليمه وتلاوته والعمل به. غير أن فهم هذا الفضل ينبغي أن يجمع بين النصوص التي تحث على القراءة والنصوص التي تبين مسؤولية الاستجابة، حتى لا تنفصل الوسيلة عن غايتها، أو تتحول فضائل التلاوة إلى تصور بأن مجرد كثرة القراءة يغني عن بقية الواجبات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»؛ رواه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه. ويبين الحديث منزلة تعلم القرآن وتعليمه، وهما عملان يتجاوز أثرهما الفرد إلى الآخرين. فالتعلم يقتضي بذل الجهد في القراءة والفهم والتلقي الصحيح، والتعليم يقتضي نقل ما تعلمه الإنسان إلى غيره بأمانة، ومراعاة قدرات المتعلمين، والالتزام بما يصح من العلم.

ولا يقتصر تعلم القرآن على ضبط ألفاظه، مع أن ذلك أصل مهم في التلاوة، بل يشمل فهم معانيه في حدود ما يتيسر للقارئ، والرجوع إلى أهل العلم فيما يحتاج إلى تفسير أو استنباط، ثم العمل بما تبين له من الهداية. ويؤكد القرآن أن الغاية من إنزاله التدبر والتذكر، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وتربط الآية بين إنزال الكتاب والتدبر والتذكر، بما يدل على أن التفاعل مع القرآن لا يقف عند حدود التلقي اللفظي، وإنما يتجه إلى إدراك الهداية والاستجابة لها. ومع ذلك، لا يصح التقليل من شأن التلاوة الصحيحة، أو جعل القارئ الذي لا يحسن التفسير كأنه لا ينتفع بالقرآن؛ فلكل من القراءة والتعلم والتدبر والعمل منزلته، وينبغي أن يتقدم الإنسان في هذه المجالات بحسب قدرته، دون أن يجعل قصوره في جانب ذريعة لترك ما يستطيع القيام به في الجوانب الأخرى. ومن هنا، فإن فضل القرآن يقتضي تعظيمه تلاوةً وتعلماً وتعليماً وعملاً، وأن يفهم القارئ علاقته به بوصفها مسؤولية متكاملة، لا عملاً منفصلاً عن بقية أعماله.

ثانياً: الشفاعة بالقرآن في ضوء النصوص الصحيحة

من المعاني الأخروية الواردة في السنة النبوية شفاعة القرآن لأصحابه يوم القيامة، وهي من البشارات التي تبعث على الحرص على صحبته. غير أن هذه البشارة تحتاج إلى فهم منضبط يجمع بين ثبوت النص، ودلالة لفظه، والنصوص الأخرى التي تبين منزلة العمل والمسؤولية.

روى مسلم في صحيحه عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه.»

يدل الحديث على فضل قراءة القرآن، وعلى أن له شأنًا يوم القيامة في الشفاعة لأصحابه. وينبغي عند فهم هذا الوعد مراعاة النصوص التي تحت على ملازمة القرآن، وتعلمه، والعمل به، كما ينبغي تجنب الجزم بتفاصيل غيبية لم يثبت بها دليل صحيح صريح.

ويكشف وصف المستفيدين بأنهم «أصحابه» عن مناسبة هذا المعنى لموضوع الكتاب؛ فالصحبة في الاستعمال التربوي تدل على الملازمة والاستمرار، ولا تعني مجرد لقاء عابر. ومع ذلك، فإن تفسير المراد بأصحاب القرآن تفسيرًا تفصيليًا يحتاج إلى الرجوع إلى شروح الحديث وكلام أهل العلم، ولا يصح بناء أحكام قطعية على مجرد الاشتقاق اللغوي للكلمة.

والأصل أن المسلم يرجو فضل الله ورحمته، ويحرص على القرآن، ويجتهد في تعلمه والعمل به، دون أن يحكم لنفسه بضمنان منزلة أخروية معينة لمجرد انتسابه إلى التلاوة.

كما أن الحديث لا يسوغ جعل التلاوة بديلاً عن أداء الفرائض أو حفظ الحقوق؛ فالنصوص الشرعية يفسر بعضها بعضاً، ولا يصح أن يستخدم حديث في فضيلة عمل لإلغاء ما ثبت من وجوب أعمال أخرى.

وبذلك يكون الرجاء في شفاعة القرآن دافعاً إلى زيادة الصحبة والوفاء بحقوقها، لا وسيلة إلى الاطمئنان الذي يضعف المحاسبة أو يغري بالتفريط.

ثالثاً: حديث «اقرأ وارتنق» ودلالته

من النصوص المشهورة في فضل القرآن يوم القيامة حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتنق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»؛ رواه أبو داود والترمذي، وقد حسنه الترمذي.

يصور الحديث منزلة صاحب القرآن يوم القيامة، ويربط بين القراءة والترتيل والارتقاء. وهو من النصوص التي تحفز على ملازمة القرآن وإتقان تلاوته، وتدعو إلى استحضار أن العلاقة بالقرآن تتجاوز الحياة الدنيا إلى المآل الأخروي.

ومن الناحية التربوية، يوجه الحديث إلى أهمية الاستمرار في التعلم والمراجعة، وعدم التعامل مع القرآن بوصفه مرحلة تنتهي بمجرد إتمام الختمة أو حفظ مقدار

معين. فالمقصود من الصحبة بناء علاقة متجددة، تتناسب مع قدرة الإنسان، ويظل فيها مجال للتعلم والتحسين.

غير أن دلالة الحديث على تفاصيل المفاضلة بين الناس أو تحديد منازلهم لا ينبغي أن تتجاوز ما يثبته النص وشروحه المعتمدة. كما لا يصح الجزم بأن كل من حفظ القرآن يبلغ بالضرورة منزلة معينة دون نظر إلى بقية النصوص المتعلقة بالإيمان والعمل والإخلاص.

ويستفاد من الحديث كذلك أن الترتيل ليس مجرد تحسين للصوت، بل هو أداء يراعي الحروف والقراءة المتأنية، وقد يعين على حضور القلب واستحضار المعنى. ومع ذلك، لا ينبغي أن يتحول الاهتمام بجمال الأداء إلى انشغال بالشكل على حساب التدبر والعمل.

إن الرسالة التربوية الأهم هنا هي أن القرآن يستحق صحبة طويلة، وأن الجهد الذي يبذله الإنسان في قراءته وتعلمه وتعاهده ليس عملاً عابراً، بل جزء من استعداداته للقاء الله.

رابعاً: الاستعداد للقاء الله

يمنح استحضار الآخرة الحياة الدنيوية أفقاً يتجاوز المنفعة العاجلة، ويجعل الإنسان أكثر وعياً بمآلات أعماله ومسؤوليته عنها. والقرآن يذكر الإنسان بالموت والبعث والحساب، لا لإدخاله في حالة دائمة من الخوف، بل لتصحيح نظرته إلى الحياة، وترتيب أولوياته، وحمله على الاستعداد للقاء الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

تدعو الآية إلى مراجعة ما يقدمه الإنسان لمستقبله الأخروي، وتربط التقوى بالنظر في العمل. وهذا النظر ليس مجرد استحضار نظري للموت، بل محاسبة عملية لما يفعله الإنسان في حاضره: ما الذي يصلح من أعماله؟ وما الذي يحتاج إلى توبة؟ وما الحقوق التي يجب أن يؤديها؟ وما الواجبات التي يؤخرها دون مسوغ؟

ومن هنا، يمكن أن تتحول صحبة القرآن إلى وسيلة منتظمة للاستعداد للآخرة، من خلال مراجعة النية، والمحافظة على الفرائض، والإقلاع عن المحرمات، وأداء حقوق العباد، وتنمية الأعمال الصالحة التي يستطيع الإنسان المداومة عليها.

ولا يقتصر الاستعداد للآخرة على تكثير النوافل مع إهمال الواجبات؛ فترتيب الأعمال بحسب منزلتها الشرعية من مقتضيات الفقه في الدين. وقد يكون أداء حق

مالي متأخر أو إصلاح مظلمة أولى من الاشتغال بعمل تطوعي آخر، بحسب الأحوال والأدلة المتعلقة بها.

كذلك لا يعني استحضار الآخرة إهمال مصالح الدنيا أو الانسحاب من مسؤولياتها؛ فالقرآن يوجه الإنسان إلى القيام بواجباته في الحياة، ويضبط علاقته بالدنيا حتى لا تستولي على قلبه أو تصرفه عن غايته.

وإذا تدبر القارئ آيات الحساب والجزاء، فإن المطلوب أن يزداد حرصًا على إصلاح ما يستطيع إصلاحه، لا أن يغرق في الندم على الماضي دون عمل، أو يؤجل مسؤولياته بحجة الانشغال بالآخرة. فصدق الاستعداد يظهر في إصلاح الحاضر، ورد الحقوق، والاستمرار في الطاعة، والتوبة عند التقصير.

خامسًا: استحضار المآل الأخروي وأثره في الحياة

لا تنفصل النظرة إلى الآخرة عن السلوك اليومي؛ بل إن استحضار المآل الأخروي يعيد ترتيب قيمة الأفعال، ويمنح المسؤوليات الصغيرة معنى أوسع. فالكلمة التي يتلفظ بها الإنسان، والأمانة التي يؤديها، والمال الذي يكسبه، والعلاقة التي يصلحها، كلها تدخل في دائرة العمل الذي يلقي الله به.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وتؤكد الآيتان أن العمل، مهما بدا صغيرًا، داخل في حساب الله وجزائه. وهذا المعنى يربي الإنسان على عدم الاستهانة بالأفعال اليومية؛ فرب كلمة طيبة تصلح علاقة، ورب اعتذار يعيد حقًا معنويًا، ورب امتناع عن ظلم يمنع ضررًا كبيرًا، ورب عمل صالح يداوم عليه الإنسان فيكون له أثر ممتد.

وفي المقابل، تمنع هذه النظرة من التهوين من المعاصي التي تتكرر في الخفاء، أو الاعتداءات التي يظن صاحبها أنها لا تترك أثرًا. فالإنسان قد يعتاد سلوكًا مؤذيًا حتى يراه أمرًا عاديًا، لكن استحضار الحساب يعيد إليه حساسية التمييز بين الصواب والخطأ.

ومع ذلك، لا ينبغي أن يتحول استحضار الحساب إلى انشغال قهري بتفاصيل الماضي، أو إلى محاسبة للنفس تتجاوز حدود الاعتدال وتفضي إلى العجز. فالقرآن يجمع بين التذكير بالجزاء والدعوة إلى التوبة والعمل، ويمنح الإنسان فرصة متجددة لإصلاح ما يمكن إصلاحه.

ومن التطبيقات العملية لهذا المعنى أن يخصص القارئ وقتًا دوريًا لمراجعة علاقته بالقرآن وآثارها في حياته، فينظر في عبادته وأخلاقه وحقوق الآخرين ومسؤولياته الأسرية والمهنية، ويحدد ما يحتاج إلى إصلاح، ثم يضع خطوات واقعية لتنفيذه. فإن وجد تقصيرًا في حق الله، عمل على تداركه بالتوبة والطاعة. وإن وجد مظلمة لآدمي، سعى إلى رد الحق أو إصلاح الضرر. وإن وجد عادة أخلاقية سيئة، بحث عن أسبابها ووضع وسائل لمقاومتها. وإن وجد بابًا من الخير يستطيع المداومة عليه، حرص على تثبيته.

وبذلك لا تبقى الآخرة فكرة مؤجلة إلى نهاية العمر، بل تصبح أفقًا حاضرًا يوجه قرارات الإنسان في كل يوم.

إن استحضار المآل الأخروي هو الذي يمنح صحبة القرآن عمقها النهائي؛ إذ يجعل القراءة متصلة بمسؤولية الإنسان عن حياته، ويذكره بأن الغاية ليست مجرد الشعور بالطمأنينة أو تحصيل المعرفة، وإنما أن يلقي الله على حال من الإيمان والعمل الصالح، راجيًا رحمته، خائفًا من تقصيره، عاملًا بما استطاع من هدايته.

المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.
٣. مسلم بن الحجاج، الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.
٤. أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن، كتاب الوتر، باب استحباب الترتيل في القراءة.
٥. الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر.
٦. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم.
٧. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
٨. ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد، جامع العلوم والحكم.

خاتمة الكتاب: أن تصبح صحبة القرآن منهج حياة

أولاً: من التلاوة إلى الفهم، ومن الفهم إلى التدبر، ومن التدبر إلى العمل

ليست الغاية من هذه الرحلة أن ينتهي القارئ من صفحات الكتاب وقد ازدادت لديه المعلومات عن القرآن فحسب، وإنما أن يخرج منها وقد تجددت علاقته بكتاب الله، وأصبح أكثر وعياً بكيفية تلقيه، وأقدر على الانتفاع به، وأحرص على تحويل هداياته إلى مواقف وأعمال. فالمعرفة التي لا تتجاوز حدود الذهن قد تبقى منفصلة عن واقع الإنسان، والتأثر الذي لا يثمر سلوكاً قد يظل حالة عابرة، أما الصحبة الحقيقية للقرآن فتسعى إلى وصل العلم بالقلب، والقلب بالعمل، والعمل بالاستمرار.

وقد رسم القرآن الكريم هذا المسار حين جعل التدبر غاية مقصودة من إنزال الكتاب، فقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. فالآية تربط بين إنزال القرآن وتدبر آياته والتذكر بما فيها من الهداية والعبرة. وهذا الربط يكشف أن التعامل مع القرآن لا ينبغي أن يقف عند مجرد وصول ألفاظه إلى السمع أو جريانها على اللسان، بل يتجاوز ذلك إلى النظر في معانيه، واستحضار دلالاته، والانتفاع بما يوجه إليه.

ولا يعني هذا التقليل من شأن التلاوة؛ فهي عبادة عظيمة، وبها تبدأ صلة القارئ بكلام الله، وإنما المقصود أن التلاوة تفتح الطريق أمام مراتب أخرى من الانتفاع، وأن هذه المراتب تتكامل فيما بينها ولا يلغي بعضها بعضاً. فقد يقرأ الإنسان القرآن تعبداً لله، ثم يقف عند آية فيسأل عن معناها، ثم يتأمل ما تدعوه إليه، ثم يراجع موقفاً من مواقفه في ضوء هدايتها، ثم يجاهد نفسه حتى يتحول المعنى الذي أدركه إلى سلوك ثابت.

وهكذا ينتقل القارئ من التلاوة إلى الفهم، ومن الفهم إلى التدبر، ومن التدبر إلى العمل، دون أن يتوهم أن هذه المراحل منفصلة انفصلاً تاماً؛ فقد يعود إلى الآية نفسها فيفهم منها ما لم ينتبه إليه من قبل، أو يكتشف في أثناء تطبيقها أن فهمه السابق يحتاج إلى مراجعة، أو يجد أن تكرار التلاوة يعمق حضوره للمعنى ويزيده قدرة على استحضاره في حياته.

وتتجلى أهمية هذا المسار في أن الفهم وحده لا يضمن الاستجابة، كما أن الشعور الوجداني وحده لا يكفي للحكم على صدق الانتفاع. فقد يعرف الإنسان معنى الصبر، ثم يستسلم عند أول ابتلاء، وقد يقرأ آيات العفو ويتأثر بها، ثم يعجز عن

ضبط غضبه عند الخصومة. وهنا تظهر المسافة بين معرفة الهداية والتمثل بها، وهي المسافة التي يحتاج المؤمن إلى مجاهدة نفسه لعبورها.

وقد ذم الله تعالى التناقض بين القول والعمل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ [الصف: ٢-٣]. والآيتان، وإن وردتا في سياق النهي عن القول الذي يخالفه العمل، تحملان تنبيهاً تربوياً مهماً إلى ضرورة مراجعة المسافة بين ما يعلمه الإنسان وما يلتزم به.

ومن ثم، فإن أحد أهم أسئلة الصحبة القرآنية ليس: كم قرأت اليوم؟ ولا: كم آية حفظت؟ فهذه أسئلة لها قيمتها في موضعها، وإنما يضاف إليها سؤال آخر: ما الذي تغير في فهمي أو سلوكي بسبب ما قرأت؟ هل أصبحت أضبط لساني؟ هل صرت أسرع إلى الاعتذار ورد الحقوق؟ هل ازداد صبري عند الشدائد؟ هل صرت أعدل في حكمي على الآخرين؟ وهل أصبحت أكثر استعداداً لمراجعة نفسي حين تكشف لي الآيات خطأ كنت أتعاضى عنه؟

ولا يُراد بهذه الأسئلة تحويل كل جلسة تلاوة إلى محاكمة مرهقة للنفس، أو مطالبة القارئ بأن يستخرج من كل آية تكميلاً شخصياً جديداً، وإنما المقصود تنمية الوعي بالصلة بين الوحي والحياة، حتى لا تبقى القراءة نشاطاً منفصلاً عن القرارات والعلاقات والأخلاق.

إن الانتفاع بالقرآن لا يقاس بمقدار ما يشعر به الإنسان في لحظة القراءة وحدها، ولا بما يجده من انشراح عابر، وإنما يُنظر إليه كذلك في أثره الممتد على إيمانه وفهمه واختياراته وأعماله، مع التسليم بأن الهداية والتوفيق من الله تعالى، وأن إصلاح النفس يحتاج إلى صبر ومجاهدة واستعانة بالله.

ولذلك ينبغي أن يخرج القارئ من هذه الرحلة بقاعدة واضحة: اقرأ القرآن تعبدًا، وافهمه طلبًا للهداية، وتدبره طلبًا للبصيرة، واعمل به ابتغاء مرضاة الله، ثم عُد إليه دائماً ليصحح مسارك ويجدد صلتك بربك.

ثانياً: الصحبة المستمرة بين الثبات والتجدد

ليست صحبة القرآن مشروعاً مؤقتاً ينتهي بانتهاء كتاب، أو موسم تعبدي، أو برنامج لحفظ سور محددة؛ إنها علاقة تحتاج إلى الثبات والتجدد معاً. فالثبات يحفظ أصل الصلة، والتجدد يمنعها من التحول إلى عادة شكلية لا يصاحبها حضور أو انتفاع.

والثبات لا يعني أن يعيش القارئ جميع أيامه بالمستوى نفسه من النشاط والإقبال، فهذا لا يراعي طبيعة الإنسان وما يعتريه من انشغال وتعب وتغير في

الأحوال. فقد يجد في بعض الأيام نشاطًا واسعًا للتلاوة والتدبر، وقد لا يستطيع في أيام أخرى إلا قدرًا يسيرًا. والمطلوب ألا يجعل اختلاف أحواله ذريعة إلى الانقطاع الكامل، وألا يحكم على علاقته بالقرآن بالفشل لمجرد أن نشاطه قد انخفض. وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيمة المداومة في العمل، فقال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل». (1) »

ويدل هذا التوجيه على أهمية الاستمرار، لا على أن القليل أفضل من الكثير في جميع الأحوال، وإنما على أن العمل الذي يثبت عليه صاحبه له مكانة عظيمة، وأن بناء العلاقة المستقرة يحتاج إلى قدر من الواقعية في تحديد الأعمال والمواظبة عليها.

ومن الخطأ أن يضع الإنسان لنفسه برنامجًا يفوق طاقته، ثم يلتزم به أيامًا قليلة، فإذا عجز عنه ترك القراءة كلها. وقد ينشأ هذا الانقطاع من تصور غير واقعي للالتزام، يجعل صاحبه يظن أن الصحبة لا تكون إلا ببرنامج كبير، أو ورد طويل، أو جلسات ممتدة للتدبر.

والأقرب إلى الاستمرار أن يبدأ القارئ بما يستطيع المحافظة عليه، ثم يزيده حين تتسع قدرته، وأن يجعل برنامجه قابلاً للتكيف مع ظروفه، دون أن يفقد غايته أو يتحول التكيف إلى تبرير دائم للتفريط.

والثبات هنا لا يتعلق بعدد الصفحات وحده، بل يشمل المحافظة على أصول العلاقة بالقرآن: تلاوة منتظمة، وفهم صحيح، وتدبر منضبط، واستجابة عملية بحسب ما يقتضيه العلم والقدرة.

أما التجدد، فيعني أن يبقى القارئ مستعدًا لتصحيح طريقته، وتوسيع فهمه، ومراجعة عاداته في التعامل مع الكتاب العزيز. فقد يكتشف بعد مدة أن سرعته في القراءة تحول بينه وبين الانتباه إلى المعاني، فيخفف سرعته في بعض المواطن. وقد يلاحظ أنه يكرر السور التي اعتادها ولا يقرأ غيرها، فيضع لنفسه خطة متوازنة تجمع بين المألوف والجديد. وقد يتبين له أنه يعتمد على انطباعاته الشخصية في تفسير الآيات، فيرجع إلى كتب التفسير الموثوقة، أو يتعلم على يد أهل العلم.

ومن التجدد كذلك أن يعيد النظر في أثر القرآن على سلوكه. فليس كافيًا أن يواصل القراءة بالكيفية نفسها سنوات طويلة إذا كانت بعض عاداته تناقض ما يتعلمه من هداياته. إن استمرار الوسيلة لا يغني عن مراجعة أثرها، والمواظبة على التلاوة لا تعفي من سؤال النفس عن مدى الاستجابة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. والآية واردة في سياق أحكام الدين والتعاملات، ولا يصح اقتطاعها لتقرير معادلة آلية تضمن لكل قارئ علماً خاصاً بمجرد صلاح نيته؛ غير أن سياقها يذكر المؤمن بمركزية تقوى الله في حياته، وبأن طلب العلم والفهم ينبغي أن يجري في إطار العبودية والمسؤولية.

وتقتضي الصحبة المستمرة أيضاً أن يتعلم الإنسان التعامل مع الفتور دون تهويل أو استسلام. فإذا ضعفت همته، راجع أسباب ذلك، ونظر في وقته وبيئته ومقدار ما يحمل نفسه، ثم استأنف برنامجه بما يقدر عليه. ولا يجعل ضعف الإقبال دليلاً على انعدام الإخلاص، ولا يزعم في المقابل أن حسن النية يغنيه عن بذل الأسباب وتنظيم الوقت.

إن العلاقة الناضجة بالقرآن تجمع بين الوفاء والتصحيح؛ وفاء يحفظ الصلة في مختلف الأحوال، وتصحيح يعيد توجيهها كلما طرأ عليها خلل. وبذلك لا تصبح الصحبة مجرد عادة يومية، ولا تظل تجربة وجدانية مرتبطة بأوقات مخصوصة، بل تتحول إلى منهج يتجدد أثره في العلم والعمل والحياة.

ثالثاً: كيف يبدأ القارئ من اليوم؟

قد يقتنع القارئ بأهمية صحبة القرآن، ويشعر برغبته في بناء علاقة أعمق به، لكنه يتوقف أمام سؤال عملي: من أين أبدأ؟ وكيف أحول هذه الرغبة إلى خطوات قابلة للتنفيذ؟

والجواب أن البداية لا تحتاج إلى انتظار ظرف مثالي، ولا إلى إعداد برنامج بالغ التعقيد، وإنما تحتاج إلى تحديد مقصد واضح، واختيار قدر مناسب من العمل، والالتزام به، ثم مراجعته في ضوء النتائج.

1 تحديد الغاية من الصحبة

ينبغي أن يبدأ القارئ بتصحيح تصوره عن الغاية من القراءة. فهو يقرأ القرآن تعبدًا لله تعالى، وطلبًا لهديته، ورغبة في فهم مراده وفق ما تدل عليه النصوص وبينه أهل العلم، ثم يسعى إلى الاستجابة لما يتعلمه.

وهذه الغاية تقيه من اختزال القرآن في عدد من الصفحات يريد إنجازها، أو في وسيلة لتحقيق شعور نفسي معين، أو في مادة يستخرج منها عبارات مؤثرة دون أن يراجع دلالاتها.

ولا يلزم أن يشعر الإنسان في كل جلسة بتأثر ظاهر؛ فقد يقرأ في يوم وهو نشيط حاضر القلب، وفي يوم آخر وهو متعب أو مشغول البال، ومع ذلك يؤدي عبادة

القراءة ويسعى إلى تحسين انتفاعه بها. والعبرة ألا يجعل غياب الشعور العابر سببًا لترك العمل، وألا يتعامل مع النص القرآني باعتباره وسيلة لإنتاج حالة وجدانية يفرضها على نفسه.

2 اختيار ورد يومي يمكن المحافظة عليه

يحدد القارئ وقتًا مناسبًا لقراءته، ويختار مقدارًا يتلاءم مع قدرته وظروفه. وقد يكون ذلك بعد صلاة الفجر، أو في وقت آخر يجد فيه سكونًا نسبيًا وانتظامًا. ولا ينبغي تحويل وقت معين إلى شرط شرعي عام لا تصح الصحبة إلا به؛ فالمقصود هو اختيار وقت يعين على المداومة.

ومن المهم أن يكون الورد محددًا بما يكفي ليصبح قابلًا للقياس، ومرنًا بما يكفي حتى لا يؤدي تعذر أدائه في يوم إلى الانقطاع الكامل. فإذا اعتاد القارئ مقدارًا معينًا، أمكنه أن يزيده بحسب استطاعته، أو يكتفي في بعض الأيام بقدر أقل يحفظ به أصل الصلة.

ويستحسن أن يميز بين الحد الأدنى الذي يستطيع المحافظة عليه في الظروف المعتادة، والقدر الإضافي الذي يقرأه حين تتسع له القدرة والوقت. وهذا التفريق يساعد على منع الإفراط في الالتزام ثم الانقطاع، كما يحول دون تحويل الحد الأدنى إلى سقف دائم لا يحاول تجاوزه.

3 الجمع بين التلاوة والفهم

ليس مطلوبًا أن يحول القارئ كل جلسة إلى دراسة تفسيرية مطولة، لكن من المفيد أن يخصص جزءًا من قراءته لفهم المعاني، ولا سيما في المواضع التي يقرأها مرارًا دون أن يتبين له معناها.

ويمكنه أن يختار آية أو مجموعة آيات، ثم يراجع تفسيرًا موثوقًا لها، وينظر في سياقها، ويحدد الفكرة الأساسية التي تدل عليها. وبعد ذلك يسأل نفسه عن نوع الاستجابة التي تقتضيها الهداية، دون أن يحمل النص ما لا يدل عليه.

فإذا قرأ آيات تحث على العدل، تأمل مواضع العدل في أحكامه ومعاملاته. وإذا قرأ آيات تنهى عن الغيبة، راجع طريقة حديثه عن الناس. وإذا قرأ آيات تتناول الصبر، نظر في مواقفه عند المشقة. وإذا قرأ آيات عن الشكر، راجع علاقته بالنعم وكيفية استعمالها.

ومع ذلك، لا ينبغي أن تتحول هذه المراجعة إلى إسقاط متعسف؛ فليست كل آية موجهة إلى موقف شخصي بعينه، ولا يصح استنباط حكم شرعي من مجرد انطباع

وجداني. وإنما يبدأ التطبيق من المعنى الثابت للآية، ثم ينظر القارئ في مواضع انطباقه على حياته.

٤ تحويل المعنى إلى خطوة عملية

قد يقرأ الإنسان آيات كثيرة في الأخلاق والعبادات، لكنه لا يعرف كيف يحول ما يتعلمه إلى تغيير ملموس. ولذلك يفيد أنه يختار من هدايات قراءته خطوة عملية واحدة أو خطوتين، وأن يحدد كيفية تنفيذهما.

فبدل أن يكتب: «سأكون أكثر صبراً»، يمكنه أن يحدد: «سأحاول ألا أرفع صوتي عند الغضب، وسأؤجل الرد حتى أهدأ». وبدل أن يكتب: «سأحفظ لساني»، يمكنه أن يقرر الامتناع عن نقل كلام سمعه عن شخص آخر دون حاجة معتبرة، وأن يتجنب الخوض في أعراض الناس.

وإذا قرأ عن صلة الرحم، يمكنه أن يحدد وسيلة مناسبة للتواصل مع قريب انقطع عنه. وإذا قرأ عن أداء الأمانة، راجع التزاماً مالياً أو وظيفياً يحتاج إلى وفائه. وإذا قرأ عن التوبة، يمكنه أن يبدأ بترك ذنب معلوم، أو رد حق إلى صاحبه، أو طلب العون على معالجة سبب متكرر للخطأ.

وهنا تتحول الهداية من فكرة عامة إلى ممارسة محددة يمكن مراجعتها وتقويمها.

٥ مراجعة التقدم دون مبالغة

ينبغي أن يراجع القارئ برنامجه في نهاية كل أسبوع، لا ليحصى ما فاتته بقصد توبيخ نفسه، بل ليفهم ما الذي أعانه على الاستمرار، وما الذي أدى إلى الانقطاع، وهل كان المقدار الذي اختاره مناسباً أم يحتاج إلى تعديل.

وقد يكتشف أن الوقت الذي حدده للقراءة لا يناسب ظروفه، فينقله إلى وقت آخر. وقد يجد أن كثرة المشتتات تمنعه من التركيز، فيغلق هاتفه أو يبتعد عن الضوضاء مدة القراءة. وقد يتبين له أنه يقرأ كثيراً لكنه لا يفهم بعض الآيات، فيخصص وقتاً للتفسير. وقد يلاحظ أنه يكثر من تسجيل الفوائد دون مراجعتها، فيجعل للمراجعة موعداً أسبوعياً.

وبذلك يصبح تقويم البرنامج جزءاً من الصحبة، لا حكماً على صلاح الإنسان أو فساده. فالمقصود تحسين العمل واستدامته، مع الاعتراف بالتقصير والسعي إلى إصلاحه.

رابعاً: برنامج عملي مقترح للأيام الثلاثين الأولى

هذا البرنامج مقترح تربوي قابل للتعديل، وليس عبادة محددة بمدة أو عدد ثبت تخصيصه شرعاً. وقد روعي فيه أن يبدأ بتثبيت أصل الصلة، ثم ينتقل إلى تحسين

التلاوة وفهم المعاني، ثم إلى تحويل الهدايات إلى أعمال، وصولاً إلى بناء خطة مستمرة بعد انتهاء الأيام الثلاثين.

ولا يشترط أن يخصص القارئ لكل مهمة جلسة طويلة؛ فقد يكفي في بعض الأيام وقت يسير، بحسب قدرته وظروفه. كما لا يشترط أن ينجز جميع المهام على وجه مثالي، وإنما يستفيد منها بقدر ما ييسر الله له.

المرحلة الأولى: الأيام ١-٧ — تثبيت أصل الصلة

الهدف: بناء عادة يومية واقعية، وتحديد الوقت والورد المناسبين، وإزالة العوائق الأولية التي تحول دون القراءة.

- **اليوم الأول: تحديد نقطة البداية.** يختار القارئ وقتاً مناسباً للتلاوة، ويحدد مقداراً يستطيع المحافظة عليه، ثم يكتب سبب رغبته في بناء صحبته للقرآن. وليكن المقصد طلب الهداية والانتفاع بكلام الله، لا مجرد إنجاز عدد من الصفحات.
- **اليوم الثاني: تثبيت الوقت.** يقرأ في الوقت الذي اختاره، ويحاول تهيئة المكان وتقليل المشتتات. وفي نهاية الجلسة يلاحظ ما أعانه على التركيز وما صرفه عنه.
- **اليوم الثالث: تحسين الإنصات.** يقرأ بتأنٍّ، ويراعي أحكام التلاوة التي تعلمها، ويتجنب الاستعجال الذي يمنعه من متابعة الكلمات. وليس المطلوب التكلف في الأداء، وإنما القراءة الصحيحة بحسب القدرة والتعلم.
- **اليوم الرابع: ملاحظة المعاني.** يختار آية استوقفت انتباهه، ويعيد قراءتها بتأنٍّ، ثم يسأل نفسه عن معناها العام وما الذي يحتاج إلى معرفته لفهمها فهماً صحيحاً.
- **اليوم الخامس: مراجعة العائق الأبرز.** ينظر في أكثر ما يعطله عن القراءة: ضيق الوقت، أو التشتت، أو الإرهاق، أو ضعف التنظيم، ثم يختار إجراءً عملياً لمعالجته.
- **اليوم السادس: قراءة مع فهم.** يختار مقطعاً قصيراً، ويراجع تفسيره في مصدر موثوق، ويكتب خلاصة موجزة لمعناه دون توسع في الاستنباط.
- **اليوم السابع: مراجعة الأسبوع الأول.** يسأل نفسه: هل التزمت بالوقت؟ هل كان الورد مناسباً؟ ما الذي ساعدني على الاستمرار؟ وما التعديل الذي أحتاج إليه في الأسبوع التالي؟

معيار التقدم في هذه المرحلة: ليس مقدار ما أنجزه القارئ من الصفحات وحده، بل قدرته على تحديد ورد واقعي، والبدء في المحافظة عليه، ومعرفة العوائق التي ينبغي أن يتعامل معها.

المرحلة الثانية: الأيام ٨-١٤ — الانتقال من التلاوة إلى الفهم والتدبر

الهدف: تدريب النفس على فهم المعنى، ومراعاة السياق، والتمييز بين الدلالة القرآنية والتأمل الشخصي.

- **اليوم الثامن: قراءة مقطع مترابط.** يختار القارئ مجموعة من الآيات المتتابعة، ويحاول فهم موضوعها العام، بدل الاقتصار على اقتطاع آية واحدة دون النظر إلى ما قبلها وما بعدها.
- **اليوم التاسع: مراجعة التفسير.** يرجع إلى تفسير موثوق للمقطع الذي قرأه، ويتحقق من المعاني التي لم تتضح له، ويصحح ما قد يكون نشأ عنده من فهم غير دقيق.
- **اليوم العاشر: تحديد الهداية الأساسية.** يكتب فكرة واحدة تدل عليها الآيات بوضوح، ويشرحها بعبارته، مع الرجوع إلى التفسير إذا احتاج إلى ضبط معناها.
- **اليوم الحادي عشر: التمييز بين المعنى والتأمل.** يكتب في خانتين: الأولى للمعنى الذي دلت عليه الآيات ويبيّنه التفسير، والثانية للفائدة الشخصية التي استخلصها من هذا المعنى. وهذا التدريب يعينه على ألا ينسب إلى القرآن ما هو مجرد خاطر شخصي.
- **اليوم الثاني عشر: التدبر في آيات الأخلاق.** يختار آيات تتناول خلقًا مثل الصدق أو العدل أو الصبر، ثم يراجع سلوكه في موقف واقعي، ويحدد جانبًا يحتاج إلى تحسينه.
- **اليوم الثالث عشر: التدبر في آيات الرجاء والخشية.** يقرأ آيات الوعد والرحمة، وآيات الوعيد والمسؤولية، مع مراعاة سياق كل منها، ويتأمل أثر الجمع بين الرجاء والخشية في تصحيح سلوكه، دون أن يستخرج من ذلك حكمًا شرعيًا بلا دليل.
- **اليوم الرابع عشر: مراجعة الأسبوع الثاني.** يراجع الفوائد التي كتبها، ويحدد ما إذا كانت مستندة إلى معنى واضح، وما الذي يحتاج منها إلى سؤال أهل العلم أو مراجعة التفسير.

معيار التقدم في هذه المرحلة: أن يصبح القارئ أكثر قدرة على فهم المعنى العام للآيات، ومراعاة السياق، والرجوع إلى التفسير، والتمييز بين الدلالة الثابتة والتأمل الشخصي.

المرحلة الثالثة: الأيام ١٥-٢١ — تحويل الهداية إلى عمل

الهدف: ربط المعاني القرآنية بسلوك محدد، وممارسة المحاسبة المنضبطة، والانتقال من النية العامة إلى الخطوة العملية.

- **اليوم الخامس عشر: اختيار خلق واحد.** يختار القارئ خلقًا ورد الحث عليه في القرآن، مثل الصدق أو الصبر أو العفو، ويحدد موقفًا واحدًا يستطيع أن يظهر فيه أثر هذا الخلق.
- **اليوم السادس عشر: حفظ اللسان.** يراقب حديثه، ويتجنب الغيبة والبهتان ونقل الكلام المفسد للعلاقات، ويستحضر أن حفظ اللسان جزء من المسؤولية الأخلاقية التي يؤكدّها الوحي.
- **اليوم السابع عشر: صيانة الحقوق.** يراجع ما عليه من التزامات تجاه الآخرين، مثل أداء أمانة، أو وفاء بوعده، أو رد حق معلوم، ويبدأ بما يستطيع إنجازه دون تأخير غير مبرر.
- **اليوم الثامن عشر: الصبر عند الانفعال.** يحدد موقفًا يتكرر فيه غضبه أو ضيقه، ويضع خطة للتعامل معه، مثل التريث قبل الرد، أو مغادرة موضع الخصومة مؤقتًا، أو اختيار عبارة أقل إيذاءً.
- **اليوم التاسع عشر: الشكر العملي.** يتأمل نعمة ظاهرة في حياته، ثم يحدد صورة عملية لشكرها، كحسن استعمالها، أو أداء حق متعلق بها، أو مساعدة من يحتاج إلى ما يستطيع تقديمه.
- **اليوم العشرون: التوبة والإصلاح.** يراجع أمرًا يحتاج إلى تصحيح، فيترك الخطأ الذي يستطيع تركه، ويعزم على عدم العودة إليه، ويسعى إلى رد الحقوق إن تعلق به حقوق للعباد. ولا يجعل التوبة مجرد شعور بالندم منفصل عن أسباب الإصلاح.
- **اليوم الحادي والعشرون: تقويم السلوك.** يراجع الخطوات التي اختارها خلال الأسبوع، ويحدد ما تمكن من تطبيقه، وما تعذر عليه، وما يحتاج إلى تكرار أو تعديل.

معيار التقدم في هذه المرحلة: أن يتمكن القارئ من ربط المعنى القرآني بفعل واضح، وأن يدرك أن العمل لا ينحصر في الشعائر الظاهرة، بل يشمل الأخلاق والحقوق والمعاملات ومواقف الحياة اليومية.

المرحلة الرابعة: الأيام ٢٢-٣٠ — بناء الاستمرار والاستقلال في الصحبة
الهدف: الانتقال من الالتزام المؤقت إلى خطة مستدامة، وتوسيع الصلة بالقرآن لتشمل مختلف أحوال الحياة.

• **اليوم الثاني والعشرون: مراجعة الوقت والورد.** يحدد القارئ ما إذا كان المقدار اليومي مناسبًا، ويعدله عند الحاجة، مع الحرص على ألا تؤدي الزيادة إلى الانقطاع.

• **اليوم الثالث والعشرون: إنشاء سجل للفوائد.** يخصص دفترًا أو ملفًا يسجل فيه الآية أو المقطع الذي تدبره، والمعنى الذي فهمه من مصدر موثوق، والفائدة العملية التي ترتبت عليه. ويحرص على الاختصار والدقة.

• **اليوم الرابع والعشرون: مراجعة الفوائد السابقة.** يعود إلى ما سجله، ويتحقق من المعاني، ويحذف ما تبين له أنه غير دقيق، ويضيف ما تعلمه من التفسير أو من سؤال أهل العلم.

• **اليوم الخامس والعشرون: القرآن في أوقات الضيق.** يقرأ مقطعًا مناسبًا في موضوع الصبر والتوكل والرجاء، ويفهم دلالاته في سياقه، ثم يحدد كيف يمكن أن يسترشد به في التعامل مع مشكلة واقعية، مع اتخاذ الأسباب العملية اللازمة لحلها.

• **اليوم السادس والعشرون: القرآن في أوقات النعمة.** يراجع آيات الشكر، ويتأمل علاقته بما أنعم الله به عليه، ثم يحدد طريقة عملية لحفظ النعمة واستعمالها فيما يرضي الله.

• **اليوم السابع والعشرون: القرآن في العلاقات الأسرية والاجتماعية.** يختار هداية تتصل بالرحمة أو العدل أو الإحسان، ثم يحدد موقفًا يمكن أن يترجم فيه هذه الهداية إلى معاملة أفضل مع أهله أو زملائه أو جيرانه.

• **اليوم الثامن والعشرون: بناء البيئة المعينة.** يبحث عن وسيلة تساعد على الاستمرار، مثل مجالسة من يعينه على الخير، أو حضور درس موثوق في التفسير، أو تخصيص وقت منتظم للتعلم، أو مشاركة الأسرة في قراءة مناسبة لأعمار أفرادها وقدراتهم.

• **اليوم التاسع والعشرون: إعداد خطة ما بعد الثلاثين.** يحدد مقدار الورد الذي سيحافظ عليه، والوقت الذي سيقراً فيه، والمقدار الذي سيخصصه للفهم والتدبر، وكيفية مراجعة الفوائد، مع وضع بديل واقعي للأيام التي تضيق فيها ظروفه.

• **اليوم الثلاثون: مراجعة الرحلة.** ينظر في تجربته كلها، ويسجل أبرز ما تعلمه عن نفسه وعن طريقة تعامله مع القرآن، ويحدد عادة واحدة نجح في بنائها، وعائقاً واحداً يحتاج إلى معالجته، وخطوة عملية سيواصل العمل بها خلال الشهر التالي.

معيار التقدم في هذه المرحلة: أن يخرج القارئ بخطة واضحة قابلة للاستمرار، وأن يعرف كيف يعدلها عند الحاجة، وكيف يعود إلى القرآن بعد الانقطاع، وكيف ينتقل من القراءة إلى الفهم والعمل دون تكلف أو تعسير.

كيف يستمر البرنامج بعد اليوم الثلاثين؟

لا ينبغي أن ينتهي البرنامج بانتهاء اليوم الثلاثين، بل تبدأ بعده مرحلة الاستقرار والمراجعة. ويستطيع القارئ أن يجعل لكل أسبوع محوراً عملياً يركز عليه، مع المحافظة على أصل التلاوة اليومية، مثل:

- أسبوع يركز فيه على ضبط اللسان.
- وأسبوع يراجع فيه أداء الحقوق والالتزامات.
- وأسبوع يتدرب فيه على الصبر وضبط الانفعال.
- وأسبوع يراجع فيه علاقته بالشكر والرضا والتواضع.

وهذه المحاور أمثلة تنظيمية وليست تقسيمًا شرعياً ملزماً، ولا تعني تأجيل الأخلاق الأخرى حتى يأتي أسبوعها؛ فالمؤمن مطالب بالاستجابة لما يعلم من الحق في مختلف أحواله، وإنما الغرض من تخصيص محور للمراجعة هو تركيز الانتباه وتيسير التقويم.

ومن المفيد أن يراجع القارئ برنامجه مرة كل شهر، فيسأل نفسه عن استمرارية التلاوة، وتحسن الفهم، وجودة الفوائد المسجلة، وأثر القراءة على بعض عاداته وقراراته. وإذا وجد خللاً في جانب، أصلحه دون أن يهدم ما تحقق في الجوانب الأخرى.

فقد يستمر الإنسان في التلاوة مع حاجته إلى تحسين فهمه، أو يتوسع في القراءة ويحتاج إلى زيادة العناية بالعمل، أو يتقدم في بعض الأخلاق ويحتاج إلى مجاهدة

نفسه في غيرها. ولا يلزم أن تتطور جميع الجوانب بالسرعة نفسها، وإنما المهم أن يبقى القارئ في مسار التعلم والاستجابة والإصلاح.

وينبغي كذلك أن يتجنب مقارنة نفسه بالآخرين مقارنة تضعف همته أو تحمله على ما لا يطيق. فالناس يختلفون في أوقاتهم وقدراتهم ومسؤولياتهم، والمطلوب أن يبذل كل إنسان وسعه، وأن يطلب العلم الذي يحتاج إليه، وأن يحافظ على الفرائض والحقوق، وألا يجعل البرنامج القرآني سبباً لإهمال واجب آخر.

وإذا انقطع القارئ أياماً أو أسابيع، فلا يحتاج إلى انتظار بداية شهر جديد أو موسم تعبدي آخر. يمكنه أن يعود في يومه، ويبدأ بالمقدار المناسب، ثم يراجع أسباب الانقطاع ويعالجها. فالعودة جزء من بناء الاستمرار، وليست اعترافاً بفشل التجربة.

خامساً: كلمة أخيرة — القرآن هداية تُتلى وتُفهم ويُعمل بها

إن القرآن الكريم ليس كتاباً يقتصر أثره على لحظة القراءة، ولا نصّاً يُستحضر في المواسم ثم يُترك بعيداً عن تفاصيل الحياة؛ إنه كتاب هداية أنزله الله تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويرشددهم إلى ما يصلح عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وهذه الهداية لا تعني أن القارئ سيجد في كل آية جواباً تفصيلياً مباشراً لكل مسألة مستجدة، وإنما تعني أن القرآن يقرر الأصول الكبرى للحق والعدل والعبودية والاستقامة، ويبين من الأحكام والتوجيهات ما يحتاج إليه الإنسان في طريقه إلى الله، مع وجوب فهم النصوص وفق دلالاتها، والرجوع إلى السنة النبوية وأهل العلم فيما يحتاج إلى بيان أو تفصيل.

ومن هنا، فإن صحبة القرآن ليست بديلاً عن التعلم، ولا مسوغاً للاستغناء عن العلماء، ولا إذناً لكل قارئ بأن يجعل خواطره الشخصية تفسيراً ملزماً للآيات. إنها علاقة تجمع بين العبادة والعلم والتدبر والعمل، وتحفظ لكل واحد من هذه الجوانب مكانته.

فالتلاوة عبادة، والتفسير سبيل إلى فهم المعنى، والتدبر نظر في الهداية والعبرة، والعمل استجابة لما يقتضيه العلم الصحيح. وإذا اختل أحد هذه الجوانب، احتاج القارئ إلى مراجعته وإصلاحه، دون أن ينفي ذلك قيمة ما تحقق له من خير.

ولا ينبغي أن ينتظر الإنسان حتى يبلغ درجة عالية من العلم أو تزول جميع عيوبه ليبدأ العمل بالقرآن؛ بل يبدأ بما علم، ويواصل التعلم فيما جهل، ويتوب إذا أخطأ، ويرد الحقوق إذا قصر، ويستعين بالله على ما يعجز عنه. فالقرآن لا يدعو الإنسان

إلى ادعاء الكمال، وإنما يهديه إلى طريق الاستقامة، ويذكره بمسؤوليته عن اختياراته وأعماله.

وقد وصف الله تعالى كتابه بأنه يهدي إلى الصراط المستقيم، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فالانتفاع بالهداية لا يكتمل بمجرد معرفتها، بل يحتاج إلى اتباعها، ومقاومة ما يصرف الإنسان عنها من هوى أو غفلة أو استسلام للعادات.

وكلما ازداد القارئ معرفة بالقرآن، ازداد احتياجاً إلى التواضع أمامه، وإلى التثبت في فهمه، وإلى مراجعة نفسه في ضوء هدايته. فليس المقصود أن يجعل القرآن وسيلة للحكم على الناس أو تصنيفهم، بل أن يبدأ بمحاسبة نفسه، وأن يزن أقواله وأفعاله بما تعلمه من الحق، وأن ينصف الآخرين حتى حين يختلف معهم.

وليس المقصود كذلك أن تتحول الصحبة إلى عبء نفسي لا ينفك عنه الشعور بالتقصير؛ فالإنسان يجاهد نفسه، ويخطئ، ويتعلم، ويتوب، ويستأنف الطريق. وإذا أدرك خطأه لم يجعل الندم غاية في ذاته، بل اتخذها باعثاً على الإصلاح. وإذا أحسن عملاً لم يغتر به، بل حمد الله وسأله القبول والثبات.

إن أجمل ما يمكن أن يخرج به القارئ من هذه الرحلة أن يدرك أن القرآن ليس بعيداً عن حياته، وأن صلته به لا تقتصر على وقت محدد، وإن كان تخصيص وقت للقراءة يعينه على الاستمرار. فهو يستحضر هدايات القرآن حين يتخذ قراراً، ويستعين بما تعلمه منه حين يواجه ابتلاءً، ويراجع نفسه حين يخطئ، ويشكر الله حين ينال نعمة، ويحرص على العدل حين يختلف، وعلى الرحمة حين يقدر، وعلى التواضع حين يعلم.

ومع ذلك، لا ينبغي أن يحصر الإنسان علاقته بالقرآن في البحث عن تطبيق مباشر لكل آية على واقعه؛ فالقرآن كتاب عبادة وهداية وتشريع وتذكير وقصص وأخبار، ولكل نوع من أنواعه طريقة في الفهم والانتفاع. وقد تكون ثمرة بعض الآيات تعميق الإيمان، أو تصحيح الاعتقاد، أو تعلم حكم شرعي، أو الاعتبار بأحوال الأمم، أو زيادة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، أو التذكير بالمآل الأخروي. وكل ذلك من الانتفاع بالقرآن، وإن لم يتحول فوراً إلى فعل جزئي ظاهر.

ومن هنا، فإن صحبة القرآن منهج حياة لا لأنها تجعل الإنسان قادراً على استخراج إجابة فورية لكل سؤال، بل لأنها تربطه بالهداية التي يزن بها أفكاره، ويصحح بها مقاصده، ويوجه بها أفعاله، ويتعلم من خلالها كيف يعبد الله على بصيرة.

إن الطريق إلى صحبة القرآن لا ينتهي عند آخر صفحة من هذا الكتاب، وإنما يبدأ منها عمل جديد: أن يفتح القارئ المصحف، ويقرأ بتأنٍّ، ويسأل عما يحتاج إلى فهمه، ويرجع إلى التفسير فيما أشكل عليه، ويتأمل هدايات الآيات، ثم يستجيب لما علم من الحق بحسب استطاعته.

وقد تكون البداية وردًا يسيرًا، أو فهم آية طالما مرت على اللسان دون انتباه، أو تصحيح خلق، أو رد حق، أو ترك عادة مؤذية. وليس المهم أن يبدأ الإنسان بخطوة كبيرة يثقل عليه استمرارها، وإنما أن تكون بدايته صادقة، وأن يتبعها بعمل متواصل، وأن يستعين بالله على الثبات.

فكم من معنى قرأه الإنسان مرات ثم أدركه في موقف من مواقف حياته، وكم من آية أعاد قراءتها فوجد أن حاجته إليها قد تجددت، وكم من هداية لم ينتبه إلى أثرها إلا بعد أن حاول العمل بها. وهذا من وجوه استمرار الصلة بالقرآن؛ إذ يعود إليه المؤمن فيتعلم، ويعمل، ويراجع نفسه، ويجد في هدايته ما يعينه على تصحيح مساره.

ولذلك، فإن الرسالة التي ينتهي إليها هذا الكتاب ليست دعوة إلى قراءة أكثر فحسب، بل دعوة إلى قراءة أعمق، وفهم أصح، وتدبر منضبط، واستجابة أصدق، واستمرار أهدأ وأثبت.

صحبة القرآن أن تقرأه بقلب يطلب الهداية، وعقل يتحرى الفهم الصحيح، ونفس تستعد للمراجعة، وجوارح تسعى إلى العمل.

فاجعل لنفسك من القرآن نصيبًا ثابتًا، ولا تجعل الانقطاع عذرًا لتركه، ولا تجعل كثرة القراءة سببًا لإهمال الفهم، ولا تجعل التأثير غاية تنسى معها العمل، ولا تجعل التدبر بابًا للقول على الله بغير علم.

اقرأ، وتعلم، وتدبر، واعمل، وتب إذا قصرت، واستعن بالله في جميع ذلك. واجعل كل عودة إلى القرآن فرصة لتجديد العهد بالهداية، لا مناسبة لقياس نفسك بالآخرين أو تحميلها ما لا تطيق.

فالقرآن هداية تُتلى، ومعانٍ تُفهم، وآيات يُتدبر فيها، وأوامر ونواهي يُستجاب لها، وأخلاق تُبنى، وحقوق تُصان، وطريق إلى الله يسير فيه المؤمن حتى يلقاه.

نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وهاديًا لنا إلى صراطه المستقيم، وأن يرزقنا حسن تلاوته، وصحة فهمه، وصدق تدبره، والعمل بما علمنا منه، وأن يجعلنا ممن يتعلمون كتابه ويعملون به، ويهتدون بهديه، ويثبتون على طاعته حتى يلقوه وهو راضٍ عنا.

المراجع

١. القرآن الكريم .
٢. البخاري، محمد بن إسماعيل . صحيح البخاري.
٣. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم.
٤. أحمد بن حنبل، المسند، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
٥. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
٦. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم.
٧. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن.
٨. ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.
٩. النووي، يحيى بن شرف، رياض الصالحين.

فهرس الكتاب

صحبة القرآن: من التلاوة إلى الهداية والعمل

مقدمة الكتاب: لماذا نحتاج إلى صحبة القرآن؟

- التلاوة والتدبر والعمل: علاقة تكامل لا تعارض.
- مفهوم صحبة القرآن ومقاصدها.
- إشكالية الكتاب: كيف تتحول التلاوة إلى هداية حاضرة في الحياة؟
- منهج الكتاب في تناول الآيات والأحاديث والتأملات التربوية.
- خريطة الرحلة: من الاستعداد للتلقي إلى العمل بالقرآن.

المنزل الأول: مطالع الروح — التهيؤ لصحبة القرآن

المبحث الأول: ما معنى أن تصحب القرآن؟

- الفرق بين الاقتصار على التلاوة والتلقي الواعي.
- القرآن كتاب هداية وتذكير وتربية.
- الصحبة بوصفها علاقة مستمرة بالتلاوة والفهم والعمل.
- الصحابة والاقتداء بهديهم في تلقي القرآن والعمل به.

المبحث الثاني: تهيئة القلب للتلقي

- النية والإخلاص في قراءة القرآن.
- التوبة ومجاهدة الغفلة.
- حضور القلب والاستعداد للتدبر.
- أثر الطهارة المعنوية في الانتفاع بالقرآن.

المبحث الثالث: القرآن خطاب هداية ومسؤولية

- استحضر معنى الوقوف بين يدي كلام الله.
- التلقي بين الرجاء والخشية.
- الانتقال من القراءة إلى الاستجابة.
- التلاوة بوصفها بداية طريق العمل.

المنزل الثاني: آداب التلقي — كيف نقرأ القرآن ونتدبره؟

المبحث الأول: آداب التلاوة

- الترتيل وحسن الأداء.
- الإنصات والتأني.
- التكرار واستحضار المعنى.
- مراعاة أوقات القراءة وأحوال القارئ.

المبحث الثاني: التدبر وفهم المعنى

- معنى التدبر وصلته بالفهم.
- فهم الآيات في سياقها.
- الاستعانة بالتفسير الموثوق.
- الجمع بين الفهم العقلي والتأثر الوجداني.
- التمييز بين دلالة الآية والتأمل الشخصي فيها.

المبحث الثالث: التفاعل الوجداني مع القرآن

- الخشوع عند آيات الوعيد.
- الرجاء عند آيات الوعد.
- البكاء والتأثر وحدود الاستدلال بهما على الانتفاع.
- التفاعل مع الآيات دون تكلف أو ادعاء أحوال خاصة.

المبحث الرابع: من التدبر إلى الاستجابة

- تحويل المعنى إلى سؤال عملي.
- استحضار موضع الآية من حياة القارئ.
- التثبت قبل الاستنباط.
- تسجيل الفوائد ومراجعتها.

المنزل الثالث: بصائر الآيات — من المعنى إلى الهداية

المبحث الأول: كيف نتدبر الآيات؟

- السياق القرآني وأثره في فهم المعنى.
- الموضوع القرآني وعلاقته ببقية الآيات.
- الاستفادة من كتب التفسير.
- ضوابط التأمل والاستنباط التربوي.

المبحث الثاني: نماذج من الهداية القرآنية

- آيات الهداية والثبات.
- آيات التوبة والرجاء.

• آيات الصبر والابتلاء.

• آيات الشكر والنعمة.

• آيات النجاة وعاقبة العمل.

المبحث الثالث: من فهم الآية إلى تنزيلها على الحياة

• استخراج الهداية العملية من الآيات.

• التمييز بين عموم الهداية وخصوص سبب النزول.

• تطبيق المعنى دون إهمال السياق.

• نماذج عملية لتدبر آية وتحويلها إلى سلوك.

المنزل الرابع: مرآة القلب — تزكية النفس في ضوء القرآن

المبحث الأول: القرآن ومعرفة النفس

• النفس بين الاستقامة والانحراف.

• الغفلة وأثرها في السلوك.

• محاسبة النفس في ضوء الوحي.

• التمييز بين محاسبة النفس والوقوع في اليأس أو جلد الذات.

المبحث الثاني: أمراض القلب ووسائل علاجها

• الكبر والتواضع.

• الرياء والإخلاص.

• الحسد والرضا بقسمة الله.

• الغل والحقد وسلامة الصدر.

• سوء الظن والغيبة وحفظ حقوق الآخرين.

المبحث الثالث: الأخلاق العملية في ضوء القرآن والسنة

• حفظ اللسان.

• صيانة الحقوق.

• الرحمة والرفق.

• العفو والإحسان.

• أثر الأخلاق في صدق الانتفاع بالقرآن.

المبحث الرابع: المحاسبة والتوبة والتغيير

• مراجعة النفس في ضوء المعاني القرآنية.

• التوبة من الذنوب ورد الحقوق.

- بناء العادات الأخلاقية.
- معالجة الانتكاس وتجديد التوبة.

المنزل الخامس: القرآن في الحياة — من التدبر إلى العمل المبحث الأول: بناء الصلحة اليومية

- تنظيم الورد اليومي.
- اختيار وقت مناسب للتلاوة.
- الموازنة بين القراءة والتدبر والمراجعة.
- استعادة الاستمرارية بعد الانقطاع.
- بناء خطة شخصية تناسب قدرة القارئ.

المبحث الثاني: القرآن في أحوال الإنسان

- القرآن في أوقات الضيق والابتلاء.
- القرآن في أوقات الفرح والنعمة.
- القرآن عند اتخاذ القرارات.
- القرآن في أوقات القلق والخوف.
- القرآن في أوقات السكينة والخلوة.

المبحث الثالث: القرآن في البيت والمجتمع

- بناء البيئة القرآنية في الأسرة.
- القراءة والتعلم داخل البيت.
- صلحة القرآن في المسجد والمجالس العلمية.
- القراءة الجماعية وحدودها وآدابها.
- دور القدوة في تعزيز الصلة بالقرآن.

المبحث الرابع: صلحة القرآن عبر مراحل العمر

- الطفولة وبناء الألفة بالقرآن.
- الشباب وأسئلة الهوية والمعنى.
- مرحلة النضج والمسؤوليات.
- الكهولة والشيخوخة واستحضار المآل.
- القرآن في مواجهة الخوف من الموت والاستعداد للآخرة.

المنزل السادس: عوائق الطريق — كيف نحافظ على صلحة القرآن؟

المبحث الأول: عوائق التلقي والتدبر

- العجلة وعدم التأني.
- الغفلة وتشتت الانتباه.
- الاقتصار على التلاوة دون فهم.
- الاستسلام للملل وضعف الاستمرارية.
- التكلف في طلب التأثير الوجداني.

المبحث الثاني: عوائق الفهم والتطبيق

- قراءة الآيات بمعزل عن سياقها.
- الاعتماد على الانطباع الشخصي دون مراجعة التفسير.
- انتقاء المعاني التي توافق الهوى.
- الفصل بين المعرفة والعمل.
- تحويل التدبر إلى أحكام على الآخرين بدل محاسبة النفس.

المبحث الثالث: استعادة الصحبة بعد الفتور

- فهم أسباب الانقطاع.
- العودة التدريجية إلى الورد.
- تجديد النية وتنظيم الوقت.
- الاستعانة بالصحبة الصالحة والتعلم المنظم.
- تقويم المسار دون يأس أو مبالغة في محاسبة النفس.

المنزل السابع: ثمرات الصحبة — أثر القرآن في القلب والحياة

المبحث الأول: الثمار الإيمانية والوجدانية

- زيادة الصلة بالله.
- الخشوع والسكينة.
- التوازن بين الرجاء والخشية.
- الصبر والشكر.
- تجدد التوبة والإنابة.

المبحث الثاني: الثمار الفكرية والسلوكية.

- زيادة الوعي بالهداية القرآنية.
- حسن التمييز بين الخيارات.
- استحضار المسؤولية الأخلاقية.

- ضبط السلوك في ضوء الوحي.
 - تحويل المعاني إلى ممارسات ثابتة.
- المبحث الثالث: الثمار الاجتماعية والأخلاقية**

- التخلق بأخلاق القرآن.
 - حفظ الحقوق.
 - الرحمة والعدل.
 - حسن المعاملة.
 - أثر السلوك القرآني في الأسرة والمجتمع.
- المبحث الرابع: صحبة القرآن والاستعداد للآخرة**
- فضل القرآن والعمل به.
 - الشفاعة بالقرآن في ضوء النصوص الصحيحة.
 - حديث «اقرأ وارتق» ودلالته.
 - الاستعداد للقاء الله.
 - استحضار المآل الأخروي وأثره في الحياة.

خاتمة الكتاب: أن تصبح صحبة القرآن منهج حياة

- من التلاوة إلى الفهم، ومن الفهم إلى التدبر، ومن التدبر إلى العمل.
- الصحبة المستمرة بين الثبات والتجدد.
- كيف يبدأ القارئ من اليوم؟
- برنامج عملي مقترح للأيام الثلاثين الأولى.
- كلمة أخيرة: القرآن هداية تُتلى وتُفهم ويُعمل بها.

يتناول كتاب "صحبة القرآن الكريم" أهمية بناء علاقة واعية ومستدامة بكتاب الله تعالى. ويؤكد أن القرآن منهج حياة ومصدر للهداية والإصلاح، وليس للتلاوة فحسب. ويوضح التكامل بين التلاوة والتدبر والفهم والعمل بالقرآن. كما يبين أثر صحبة القرآن في تزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتقويم السلوك. ويناقش أسباب ضعف التأثير بالقرآن في الحياة اليومية. ويهدف إلى تعزيز الانتفاع بهدايات القرآن في مختلف جوانب الحياة. ويعرض وسائل عملية تساعد على استدامة الصلة بكتاب الله. ويراعي ضوابط الفهم الصحيح للنصوص القرآنية. ويخلص إلى أن صحبة القرآن طريق للهداية والاستقامة وبناء الإنسان.

المؤلف